

مکتوبہ نیکو



Bibliotheca Alexandrina



0147450

سورہ کافی مرتبہ الراج

سأوى فى مهبِّ الرِّيحِ

قصةٌ مصريّةٌ

محمود تيمور

لا أذكر من تاريخ حياتي ، قبل العاشرة من عمري ، إلا أطيافاً
شاحبة ...

في تلك الفترة كان يكفلني جدي لأبي ، فأقمتُ معه في منزلنا العتيق
بحسبي « محرم بك » ، في « الإسكندرية » : منزل لا نخامة فيه . . تحيط به
حديقة شعناء ، يطل على حارة منزوية لا متطرق .

وكان جدي ، منذُ متوفي أبي ، قد أخذ إلى العزلة ، وآثر الوحدة ،
وتوضحت على محييه سمات التعجبم للعنينا ، والتبرم بالحياة ... ولم يكن
يزوره إلا رجل علت به السن ، وقوضت بناءه الأيام ، يدعى
« الطوخى أفندي » ، فيمضي كلاهما بعض الوقت في حجرة الضيافة
القائمة في ركن من الحديقة ، فأراهما حيناً يتناقضان الحديث ، وحيناً
يلعبان بالترد ناشطين لا يعتريهما ملال . وكنت وأنا في حجرتي يصكّ
سمعي صوتهما مدوّياً كهزيم الرعود ، فتنتظمني رجفة ، ويخيل إليّ
أنهما مشتبكان في تضارب وسباب !

ولم يكن في الدار من الخدم غير « أم يونس » ، والحاج مسرور ، ...
الأولى ضامرة عجفاء ، توهم من يراها أنها تنوء بالأمراض ، ولكنها
في الحقيقة صلبة العود ، قوية الأعصاب ... أما « الحاج مسرور » ، فكان

سودانياً أمّيل إلى البدانة ، طلق الوجه ، هادىء الصوت... وكان كلاهما يحسن معاملتى ، ويتعهدنى بعطف وحنان ، فشرعت نحوهما بحب وشغف . وشدّ ما كان يسوءنى أن أرى جدّى لا يعاملهما بالحسنى . فهو ينحى دائماً عليهما باللائمة ، ولا يفتأ يؤاخذهما ويسفه آراءهما فى كل شيء .

ومرة دخلت عليه فى حجرته ، وكان منصرفاً إلى مطالعة صحفه ، وتدخين لفائفه ، فدنوت منه واجتذبتُ أطراف جلبابه فى تلطف ، فعلا برأسه ينظر إلىّ ، فلهاشاهدته قد زوى ما بين حاجبيه ، وبداعليه العيوش ، وكّلت منه فراراً ، ولكنّه نادانى ملحناً ، فعدت خاشعة مطأطئة الرأس ، فأجلسنى على ركبتيه . ومسح على ناصيتى ملاطفاً ، ثم نظر إلىّ مبتسماً ، وقال : ماذا تبغين يا « ساولى » ؟

فلبثتُ صامتة ، وأنا أناثنى طرف ثوبى وأبسطة ، فضمنى إلى صدره ، وقال : قسا إنك لتبغين أن تشترى « شكولاته » ! ...

فرفعتُ إليه رأسى ، وقلت مؤكدة : كلا ، يا جدّى !
— إذن ، ماذا تريدن ؟

— أتعدّنى ألا تغضب من مطالئى ؟
فضحك قائلاً : الأمر خطير إذن !

فقلت فى جدّ : هو كذلك يا جدّى ...

فأطال النظر إلىّ ، وهو يبتسم ، ثم قال : أفصحى ...
فالتصقت به ، وأخذت بيمناه أنهل عليها تقبيلًا .

ثم قلت : لماذا تسمى معاملة « أم يونس » و « الحاج مسرور » ، يا جدّى ؟ ! ...

فأخذ برأسى ، ورفعّه إليه ، وأنعم النظر فىّ ، قائلاً :

عجيب أمرك يا «سلى» ... وهل يعنيك شأن «الحاج مسرور»
و «أم يونس» إلى هذا الحد ؟
— يعني جدّ ! ...

فصمت لحظة ، ونظره لا يندّ عن وجهى . ثم قال :
إذن أعدك بالأأسىء معاملتهما بعد الآن ...
فمرتني هزة اغتباط ، وجعلت أوسع جدّى تقبيلاً ، ثم خرجت
أعدو لأزف البشرى لصديق «الكبيرين» ...
ولم يبرّ جدّى بوعده إياى ، واسكنه كان حين يرانى مقبلة ، وقد احتدّ
على أحدهما ، سرعان ما يلطف من حديثه ، ويربح المسكان مغمغماً ، ثم لا يعم
أن يصيح منادياً إياى ، فينهال علىّ توبيخاً بلا مسووغ !
واستدعانى مرة ليقول لى :

لقد فكرت فى تعليمك يا «سلى» وسأتولى هذا الأمر بنفسى ...
ثم أخرج من صِوان ملبسه كتيباً أحمر الجلد ، وفتحه أمامى قائلاً :
ابدئ القراءة ... ألف ، باء ، تاء ...

ورأيت الحروف أمامى عجيبه الاشكال ، وخيل لى أنى بصدد الغاز
لن أستطيع الاهتداء إلى حلها ، فوجمت لأنبس ... وكرر جدّى قوله :
قلت لك ابدئ القراءة ... ألف ، باء ، تاء ...

وكان سموته قد بدأ يتعالى ، وتبينت فيه مسحة الغضب . فارتجفت ،
وانعقد لسانى . فسمعت جدّى يصرخ مهمتاجاً :

ماذا أصابك ، أصمّاء خرساء أنت ؟

فانخرطتُ فى البكاء ، ورمى جدّى بالكتيب ، وهو يصيح بقوله :
يجب أن تتعلّمى ... سأهتّم بأمرك رضيت أم كرهت !

وخرج يدفع الباب وراءه في شدة وعنف . وبعد لحظة عاد إلى الحجرة
مشتاقل الخطأ ، وأخذ يحوم حول متظاهراً بأنه يبحث عن شيء ... وأخيراً
اقترب منى ونحائى عن المقعد في رفق ، ثم جلس عليه ، وأجلسنى على
ركبتيه ، وقال لى : لئننى أقصد خيرك يا «سلوى» ... أريد أن تصبحين فى
غدك المنتظر فتاة صقلتها التربية وزانها التعليم ، فأراك مفخرة النساء ...
ثم أخرج منديله ومسح به وجهى ، ورفع رأسه إلى يقول :
أنتِ تكبرهينى يا «سلوى» ... أنتِ تكبرهينى ...
ولا أدرى لماذا لبثت فى صمت ، خافضة الرأس ، فسمعتة يقول :
أجل ، أنت تكبرهينى ، لست أنتِ وحدك ، إنكم جميعاً فى هذا البيت
تكبرهوننى ... أنا رجل بغيض ، وسىء الأخلاق ! ...
ثم أزالنى عن حجره ، ونمض خارجاً وهو يردد :
أنتم تكبرهوننى ... أنا هنا رجل بغيض !
وما كاد يبلغ الباب ، حتى أحسست حافزاً يدفعنى إليه ، فهرعت
أتشبث بجلبابه ، وانطلقت أبكى وأنشج ...
وظل جدى طَوال يومه رهين حجرته ، ولما خرج منها حين بَجنَّ
الليل تبينتُ أن الاحمرار باد فى عينيه ! ...
تولى جدى أمر تربيتى وتعليمى ، فجعلنى أحسن القراءة والكتابة ،
وحفظنى ما تيسر من القرآن ، ولكنى لا أكتفى أن أسلوبه فى التعليم
أسلوب لا يخلو من شذوذ .
ولقد كنت لا أكاد أنتهى من درس معه ، حتى أنطلق إلى الحديقة
أطلب الهواء والنور . كأتى سجين أطلق سراحه بعد طول عذاب !

كنت أفضى أيامي في عزلة كما يفعل جدّي ، أنفر من الغرباء ، وأقنع
بصدقة الحاج مسرور ، و أم يونس ، فأقسم وقتي بينهما مستمتعة
بما يقصّانه عليّ من لطائف السمر...

أما الحاج مسرور ، فرجل مليء لنشاطاً على الرغم من شيخوخته ،
وهو دمث النفس ، وديع الخلق ، يؤدي مطالب المنزل جمعاء ، ولا يخلو
الحديقة من عنايته ... ولقد كنت أراه يقف أمام جدّي في مسكنة
وتخاضع ، يحتمل صابراً ما يلقي من شراسة وإهانة وإعنات... فإذا ذهبت
إليه بعد ذلك أسأله : أمستاء أنت يا حاج مسرور ، رفع إليّ بصره ،
وابتسم في وداعة ، وأجابني : أنا أستاذ من سيدي وابن سيدي ؟ !

أما أم يونس ، فكانت مريضاً بالمرحوم أبي ، وقد نيط بها اليوم
خدمة المنزل وطهه والطعام . وكثيراً ما ذهبت إليها في المطبخ ، وجلست
معها أساعدها في إعداد الخضر ... وكانت دائبة الحديث عن أبي ، تقصّ
عليّ شئون حياته وطرائف أنباته منذ كان طفلاً رضيعاً حتى وافاه الأجل
المحتوم في ريعان الشباب ... وكانت تشيد بما امتاز به من صفات الرجولة
والبطولة ، فأخبرتني بأنه كان من مشهورى رجال الشرطة ، طوّف في أنحاء
الريف والضميد الأعلى ، وله في مكافحة اللصوص مواقع مذكورة تشبه
ما خلده الأساطير من أحداث ، وكان إذا حلّ بلدأ خرج إليه الناس
محتفين بمقدمه ، واستقبلته النساء بالأغاريد من كل صوب ...

ولقد كنت أصغى لهذا الحديث مشبوبة الشغف ، وأستعيد لهاياه
لا أمل التكرار .

وعلمت منها ذات يوم أن أبى كان يحب أمى حب عبادة ، ولكنه يشتبك معها فى مشاحنات لا يخبو لها أوار .

وسألت « أم يونس » مرة :

ولماذا كانت تجرى تلك المشاحنات بين أبى وأمى ؟

فألت علىَّ ، وهى تبسّم هامسة : كان يغار عليها !

— أفكانت تحبه ؟

— لم يكن حبها إياه بكبير ...

— لماذا ؟

فدارت « أم يونس » بعينيها تبين ماحولها ، ثم أمسكت يدي وشدّت .

عليها ، وقالت فى صوت منخفض : لقد كان يعنف بها ، وكانت تخشاه !

ثم قالت « أم يونس » فاعرة فاهها فى صوت راعب :

لقد كاد يقتلها فى ليلة ليلاء !

فالتصقتُ بها قائلة : كيف ؟

— لقد باغتها مع ...

ثم صمتت فجأة ، وتظاهرت بالبحث عن سملة الخضر ... وبعد لحظة .

قالت فى لهجة مألوفة : هل حضر اليوم بائع الخضر ؟

فطأطأت رأسى ولم أجب ، فقد جاء بائع الخضر وأسلم إليها راتب .

اليوم ، وإنها لتعلم ذلك تمام العلم ...

وأظننا الصمت مديدأ من الوقت ، وكلانا مشغول بما بين يديه

من قرع يقشره ...

ورأيتنى وقتئذ أفكر فى حجرة الزوّار ، وفى صورة المرحوم أبى المعلقة .

فى أحد حوائطها ، كانت هذه الحجرة مهجورة عليها طابع الأسرار ، قلبا .

تدخلها ، أم يونس ، لتنظفها ، وما كنت أرى جدّي يظاً عتبتها ،
أما أنا فلم أكن أجسر على دخولها ، وكنت كلما جرت ببابها اعترفتي
قشعريرة خوف ...

فدسلكتُ من المطهى ، دون أن تشعر بي ، أم يونس ، ومضيت إلى
البهو ، تحدوني رغبة لا قبل لي بمقابلتها ، وقد شعرت بشجاعة غريبة ،
فدنوت من حجرة الزّوار ، وأدرت مقبض الباب ، وسرعان ما دخلت ،
نور ضئيل يدلّ إلى المكان ، وغاشية من السكون تخيم عليه ... واستطعت
أن أرى على الحائط صورة ملوّنة مكبرة بالحجم الطبيعي " لشخص مرتد
لبوس الضباط ...

مثلت قبالة الصورة خرساء ، أطيل التأمل فيها ، ولم أدرك: أليل مضى.
على من الوقت أم كثير ، وأنا على هذه الحال ؟ وخيل إلى أن شفق أبي.
تختلجان ، وأنه بدأ يخطو من إطار الصورة المجلل بالسواد ، فخرجتُ إلى
البهو أعدو صارخة فرعة ، فرأيت جدّي في طريق ، فارتميتُ في أحضانه ،
وقد رمت ، د أم يونس ، مهرولة ، فسمعتُ جدّي يقول لها مغضباً :
ألم أرغب ليلك في أن تغلق باب هذه الحجرة بالمفتاح ؟

مضى على هذا الحادث يومان ، وكنت في حجرتي مع د أم يونس .
نخبط معاً جلجلباً لي ، وكانت هي تثرثر ، راوية لي تتفأ من توافه الأخبار .
فلم أنصت لما ترويه ... وبفترة قلت لها مقاطعة :

أخبريني عن أمي ... أين هي الآن يا د أم يونس ؟
فالتفتت حولها مذعورة مضطربة ، وقالت : صمتاً ، لاشأن لي بهذا ...
فأنحيت عايتها ، وهمست في أذنها :

جدّي مع الطوخي أفندي ، في حجرة الضيافة ... إنه عنا بعيد !

وأمسكتُ بيديها ، وجعلت أقبلهما ، وأنا أقول :
أقسمت عليك إلا أخبرني عنها ... لن أبوح لأحد أبداً ...
لجذبتي المرأة إلى صدرها واحتضنتني ... ثم أخذت تمسح عينيها :
«وقالت راعشة الصوت : ألا تعسديني أمك يا د سلوى ؟
— ولكنني أريد أن أعرف أين هي ؟ ولماذا لا تأتي لزيارتنا ؟
فالتفتت ناحية الباب ، ثم قالت في خفوت :
إنها في القاهرة ... في القاهرة ...
— في القاهرة ...
— أجل ، في القاهرة ...
— ولماذا لا تأتي لتراني ؟

فعبست « أم يونس ، في وجهي ، ولم تجب ، وناولتني الجلباب
لأستأنف عملي فيه ، وبينما كانت منهمكة تريني كيف أخيط ، قالت لي
مؤكدّة :

إياك أن تخبري جدك بما سمعته مني !
فأجبتها ، وأنا منحنية على الجلباب أخيط :
لن أقول شيئاً يا د أم يونس ، أبداً ... !

صحبت دأم يونس، يوماً إلى «كازينوسان استغانو» لندشهد احتفال «جمعية العروة الوثقى» وتعرفت هناك بفتاة ثماني سنًا، تدعى «سنية» من أسرة مثرية ذات جاه عريض، فأسرع أن نبئت بيننا الألفة، وما هو إلا وقت قريب حتى أصبحت لى صديقة مخلصه أباد لها الصداقة والإخلاص ! وكانت «سنية» تفيد إلى «الإسكندرية» مع أسرتها، وكان لها قصر نفخ في الرمل يشرف على البحر . تحف به حديقة فياحة بديعة التنسيق، يتعهد بها بستانيان وقفها عليها جهدهما ودأبهما، وتناوبا حراستها حتى لا يقتحمها أحد فيفسد بسوء .

وكان لصديقتى طائفة فاخرة من اللعب، لأحلم بامتلاك واحدة منها، ولكن هذه اللعب كانت في حوزة «مدموازيل شانتل» مربية «سنية»، وهى لا تأذن لنا منها إلا بما تريد لا ما نريده نحن . فإذا أذنت لنا بشيء منها وقفت تراقبنا مخافة أن نعمل فيها يد الإلتلاف . وكانت إذا انكسرت لأحدى اللعب ثارت بنا وانطلقت تعنفنا ما وسعها التعنيف .

و«مدموازيل شانتل» عانس ذرقت على الخمسين، سميرية القامة، لها وجه محتقن تعريض فيه التجاعيد... وعلى الرغم من بشرتها السمراء تدعى أنها من نبيلات الفرنسيات، وأنها خليقة بأن يلقبها الناس : «مدموازيل دى شانتل» ... أحضرها «الزهيرى باشا» والد «سنية» لتكون مربية لابنته، وأحال إليها إدارة المنزل بعد وفاة زوجها... وكنت حين أذهب لأحييها أمدد إليها يدى، فتقرّب منى أناملها، وتفتح فها عن ابتسامة أشبه ما تكون بتكشير الكلاب عن الأنياب ...

وكانت دائماً تتناول معنا الغداء ، تاركة والدادة شيرين ، أن تقوم بالخدمة... وفي ذات يوم كنا نحن الثلاثة على المائدة نأكل ، وبغثة أظهرت المدموازيل ، امتعاضها ، ورمت بالشوكه ، وقالت بالفرنسية ، موجهة الخطاب إلى « سنية » : من طبخ هذا الصنف ؟

فأجابها « سنية » خائفة : والدادة شيرين ، يا « مدموازيل » ...
فالتفتت إلى « الدادة » وأشارت إلى الصّفحة في رطانة منكّرة :
زفت ... زفت ... زفت ...

فبرطمّت « الدادة » قائلة في صوت مكتوم :

زفت على دماغك ودماغ أهلك !

فاحمرّ وجه « المدموازيل » وسألت « سنية » :

ماذا تقول هذه السكبة القذرة ؟ ماذا تقول ؟ ...

فارتبكت « سنية » وامتقع وجهها ، وقالت متعلّمة :

لا شيء يا « مدموازيل » ! ... لا شيء !

ثم أخذت يدها ، وجعلت تقبلها ، ولكن « المدموازيل » شذت .
يدها من يد « سنية » ورمت بالفوطة . وقامت وهي تقول : سترى كيف .

أعاملها بعد الآن ... سأدوسها بخذائي ! ... سأسحقها تحت قدمي ! ...

ثم ألقت في فيها جرعة من الماء في عجلة ، وصاحت :

الحياة في هذا المنزل أصبحت لا تطاق ... لا أستطيع أن أمكث

أكثر مما مكثتُ ... أسامعة ! ... يجب أن تبغى أباك ما أقول ! ...

واعتقدت أن « المدموازيل » مبارحةُ المنزل عما قليل ، ولكني

وجدتها مقيمة فيه لا تفارقه يوماً .. وقد شهدتُ مثل هذا المواقف الصاحب

غير مرة ، حتى ألقتُ هذه الحال ، فلم أعد أعيرها جانب اهتمام ...

وكانت «سنية» تحبني أصدق الحب ، وتولينى من دلائل الإخلاص ما يبعث العجب . وكثيراً ما اندفعت تقبلنى فى غير مناسبة ، ولا نقفاً تدلنى وتدعونى بأعذب الأسماء ، فكنت أبادلها العطف دون إفراط ، ولا أنكر أن مبالغة «سنية» فى حبها وتدليلها لإيادى كان يبعث فى نفسى شيئاً من الضيق ...

أما والدها «الزهيرى باشا» فكان رجلاً مبسوط القامة ، عبل الجسم ، له عينان حادتان كعينى الصقر ، يظللهمما حاجبان غزيران ، وله شارب أحكم فتله ، وصوب أجش عريض تبعث نبراته رهبة فى القلوب . فكنت أتخشى لقاءه ، بيد أن رغبة خفية كانت تدعونى دائماً إلى مراقبته دون أن يشعر بوجودى .. وكانت «سنية» على علم بهذه الرغبة فى نفسى ، فكانت تقودنى إلى حنبا أمين أجلس فيه معها ، وأراقب «الباشا» وهو فى عبادة من التحرير الأبيض تزيده بهاء ومهابة ، جالس على مقعده الفسيح يطالع الصحف ، ويحتسى القهوة ، وينفث دخان اللفائف على نحو يشير الإعجاب ...

ومرة كنت أعدو فى البهو الكبير خلف سنية ، لألحق بها ، فأخذ يتلأببها ، وإذا بشخص يصدمنى لأدري من أين نجم ، وما هى إلا أن قبيلت أنه «الباشا» نفسه ، فأصابنى من الرعب ما أشل أوصالى وأخرس لسانى ، ورأيتة يحرق فى بصره التفاد ، ثم مدّ لى يده فى حركة رائعة ، فأنحيت عليها وقبعتها فى خشوع ، وسرّت فى جسمى هزة كهربية حين لمست تلك اليد الضخمة التى يكسوها الشعر وتفوح منها رائحة التبغ ، وبعد أن لاطفتى ومسح على رأسى مبتسماً تابع سيره .

وهرعت إلى «سنية» أقول : لقد رأيتة الساعة ، وقبلت يده ، و... ثم أمسكت بفتة عن الكلام . فقالت لى : أى شخص رأيتة ؟

فقلت : لا أحد ... ومضيت صامتة ، تتنازعنى شتى المشاعر !

وكثيراً ما كنت أصادف عند «سنية» غلامين يكبراننا بأعوام، قلائل، الأول يُدعى «شريف»، وهو من ذوى قرباها، غير أنه لا يسامها بها، جاها ومالا: فتى مهتدم عليه طابع النبل، ذلق اللسان جرى، يدخل على «الزهيرى باشا»، وهو فى مجلسه مع أصدقائه، فيصافح الجميع واحداً بعد واحد، وهو مرفوع الرأس يبتسم، ويأخذ مقعده بينهم ليشاركهم الحديث، كأن ليس بينه وبينهم من فارق... وكان «الزهيرى باشا» يطيل معه الكلام، ويكثر من محاورته فى مختلف الشئون، فكان «شريف» يحببه فى لباقة وسرعة خاطر يدهش لها «الباشا» وزمؤاره. وقد أخبرتنى «سنية» فى سرٍّ أنها خطوبة له من الآن؛ وكان إذ ذاك ظهر أمامنا التصقت به «سنية» وانطلقت تلقى فى أذنى بكلمات لا أفهم معناها، وأخذت تضحك فى احتياج فترنَّ ضحكها باردة مفتعلة تثير الغيظ... ثم تنفرد به وقتاً طويلاً تلعب معه غير حاسبة لوجودنا أى حساب. وإذا انتهت زيارته وخرج، ألفتها تمسح عينيها وتدس وجهها فى أحضانى!

أما الفتى الآخر، فيدعى «حمدي» وكنا نكنّيه «أبا فصادة» لأنه كان بائن الطول، ظاهر التحافة، إذا جرى خلفنا أثناء اللعب وجدناه يقفز قفزات بعيدة... لوجهه قسائم متناسبة هادئة، ولعينه بريق عجيب... يؤثر الصمت، حتى ليشعر الإنسان وهو معه أنه فى حضرة فيلسوف حتمت كنهه السنون!... وهو مغرم بالصغير بفمه. ومن غريب أمره أنه تعلم العزف

على «البيان» وحده دون معلم... وكثيراً ما انسلت إلى حجرة الاستقبال.. وأقل عليه بابها، وأخذ يعزف على «البيان» الكبير الموجود فيها، وقد باغتته مرة «مدموازيل» شانتل، فأقفلت «البيان» بشدة، ثم أغلقت الحجرة بالمفتاح... وكانت «حمدى» ساعات إشراق ومسرة، فيخرج عن صمته، ويندفع يصفر لنا ألحان الأغاني الشعبية في شعوذة. وإذا مرت به «المدموازيل»، وهو على هذه الحال، التفت إليها، وانحنى أمامها، وصرخ بالفرنسية: احتراماً لك «للكونتيس دى شانتل»!

ثم يجرى هارباً، وهويقفز قفزاته الواسعة، ونحن في أثره نضحك. ونضج، وصوت «المدموازيل» يرتن في آذاننا: سفلة... دون...! و«حمدى» فتى من أسرة فقيرة، أدركه اليتيم، فعاش في كنف أحد أقربائه بالقاهرة... وكان والد «شريف» كثير العناية به، إذ كانت له صلات وثيقة بوالده، فألحقه بالمدرسة التي يتعلم فيها ابنه، ومن ثم ارتبط الرفيقان منذ النشأة برباط الصداقة المتينة... وكان «شريف» إذا قدم مع أسرته إلى الثغر يصطافون، قدم في جملتهم «حمدى» يمضى معهم عطلة الصيف.

وتجرات مرة، فدعوت «سنية» وصديقتها «شريف» و«حمدى» ليقوا اليوم كله عندي، فلم يعارض في ذلك جدتي، وترك لنا المنزل منذ الصباح المبكر. ونزلت إلى الحديقة أنتظر الضيوف، وكنت قلقة لا يستقر بي مقام، أسأل «الحاج» مسرور، بين لحظة وأخرى عن الوقت. ثم أدخل المنزل في عجلة، لأرى ماذا أعدته «أم يونس» من ألوان الطعام... وكان يخيل لي أنها فقدت في ذلك اليوم نشاطها، وأنها بطيئة في عملها.

على نحو لم أعده فيها قط ، فكنيت أصبح بها وأنا أحشأ على الحركة والسير
وأخيراً سمعت بوق السيارة ، فعجلت إلى الباب ، وبعد قليل ظهرت
السيارة تتخطى كالعروس ، ثم وقفت أمام البيت ، ورأيت رأس حمدي ،
يطل ، فما إن وقع بصرى عليه حق انفجرت ضاحكة... ونزل حمدي ، وهو
ينظر إلى متسائلاً ، ثم ماعثم أن اندفع هو أيضاً يضحك . ونظر إلينا
« شريف » و « سنية » وهما مدهوشان ، ولكنهما لم يلبثا أن استغرقا في
هوجة من الضحك . وانتقلت العدوى إلى الأسطى جميل ، سائق السيارة
و « الدادة شيرين » التي اصططحبتها « سنية » فانطلقنا جميعاً نضحك ،
ولا ندرى لهذا الضحك من مآق !

وأخيراً سكنت العاصفة ، ودخلنا المنزل ونحن نمسح عيوننا ، وكان
« شريف » يتقدمنا في السير ، كأنه يعرف المنزل حق المعرفة ، على حين أن
أن زيارته هذه كانت الأولى !

وطوّقت بأصدقائي في المنزل ، وأريتهم حجرى ، وأخرجت لهم
ملابسى ولعبي وكتبى ، ولم أترك كبيرة ولا صغيرة مما تحتويه خزائى إلا
عرضتها عليهم ... والتفت ضيوئى حولى ينظرون إلى هذه الأشياء
ويتفحصونها ، على الرغم من أنها كانت عادية لا تستثير أى اهتمام ...
ورأيت « سنية » تقلب في يدها خاتماً من الصفيح كنت كسبته
فى البخت ، فأخذته منها ، ووضعته فى إصبعها ، ثم فسلتها .. وفهمت
قصدى ، فابتسمت وقبلتقى !

ووجدت « شريف » و « حمدي » يراقباننا ، فقصدت من فورى إلى
هكتبى ، ثم قدمت لـ « شريف » قلباً وصاصاً أحمر مزوداً بغطاء ومachine ،
وأهديت إلى « حمدي » صفارة صغيرة من الخشب ، فتناول كلاهما هديته

مبهتجا فرحان ، واندفع «حمدى» على الفور يصفر ببعض ألحانه اللطاف .
ثم نزلت بضيوئى إلى الحديقة ، واختارنا خييلة تجتمع فيها طائفة من
الأشجار الهرمة ، فاعتزمنا أن نلعب تحتها ونتناول الغداء

ونظر «حمدى» إلى الخييلة حيناً ، ثم قال رزين اللهجة ممتد المنطق :
ألم تلاحظوا شيئاً فى هذه الأشجار ؟

— أى شىء ؟

— أمراً غريباً ... مدهشاً !

— ؟ ... ؟ ... !

— دققوا النظر ، ثم أخبرونى ...

ورمينا بأبصارنا فى الخييلة نتفحص ، ولكننا لم نكتنه ما يريد «حمدى»
ولم نلفظ إلى شىء فى الشجر . فقال : أيها الأغبياء ... هناك شبه عجيب
بين هذه الأشجار وبين أناس نعرفهم ... دققوا النظر ثانية ...

فصاح « شريف » وهو يشير إلى شجرة فى الخييلة : هذه «دموازيل
شانتل» ... انظروا ... ألا ترون عنقها الطويل توكشيه التجاعيد ؟
فصحننا فى صوت واحد : حقاً ... «دموازيل شانتل» ... !

وانطلقنا نضحك . وسمعنا «حمدى» يقول :

صه ... اسمعوا . ماذا تقول ؟ ...

ثم قال محاكياً صوت « المدموازيل » الخشن :

أيها الأوغاد ... كللكم سفيلة ... دون ... سفيلة ... دون !

فأبرينا نغرب فى الضحك ... ورحنا نطلق على كل شجرة اسم تابع
من أقباعنا ، متلمسين ما يكون بينهما من مشابه . واشتبكنا فى حديث
طويل بين الضحك والصياح !

وكانت « سنية » ملازمة « لشریف » كظله ، دائمة التطلع إليه .
فإذا قال قولا أسرع توافق عليه ، وإذا طلب شيئاً هبت مهرولة
توافيه به ، وكثيراً ما تمنحنى عليه وتهمس في أذنه ، ثم ترسل عالى
الضحك ...

ووجدت « شریف » قد بدأ يتبرم بها ، وأخيراً ثار عليها ينهاها أن
تتبادى فى هذه السخائف ، فاضطربت واصفرَّ وجهها ، ثم جرت إلى
المنزل محتفية فيه ، فقفتُ أثرها ، فوجدتها محتبئة فى إحدى الزوايا
المظلمة وقد استبدَّ بها البكاء ، فلاطفقتها ، وطببتُ خاطرها ...
وبعد قليل ألفت « حمدى » و « شریف » يقبلان علينا .
وما هى إلا أن تم الصلح بين « سنية » و « شریف » دون كبير
عناء ...

وعدنا إلى الحديقة نلهو ونلعب !

سأمت صحة جدّى ، وثقل عليه المرض . فلزم حجرته ، وكان الطوخى أفندى، يبادره بالزيارة كل يوم ، ويقضى وقتاً طويلاً معه ، يقرأ له الصحف ، ويتناقله الأحاديث ... وكثيراً ما تناول الغداء فى البيت ، وأمضى فترة القيلولة فى الحديقة نائماً فى ظلال الشجر ... وكنت أتردد على حجرة جدى . وأشعر بغبطة حين يكلفنى عملاً أفضيه له ... وذهبت إليه فى صباح أحد الأيام ، ولما تقدمتُ منه لأقبل يده على مألوف عاقد معه ، راعنى امتقاع وجهه ، فلما أمسكت يده وجدتها شديدة البرودة سريعة الارتجاف ، فتعلقت به وجعلت أحضنه ، فلاطف رأسى فى تعطف وحنوّ .

وفى غداة غد أردت الدخول إلى حجرته ، فنعتق د أم يونس ، وأسرتُ إلى قولها : لأنه نائم ... وكان لصوتها نغمة غريبة ، وسمعت جدّى يغطّ غطيظاً مضطرباً فارتعت ، وأمسكت يد د أم يونس ، أشدّ عليها ...

وبعد حين أقبل د الطوخى أفندى ، ومعه د الدكتور حسنى ، وكان هذا الدكتور صديقاً لجدّى لا يزوره إلا إذا شكَا علة أو إذا أقبل عيد .. دخل د الدكتور حسنى ، مع د الطوخى أفندى ، مترهلاً فى مشيته ، يجرّ نفسه جرّاً ، ويحرك أعضائه فى صعوبة كأن شيئاً يؤله ...

ولما انتهت الزيارة وخرج ، وجدته يميل على د الطوخى أفندى ، ويسرّ إليه كلمات ، على حين كانت أسنانه مطبقة كـتصرّ ، وشفته منفرجتين فى شكل مخيف !

وأَمْضَيْتِ اليوم كله وأنا قلقة ، أحيا في جو غامض ... ولا زمتُ
« أم يونس » ، بابَ حجرة جدى ، جلستُ بجوارها صامتة . وكنت
أرفع بصرى إليها ، فأجدها تتحدث إلى نفسها مغممة ، وتشير بيديها
إشارات الحسرة والألم ، فيزداد قلقي واضطرابى ...
وقضيت هزيعاً من الليل على تلك الحال ، ولم أذهب إلى فراش
النوم إلا بعد أن رضيتُ « أم يونس » أن تصاحبنى فى الفراش ...
واستيقظتُ فى روثى الصبح ، فرأيت والدادة شيرين ، خادمة « سنية »
بجانب سرى ، فعجبت لوجودها ، وبادرتهما بقولى : أنت ههنا يا « دادة » ؟
فانحنت علىّ ، واحتضنتنى طويلاً ، وقبلتنى ، ثم قالت لى :
ستقضى اليوم عندنا ... هيا ...

— لماذا ؟

— هيا يا « سلوى » ... لاتضيعى الوقت .

ورأيتها تبسم ...

ولكن أية ابتسامة هذه التى طالعتنى بها ؟ كانت مروعة حقاً !
وسألتها : و « أم يونس » ... أين هى ؟

— مشغولة يا بنتى ، مشغولة ... هيا اللى ، فالسيارة تنتظرنا بالباب
وارتديت ثيابى بسرعة ، وأردت رؤية جدى قبل الخروج ، ولكننى
وجدت « أم يونس » بالباب تمسح دموعها ، فعجبت ، وسألتها : فيم تبكين ؟
فأخبرتني بأن الوزه الكبيرة التى كانت تربىها قد ماتت فى الليل ،
فشعرت بكآبة تتسرب إلى نفسى ، وهممت بفتح باب الحجرة لأرى جدى ،
ولكن سرعان ما حالت دون ذلك « الدادة شيرين » وهى تتمتم :
جداً يا « سلوى » ، نائم ، فلا توقظيه .

وفي هذه اللحظة أقبل الطوخي أفندي ، و « الدكتور حسني » ،
الاول يمسح عينيه ، والآخر ساهم النظرات . وفي إثرهما رجل معمم
يلبس القسباء دون أن يتمنطق بالحزام ، وقد شمر كفيه ، وأخذ يتفحص
أركان البهو .

وهنا أطلقت « أم يونس » صيحات عالية يقطعها النحيب .
وأخذتني بين ذراعيها ، وغمرتني بقبلاتها ، وهي تصيح :
جداك راح يا « سلوى » ... راح وانتهى !
فوجئتُ إذ ذاك ، وعرفت أن الذي مات هو جدي المسكين ،
لا الوجة الكبيرة ! ...

فاندفعت في بكاء ونشيج ، ولكن سرعان ما أحسستُ يد
« الدادة شيرين » تلاطفتني ، ثم أخذتني بين ذراعيها ، وحملتني إلى
السيارة حملا .

لبثتُ في بيت دسنية، خمسة أيام ، كنت فيها موضع الرعاية والعطف
من الجميع ، حتى من دمدموازيل شانتل ، فقد نزلتُ لي عن بعض
كبرياتها ، وراحت تلاطفني وتكلمني رقيقة اللهجة ...

وكنْتُ أنام الليل مع دسنية، في سرير واحد ، وأقضى الوقت معها
تلعب ... وجاء الزهيري باشا، مرة الحجرة ، وأجلسني على ركبتيه ،
وقال وهو يربت كتفي : أمسرورة أنت عندنا يا دسلوى ؟
فطأطأت رأسي مبتسمة ... وقال دالباشا :

لماذا لا تجيبين ؟ يظهر أنك غير مسرورة !
فأسرعت دسنية، تقول : إنها مسرورة يا أبت ، وقد أسرتُ إلى
أنها تريد المسك عندنا طويلا .

فدنظرتُ إلى دسنية ، نظرة عتاب، وسمعت دالباشا يقول هامساً:
حبذا ... ولكن ...

ثم مسح على رأسي ، وترك المكان .
والتفتُ إلى دسنية ، أقول لها : لماذا أخبرتِ أباك بأنني أريد
المسك عندكم طويلا ؟ أفلتُ لك ذلك من قبل ؟
— أساءك قولي ؟

— كلا ، ولكنني أريد العود إلى منزلي .
— لم أكن أحسب أن كلامي يسوءك إلى هذا الحد !
— ثقي أني لست مستاءة منك ...

— إذن ، من ؟

— لست مستاءة من أحد على الإطلاق !

وأطرفت وقتاً ، وأنا أشعر بضيق يغزو قلبي ، فبالرغم مما كان يشعلني في ذلك القصر من رفاهية وراحة ، كنت أحس أحياناً فراغاً كبيراً حولي ، فيخيل إليّ أني أعيش وحيدة في مكان واسع ينشاه الصمت الخفيف ... وكانت ذكرى جدى تلاحزني ، وصوت « أم يونس » ، وهي تقول لي :

جَدُّكَ راح يا « سلوى » ... راح وانتهى !

يقرع سمعي من حين إلى حين قرعاً شديداً ، فأرتجف ، ويسري في أوصالي فرع شديد ...

وأمسكت يد « سنية » بغتة ، وقلت لها في لهفة :

لماذا لا تأتي « أم يونس » ؟ أين هي ؟

فنظرت إليّ خائفة ، وقالت : لا أدري !

— أخبرهم أنني أطلبها ، أرغب في رؤيتها ... أرجوك !

ثم شعرتُ بالدموع تلُبِّق من عيني دفعة واحدة ، فأخفيت وجهي في يدي ، واسترسلت أنتحب ...

وتواصلت الأيام على هذه الحال ، وبينما كنت ألعب يوماً مع « سنية » في البهو الكبير ، سمعت « الباشا » يتكلم محتداً ، فأرهفت سمعي و« جلت » ، فإذا به يقول : لا أريد أن تطل هذه المرأة باب منزلي مرة أخرى ، سأرسل إليها الكاتب ليتفق معها في شأن ابنتها ...

وتبادلنا أنا و« سنية » النظرات ، ثم هربنا إلى ركن من الأركان ، فاخبتنا فيه ... وبعد قليل رأينا « الدادة شيرين » تخرج من الحجرة التي كان فيها « الزهيري باشا » ، وهي تتمتم ، وتشير بيدها لإشارات التأفف ...

صباحتي والدادة شيرين، بقولها هامة : «ستذهبن اليوم للقاء أمك...»

فخلعت فيها دهشة ، وقلت متلعثمة : أمي ؟ أمي ؟

— إنها تنتظرك هناك في المنزل ...

فأمسكتُ بيد الدادة، وجعلت أشد عليها ، فأحاطتني بذراعيها ،

وقالت : إن «أم يونس» ستكون هناك ...

وأعدت لي السيارة ، فركبتها؛ ولم يصحبني أحدهذه المرة ، والتفتُ

حول ، فخيّل لي أنها أكثر اتساعاً عن ذي قبل ، وكان المشاة ينظرون

إليّ وأنا جالسة في مقعدى جلسة الراحة والترف ، فيغمرون سرور كبير .

وكان قلبي يدق حين أسمع بوق السيارة يصرخ في الناس بصوته الذى

يشبه عواء الكلاب . فيتفرقون مذعورين ...

وخطر لي أن أسأل :

هل تملك أمي سيارة كهذه ذات بوق له مثل هذا الصوت ؟!

وكان يستبد به خيلتي خاطر واحد ، وهو : أمي !

ما صورتها ؟ كيف تستقبلني ؟ ماذا تريد مني ؟ أية حياة تنتظرني ؟

ووصلتُ إلى المنزل ، ونزلت أعدو ، وما إن اجتزت الحديقة ،

ودخلت الردهة، حتى شعرت برهبة تملكني ، وأطلت النظر في حجرة جدى

المقفلة، ولكنى لم أستطع الدنو منها ، وأسرعت الخطا حين مررت بها ،

وقصدت إلى حجرى. وما كدت أخطو خطوة فيها حتى رأيتنى أمام «أم يونس»

وكانت تقف بجوار هاسيدة ، فسكنت في مكانى لحظة وأنا أنقل عيني

بينها وبين « أم يونس » وقد اشتدَّ وجيب قلبي ...
ورأيت « أم يونس » عابسة ساهمة ، على حين أن السيدة الأخرى
كانت مشرقة باسمة . وهرعتُ إلى « أم يونس » فتلقتني في أحضانها ، ثم
لاطفقتي ، وأخذت بيدي وخطت بي نحو السيدة وهي تقول لي : هيا قبلي أمك !
وسمعت السيدة التي دعتها « أم يونس » أمي ، تقول في صوت منغم :
تعالى ، ياسلوى ، ... تعالى .

فتقدمت منها . وقد فغمتني رائحة الطيب الذي كان ينبعث منها ذكياً
شديد الذكاء ... ولاحظت أنها تلبس السواد ، وسرعان ما نكست رأسي
أمامها ، فأنحنت علىَّ ، وقبلتني قبلتين صغيرتين ، وقالت « لأم يونس » :
إنها كبيرة ... كبيرة ... ماشاء الله !

وضحكت . فأفرغني ضحكها بالرغم مما فيه من طراوة ، ثم وجدتها
تخرج من محفظتها حُقُّ الذرَّور (البودرة) وعلبة الصَّبْغ ، وأخذت تزين
نفسها ، وترجل شعرها ... واختلست النظر إليها فهرتني هيئتها ... لقد
كانت تتلألأ تلالؤ الأنوار في المحافل والمهرجانات !

وعجبت من نفسي إذ لم أشعر بأية عاطفة نحوها ، بل على العكس بدأت
أحس وأنا معها بضيق . وخرجتُ « أم يونس » ، وهي تدعو لنا بمختلف
الادعية ... وتناولت أُمِّي من المائدة علبة أخرجت منها عروساً فاخرة .
أعطتني إياها ، وهي تقول : أتعجبك هذه العروس ؟
فابتسمتُ ، ولم أجب ...

وتابعتُ أمي قولها ، وهي تضحك : أرى أنها لا تعجبك !
فقلت في صوت خافت : بل تعجبني جداً ...

فقال لي : يجب ألا تكوني خجولاً معي يا دسلوى ، ... أنا
أمك ... إنني أحبك ، ويجب أن تحبيني ... !

تتابعت خمسة أعوام واستقبلت عامي السادس عشر ...
عشت هذه الحقبة مع أمي في منزلنا ، بالسيدة ، ذلك المنزل المعتم
الذي يملأ النفس انقباضاً ووحشة . وكثيراً ما سألت نفسي : كيف قضيت
هذه السنين ؟ أمحزونة قضيتها أم فرحة ؟ فأقف حيرى لا أحسن الجواب .
ولسكنى كنت على يقين بأن أحيا حياة تختلف أبين اختلاف عن تلك
الحياة التي كنت أعيشها في كتف جدى .

خمس أعوام تعاقبت على منوال راتب : اليوم إثر اليوم لا تغيير فيه
ولا تبديل ، فكأننى قضيت تلك الحقبة يوماً واحداً طويلاً لا يعترض
سيره إلا ليالٍ متشابهات !

ما الذى وقع لى فى هذه الأعوام الخمسة ؟
أليس ثمة من أحداث تستحق التدوين ؟
لأريب أن هناك ما هو جدير بالذكر ، على الرغم من هذا التشابه المملول .
وأول ما يجب على أن أشير إليه ، هو الشذوذ الغريب فى حياة أمي ،
ذلك الشذوذ الذى أصبح بحكم العادة أمراً مألوفاً لدى الآن ...
فقد تحققت اليوم أن فكرتى التى تمثلتها فى شأن « الأم » من قبل
كانت فكرة عائرة لا تمت إلى الواقع بسبب .

كانت « سنية » تروى لى بين حين وحين ما تذكره من شئون أمها :
كيف كانت تغنى بطعامها وملبسها ومناهما ، وكيف كانت تطهو لها بنفسها
بعض الألوان التى تميل إليها . وفى موعد النوم تهين لها الفراش ، وتمكث

يجوارها تسامرهما حتى يغلب عليها سلطان الكرى ... وهذه القبلات التي
لأنهاية لها ، تغمرها بها طوال اليوم ، قبلات وأحضان كانت تثير في نفس
وسنية ، أحياناً أشد الضيق ، فتصرخ محتجة ساخطة !

تلك الصورة التي تخيلتها في شأن الأم ، قد طارت من خيالي على أثر
انقضاء الأيام الأولى التي عاشت فيها أمي ...

فلقد كنت إذا استيقظت وسألت عنها « أم يونس » وضعت المرأة
إصبعها فوق فمها ، وقالت في صوت خفوض :

صه ... لا تعل من صوتك ، إنها نائمة !

فأصمت ، تاركه مكاناً . وأنا أخطو على أطراف الأصابع ...

وكانت أمي تلزم حجرتها نائمة حتى الظهر ، وقد تخرج فلا أراها ،
ثم تعود وقد أريت لي مخدعي ... وصار من المألوف أن تنقضي بضعة
أيام دون أن أراها ولا ترائي ، مع أنها تعيش معي في بيت واحد .

أما إذا وقع بصرها عليّ يوماً وهي خارجة من حجرة نومها تقصد
إلى الحمام ، فإنها تبتسم لي ابتسامة عابرة ، ثم تقول :

« سلوى ، أهايا ، سلوى » !

ثم تختطف من وجهي قبلة سريعة ، ولا تلبث أن تتابع سيرها
لا تلوي على شيء !

وكانت أحياناً تقضي اليوم معناني المنزل ، لا تبرحه ، فتستدعيني أنا
و « أم يونس » لنجاسها ونستمع إلى أحاديثها ... وكان الموضوع الذي
تطرقه دائماً واحداً لا يتغير جوهره ، وإن اختلف مظهره ... كانت
تحدثنا عن ثروتها البائدة ، قائلة : إنها كانت ثروة ضخمة أضاع والدها
أكثرها في المضاربات وصفقات التجارة ، ولسكنها مازالت تملك بضعة

منازل وفدادين تجلب لها بعض الرِّيع ، وإن هذا الرِّيع ليكلفها متاعب. ومشاق ترهقها فتثبت لها وتصبر عليها ، فهي إذا تغيبت عن المنزل فإلى المحامي لدرس القضايا معه ، أو إلى وكلائها تدير معهم الأعمال وتنظم الأمور وترشدهم إلى ما يجب اتخاذه من إجراء ... وكثيراً ما التفتت إلى وهي جالسة في استرخاء تسوى ثوبها الوردى المزركش ، وصدرها يكاد يكون عارياً ، وقالت: اعلمى يا سلوى، أنه لو كانت أمك من هؤلاء النساء الجاهلات الخاملات اللاتي يقضين أعمارهن بين أربعة جدران بالمنزل ، ولا يعرفن من شئون الحياة شيئاً ، لقضيت حياتك في بؤس وتعاسة ، ولكن احدى الله على أنى امرأة أجاهد في الحياة جهاد الرجال، سعيّاً في طلب الرزق ، ورغبة في أن أوفر لك أسباب العيش الرغيد !

كانت أمى مشغوفة بإعادة هذا الحديث على مسمعى ، حتى أصبحت لا ألقى بالا إليه ... ويوماً قلت لها :

ألا تسمحين لي يا أماه أن أحجيك مرة في الخروج ؟

فخدت في " مدهوشة وقالت: تذهبين إلى المحامي وإلى وكلاء الأعمال؟ وهل تفهمين شيئاً في هذه الشئون ؟

— أريد أن أرى منازلنا التي نمتلكها !

فوجدتها تحديق في " بغضب ، ثم اندفعت تقول :

من لقنك هذا ؟ لعلمها " أم يونس ، !

فنظرتُ إليها مبهوتة ، وقلت : وما شأن " أم يونس " بهذا ؟

فأخذتُ أمى تهز قدميها هز أعصياً ، ثم قالت لي وقد ثاب إليها الهدوء : سأخذك يوماً لتُرى هذه المنازل ...

ولكن ترادفت الأيام والأشهر والسنون ، ولم أر ظلاً لمنزل من هاته .

المنازل ، وإذا ما سألتُ «أم يونس» عنها وعن الفدادين التي تملكها ، نظرتُ إلى «المرأة في إشقاق ، وغنممت :

أسعدك الله يا بنتي ، وهياً لك الخير ...

ظلمت هذه الأعوام الخمسة قليلة الاختلاط ، لأعرف كثير أمن الناس .
ليس من أحد يزورني ، ولست أترك المنزل إلا ذاهبة إلى «الجيزة ، حيث تسكن «سنية» فأقضي معها اليوم كله ناعب بالورق أو تنزه في الحديقة أو نستمتع إلى المذياع ، وكان من النادر أن نبرح المنزل للذهاب إلى إحدى دور السينما أو غيرها من أماكن اللهو .

ولاحظت أن «سنية» لم تكن تدعوني إلا حين يكون والدها قد سافر إلى الريف ، وإذا اتفق وجود الباشا وقت حضوري لقيني بوجه متجهج ، وحياتي تحية فاترة ... أما «مدموازيل شانتل» فكانت تشير سخطي بمعاملتها المشبعة بالاحتقار . وكنت أرى أمامي وجوها سخرة عابسة ، وأسمع حولي همساً أتبين فيه دائماً اسم أمي ، فلا يروق «سنية» ما تسمع ، وتبالغ في عطفها عليّ ، وإظهار حبها لي ...

أما «الدادة شيرين» ، فهي الشخص الوحيد الذي كان يحسن معاملتي ويحنو عليّ حنوًّا ليس فوقه من مزيد .

ولم أجرؤ على أن أدعو «سنية» إلى منزلي . إذ وضح لي أنهم لن يأذنوا لها بالحضور عندي ، وكان هذا يملأ نفسي بالغضب الشديد ... ولم أعد ألقى «شريف» أو «حمدي» فقد سافر الأول إلى «فرنسا» ليتم دراسته في أحد معاهدها ... أما «حمدي» فقد انقطع عن زيارة «سنية» بعد سفر رفيقه ، وانقطعت بذلك أخباره عني .

وكنت كلما ذهبت إلى «سنية» انفردتُ بي ، وأرتقي الرسائل التي كان

يبحث بها «شريف» إليها. وكثيراً ما قرأت لى منها بعض الفقرات ، فأصغى.
إليها وأنا أتذوق فى شغف ذلك الحديث العذب... وكنت أحياناً أرغب
إليها فى أن تعيد تلاوة ما أسمع ، ثم أمسك بيدها. وأدقق النظر فيها قائلة :
لأنه يحبك يا «سنية» !

فتضعط يدي ، وقد تضرّج وجهها ...

ويحتوينى الصمت لحظة ، وقد تاه نظرى ، شاردة الفكر ، يغمرنى
شعور حزين ، فأرى «سنية» تقبل على «قائلة» : ما بك ؟

فأثوب إلى وعي ، أقول : لا شيء... هنيئاً لك الخاطب العزيز !
أما حياقي المنزلية فى حجة «أم يونس» فكانت تافهة يسودها هدوء
وخول ، فعلى الرغم مما كنت أقوم به من العمل لمساعدة «أم يونس» فى
طهو الطعام وغسل الملابس وما شابه ذلك من حاجات البيت ، كنت أحسّ
فى قرارة نفسى بترسخ وملل تشوبهما كآبة . فأقصد إلى حجرى ، وأتمدد
على سريري ، وأقضى وقتاً طويلاً وأنا حاملة تحديق عيناى فى أرجاء السقف !
وثمة شأن آخر خليق بالتدوين ، تم لى أثناء هذه الخمسة الأعوام ،
ذلك هو إرسالى إلى المدرسة بعد عامين قضيتهما متعطلة فى المنزل . فقد
كنت مرة مع «أم يونس» فى الردهة ، فدخلت علينا أمى وبادرتنى بقولها :
لقد حدثونى عن مدرسة إفرنجية للبنات تقع فى حيّنا هذا يديرها
رجل أجنبى وزوجه ، يجرى فيها التعليم على برنامج عصرى : لغة فرنسية
ورقص وغناء . وقد رأيت أن الوقت قد حان لإلحاقك بها ... لأننى
أرغب فى نفعك . وقد تخيرت لك هذه المدرسة لأنى وجدتتها تجارى
روح العصر الحديث فى التعليم : رقص وغناء ولغة فرنسية !

فرايت «أم يونس» قد تصدّت للكلام فى شيء من الحدة ، وقالت :

رقص وغناء ؟ مالنا والرقص والغناء ؟ هل ينفعها ذلك عند الزواج ؟
فقلت أمى فى توكيد : بالطبع ، لترافص من سيخطبها حيناً . ثم
ترافصه يوم يصبح زوجاً لها فيما بعد ... ألا تعلمين أن الرقص أصبح
من مقتضيات المحافل والمجتمعات العائلية ؟

فتمتمت « أم يونس ، وهى تحاول كظم غيظها :
حفظها القرآن أولاً ... مالنا ولمدارس والخراجات ، ؟
فوجدت نفسى قد انبرت فى حدة أجيب « أم يونس ، :
لقد علمنى جدى القرآن ، وكفى !

فتمتمت أمى طويلاً ، والتفت عينائى بعينى « أم يونس ، فوجدتها
تنظر إلىّ فى دهشة ، وقد اكتسى وجهها بسحابة قائمة ، دون أن تنبس ...
وسمعت أمى توجه قولها إلىّ :

إن « أم يونس ، من أهل الزمان العتيق . فاعذريها ... أذكر أنها
أخبرتني مرة بأن زوجها لم يرها إلا ليلة الزفاف !
فقلت « أم يونس ، :

إن زوجى ياسيدتى لم تقع عيناه حتى على طرف ثوبى قبل الزواج .
ولكنه أحبنى وأحبيته ، وعشت معه فى هناءة موفورة ..

فازددت سخطاً على هذه المرأة الجاهلة التى لا تحسن الدفاع عن
قضىئى ، ولكفى كلما اختاست النظر إليها ورأيت وجهها الشاحب .
يحمل طابع الآلم والتحسر ، شعرت بخجل يغمر نفسى !

والنفتت أمى إلىّ ، وقالت وهى تبسم : إن « أم يونس ، تريد أن
تجعله على غرارها ، لا ترى خاطبك طرف ثوبك . أما أنا فأريد أن أجعل
منك نموذجاً للزوجة المصرية ... لأننى أرى دائماً مصلحتك ...

وقامت إلى حجرتها . وهى تخطر فى غلاتها الحريية . فقامت على
أثرها فاصدة حجرتى ، وقلبي تتنازعه شقى المشاعر ...

لم تكن مدرسة «العائلة السعيدة للبنات» كما كانوا يسمونها ، بأكثر
اتساعاً ولا أوفر نوراً من البيت الذى أسكنه . وكانت تحوى بضعة عشرة
تلميذة يتعلمن فى فصلين : الفصل الأول للكبيرات ، والآخر للصغيرات .
وقد ألحقونى به ، مع أنى كنت فى السن التى تخولنى دخول الفصل الأول ،
ولكن معلوماتى كانت فى مستوى التلميذات الصغيرات ، بل أدنى منهن .
وكنيت إذا وقفت بينهن فى الصف شعرت بخجل من طول قامتى ... وكثيراً
ما عيرننى التلميذات بنقص معلوماتى على كبر سنى !

أما مدرسو المدرسة ومستخدموها فقد كانوا ثلاثة فقط : « مسيو
فوكيه » وزوجه «مدام فوكيه» ، وهما صاحبا المدرسة ، وعليهما عبء
القيام بمهام التدريس والإدارة . والثالث « أم فضل » التى كنا نعدها
فراشة المدرسة وبوابتها . مع أنها خادمة «مسيو فوكيه» وزوجه ، تؤدى
لها الخدمة المنزلية . وإذا علمت أن الرجل وزوجه يسكنان غرفة فى
السطح ، عرفت أن هذه المدرسة فى الواقع لم تكن إلا مسكناً لصاحبيها ...
لم تخطئ والدتى إذ أخبرتني بأنها سترسلنى إلى المدرسة لتعلم الرقص
والغناء واللغة الفرنسية . فلم يكن ثمة مواد للتدريس غيرها . ولسكنها
كانت تدرس على الفطرة لا على نهج مرسوم ونظام معلوم . وإنى أذكر
أن درس الرقص والغناء تعطل بضعة أسابيع لخلل أصاب «البیان» المشتم
الكسبيج ذا الصوت الأبح ... وكان « مسيو فوكيه » هو الذى يعرف
دائماً عليه ويغنى ، أما «مدام فوكيه» فكانت تعلمنا الرقص . وكان هذا
الوضع يدهشنى ، إذ كنت أعلم أن الرجال هم الذين يجب عليهم أن يراقصوا

النساء . والراجح أن «مسيو فوكيه» لم يكن يعزب عنه أن هذا الوضع مقلوب . فقد حاول أن يقوم بدور الراقص في بعض المناسبات ، ولكن صوّبت إليه زوجته سهاماً من نار ، فارتد إلى «بيانه» مهزوماً ... ولم يكن يستطيع «مسيو فوكيه» أن يقاوم زوجته في هذه المسألة أو في غيرها . إذ كان منهوك القوى ، عالى السن ، فضلاً عن ضور جسمه وضآلة شخصه ... وكان إذا انتحى ركناً - في قرة الراحة - وجلس ليحظى بغفوة سائحة شأدت شفتيه ترتجفان بلا سبب .

على أنني كنت أهمل إلى غناائه . فقد احتفظت حنجرتي البالية ببعض أو تارها ، فإذا غنى شعرت بشيء من الحنين يستيقظ بين جوانحي ، فأنظر إليه فأجده مندفعاً في أغنيته وقد أغمض عينيه يحلم في نشوة ، وترك جسمه يتمايل مع النغم ، وخصلة شعره تتساقط على جبهته ، فتسبغ على وجهه ظلالاً شاحبة .

وقد علمت أن «مسيو فوكيه» كان فناناً ملحوظ المكانة بين رجال المسارح الغنائية في الزمان السالف ... أما زوجته فكانت تصغره بشحو عشرين سنة ، مكنته الجسم ، مبسطة القامة ، لها وجه محتقن ، وعينان جاحظتان ... وكنت أشعر وهي تراقصني أنها ستعصرني بجرمها الهائل ...

أما أم فضل ، فكانت امرأة نحيفة ، ولكنها نشيطة ، تكاد تكون حمماً ، لا تنبس بكلمة إلا عند الضرورة القصوى . تقوم بعملها صامتة جاهدة . وفي أوقات الفراغ تنتحى ركناً بعيداً تحوك فيه الملابس . وترتق الجوارب .

كنت أقضى وقتي في المدرسة في شبه وحدة ، فقد لاحظت أن جل

التليذات يتجنبن مصاحبى، ويزك أن بى ، فإذا مررت بجماعاتهن سمعتن يتها مسن، ويشرن إلى من طرف خفى ... ولكنى وجدت فى «مليحة» السودانية صديقة أركن إلى صداقتها ، فقد ألف بين قلبينا الاضطهاد والعنف ، إذلم تكن «مليحة» بأحسن منى حظاً عند الرفيقات ... وقد نشأت صداقتنا من حادثة يجمل بى أن أروها : رأيت مرة «حميدة» الأرسقراطية النزعة ، واقفة قبالة «مليحة» تحدجها بنظرة كبرياء وتقول لها : لم يكن ينقصنا إلا هذه «الجارية» تأقى لتشاركنا فى الدرس !

فاتقدت عينا «مايحة» وفى مثل خطفة البرق وجدتها قد هجمت على «حميدة» ، وأنشبت فيها أظفارها ، ولكن صديقات «حميدة» هرعن إليها يساعدها ، وأمسكن «مليحة» ، واندفعن يكسكن لها اللكمات ، فوجدت نفسى قد هجمت عليهن ، ودافعت عن «مليحة» حتى خلصتها من بين أيديهن . وما إن ظهرت «مدام فوكيه» فى هذه اللحظة حتى تفرقت التليذات هاربات ، ولم يبق إلا أنا و «مليحة» ، فقد سرنا إليها نشكو الازميلات ، فأجابتنا بصفتين شديدين ، وانتهالت تنعتنا بأرذل النعوت !

كانت هذه الحادثة بدء صداقتى «مليحة» السودانية ، فتألقنا وكوونا اتحاداً صغيراً يقاوم الاتحاد الأكبر من التليذات الأخريات ، فازددن اضطهاداً لنا وحرماً علينا . وكانت «مدام فوكيه» لا تفأ تنصر علينا أعداءنا ، وقد فهمت فيما بعد مبعث هذه المناصرة ، فإن نفقات الدراسة الخاصة بى و «مليحة» لم تكن تؤدى بانتظام ، وقد تمر الأسابيع تلو الأسابيع و «مدام فوكيه» تلاحقنا بطلب النفقات ، مزجرة مهددة ، فأخبر بذلك أمى ، فتعبد ولا تفى !

وحدث مرة أن كنا جميعاً فى الصف واقفات ، وأمامنا «مدام فوكيه»

تستعد لإلقاء خطبة موجزة تعودنا أن نسمعها منها بين حين وحين .
فاشارت إلى " أن أخرج من الصف ، وأحسست من حركة يدها ورنة صوتها
أن هناك شراً ينتظرنى . وقد صدق حدسى ، فإن « مدام فوكيه ، رمتنى
بنظرة نكراء من نظراتها الذميمة ، وقالت عالية الصوت :

« مدموازيل سلوى » ... أنت مطرودة من المدرسة ، لأنك لم تؤدى
النفقات ... نحن لانضيف التلميذات لوجه الله ... غادرى المدرسة
من ساعتك !

فأحسست بخزى شديد ، ولم أستطع رفع بصرى لأحد ، وسرت فى
خطأ آلية نحو الباب ، وكان غمامة قد غشيت بصرى ، وما إن تحطيت
عتبة الباب حتى شعرت بيد تلاطف ظهرى ، فرفعت عيني فرأيت « مسيو
فوكيه » يرنو إلى " فى حنوصات ، فحاولت أن أتسم له فخلتني شفتاى ...
ولما عدت إلى المنزل ، وأخبرت « أم يونس » بالامر ، صمتت
هنيهة وهى تحك رأسها ، ثم قالت لى فى غير اهتمام : لن تخسرى شيئاً
بانقطاعك عن المدرسة ... وهل استفدت منها شيئاً حتى الآن ؟
فلم أجبها بحرف .

وفى غد دخلت على أمى فى حجرتها ، وكانت أمام خوان الزينة
تتعطر ، فبادرتها بقولى : لا أستطيع العودة إلى المدرسة يا أماه !
فلم تلتفت إلى " ، بل كانت جادة فى الزئى والتطرية ... وقالت :
لماذا ؟

— لأننى لم أوّد النفقات ...

— ولكننا سنؤديها ... ألم تخبرى الناطرة بذلك ؟

— لم تعد تصدقنى ... لقد طردتنى أمس أمام التلميذات جميعاً شرطداً !

ولم أكد أنطق بالجملة الأخيرة ، حتى ملكنى الشهيق والاستعبار .
فالتفتت إلى أمى قائلة :

طردتك أمام التليذات جميعاً ؟ يا للوقاحة ! من تظننا ؟ اتحسب
أننا لا نستطيع أن نؤدى لها مطلوبها التافه ؟
ثم عادت إلى الأدهان والمساحيق ...
وبعد سكتة قصيرة قالت :

سأذهب إليها بما تطلب غداً ... سأفذه في وجهها ، وسألنى عليها
درساً عالياً في الأدب ، وسأعلمها كيف تعامل بنات الأسر الكبيرة !
ومرت ثلاثة أسابيع ، وأنا قابعة في البيت ...

وفي الأسبوع الرابع اصطحبتى د أم يونس ، إلى المدرسة ، وهناك
لقيت د مدام فوكيه د وسلتها قسط النفقات ... وقضيت هذا اليوم
ساهرة صامتة أشعر بهم يضغط قلبى ضغطاً . ولم أبادل واحدة من
التليذات كلمة ؛ حتى لقد أوجزت القول مع د مليحة ، لا يزال
وجهى العبوس !

وقد تعددت هذه الحادثة أثناء الأعوام الثلاثة التى قضيتها في المدرسة
وتكرر انقطاعى عن الدراسة . وأصبحت الأيام التى أقضيها في البيت
تعادل أيام الذهاب إلى المدرسة أو تفوقها ...

وقع د مليحة ، ما وقع لى ، ولكن تكراره لم يكثر كما هو الشأن
معى ؛ فإن د مليحة ، حين طردها الناظرة في المرة الثالثة فارقت
المدرسة إلى غير رجعة ...

على هذا النحو قضيت السنين الخمس !

انقطعت عن المدرسة وعدت إلى حياة المنزل . أعين أم يونس ، في أعمالها ، وكان من محاسن مصاحبتي لها أن تعلمت كيف أفصل وأحوك ثيابي الخاصة . وكنت في الواقع في أمس الحاجة إلى ذلك . لاستحالة تكليف الخياطة الأجنبية أن تحرك ملابسي ... واهتممت مرة بتفصيل ثوب في في زي مبتكر . قضيت فيه أياماً وليالي ، حتى غدا طريقة بدية . وكنت قد اقتصدت ثمنه من النقود الضئيلة التي كانت تمنحني أمي لإياها أحياناً . وفي غداة يوم انتظرت أمي في الردهة حتى تصحو لأريها ليأه . وخيل لي في هذا اليوم أنها أطالت نومها إطالة غير مألوفة ، فضجرت وسمعت الانتظار ، وعدت إلى حجرتي .

وجاءتني بعد فترة أم يونس ، تخبرني أن أمي قد استيقظت ، وأنها تتناول الآن فطورها . فأخذت الثوب ، ودخات عليها في حجرتها ، فوجدتها على المتكأ ، وأمامها صينية الطعام ... وتقدمت منها ، ولثمت يدها ، فدنيت من خدي تقبله ، وعادت تأكل .

فقلت لها : أماه ... أريد أن أريك شيئاً ...

فأجابتنني في سهوم دون أن تلفت إليّ : شيئاً ؟

— شيئاً بديعاً عملته بنفسى ...

— وما هو ؟

— ثوب جديد ...

فالتفتت إليّ ، وقالت : أين هو ؟

فأريتها إياه ، وقلبي بالغ الخفوق ، فدت يدها إليه . ولمسته لمسة خفيفة ، ثم لوت رأسها إلى صينية الا كل [وقالت : أنت التي عملته ؟ فأجبته : أقسم لك يا أماه إنى أنا التي فصلته وخطته وطرزته ... هل أعجبك ؟

فقلت فى لهجة هادئة : حسن !

— هل أعجبك حقاً يا أماه ؟

— قلت لك حسن .

وصدمتقى لهجتها ، فاعتزمت العودة فوراً إلى حجرى ، ولكنى رأيت أمى قد تركت المتكا ، وقامت إلى صوكان ملابسها ففتحته ، وانتقت ثوباً جميلاً بسطته أمامى ، وقالت :

انظرى يا دى سلى ، هاك نمودجا لاثوب البديع !

وسرعان ما وجدتها قد خلعت قبض النوم ، وارتدت هذا الثوب ، وجعلت تستدير أمام المرأة ، وهى تشير إلى مواضع الفتنة فيه مزهوة تحتال ... وقد كان فى الحق ثوباً بديعاً ... وبغته ارتفع صوت أمى ينادى « أم يونس » وكانت تشتغل بطهو الطعام ، فجاءت مسرعة وهى تمسح يدها فى ميدعة المظمسى ووجهها محترق من حر الموقد ، والعرق على جبينها يسبح ، فالتفتت إليها أمى تقول لها : أريد أن تذهبي فوراً إلى الخياطة لتأتى لى بالثوب الجديد ... لأنها وعدتني به اليوم .

فذهبت المرأة مبهوتة ، وقالت : والطعام ؟ لأنه على النار !

— قلت لك اذهبي من فورك وأحضري الثوب من عند الخياطة ...

سأأتولى أنا أمر الطعام ...

وحاولت « أم يونس » أن تجادل فى الأمر ، ولكن صيحات والدتي

دقعت بها خارج الحجرة ، فانصرفت تغمغم في اهتياج كظيم ، ونسيت
أحد خفيها الباليين الممزقين اللذين ينافسان في بشاعتهما حتى ... !
وحجرتني والدتي في حجرتها وقتاً طويلاً تريني أثوابها الفاخرة ؛
وترتدى منها واحداً بعد آخر أمامي ؛ وقد أغفلت أن تتم فطورها ...
وبينما كنا في الحجرة نعرض الأثواب ؛ تسالت إلينا من المطبخ
رائحة الطعام يحترق ، فانتبهت أمي للأمر ، وصرخت قائلة :
أولأهملت القدر يا دسلوى ؟ ... ما أشد نسيانك !
فهرولت إلى المطبخ ساخطة ، فوجدت معظم الطعام قد أفسده
الاحترق !

وفي غدى ، بينما كنت مرتدية ثوبي الجديد أطلعه في المرأة ، دخلت
على أمي وإذ رأته على هذه الحال رمقت بنظرة غريبة ؛ وتمتمت قائلة :
دائماً أمام المرأة ؟ ... دائماً !

ورأت على المنضدة ورقة مشابك الشعر ، فتناولتها وخرجت ؛
فهرعت إلى دأم يونس ، والدمع يتحير في عيني وقلت لها : لقد أخذت
اليوم ورقة المشابك ؛ ومنذ أيام أخذت لفافة الخيط وعلبة الإبر ؛ ولم تعد
إلى المقص الذي استعارته مني من قبل وادعت أنه ضاع ... إنها لا تطاق !
فقال لي دأم يونس : هددتي يابنية من روعك ... إنها أمك !
— أمي ؟ ... أمي ؟

— خففي من صوتك يا دسلوى !

— ولماذا أخفض من صوتي ؟ أتظنين أنها هنا ؟

— هل خرجت ؟

— اذهبي وانظري .

ورأيت «أم يونس» تهزول خارجة، ثم عادت تجرّ نفسها وهي تبرطم...
فقلت لها : ماذا ؟

— لقد خرجت دون أن تترك لي نفقة المنزل ...

وبعد صمت قصير واصلت قولها كعادتها : يا حبيبتي !... لقد اقترضت
أمس ريالاً من جارتنا «الست حسنة»... وأول أمس اقترضت ٢ ريالاً
آخر من «الحاجة شفيقة» ...

فقاطعتها قائلة : واليوم الذى قبله اشتريت أنتِ لوازم الطعام من
نقودك الخاصة ... ألم أقل لك إنها لا تطاق ؟
فمسحت «أم يونس» بميدعة المظلمى وجهها المحتقن، وغمضت :
لا بأس يا بنتى ... يغير الله من حال إلى حال ...

وجاءت «الدادة شيرين» ذات يوم من قبيل «سنية» تدعوني إلى زيارتها
فذهبتُ إليها في ثوبى الجديد، فأعجبت به «سنية» وهنأتني بحياكتي، وقضيت
اليوم عندها على مألوف العادة . وما إن حان موعد أوفى حتى سارت في
«سنية» إلى صوآن ملابسها ، وكان يزخر بفواخر الثياب ، وأخرجت
من بينها ثوباً من الحرير الأخضر غاية في الطرافة والإبداع ...

وقالت لي في بساطة : كيف ترين هذا الثوب ؟

— أحسن من ثوبى ألف مرة !

— لست عن هذا أسألك ، لم أخرجه لك لتشاهديه ... مل
أعجبك حقاً ؟

— جداً ...

فهمست في أذني : إنه لك ... أرجو أن تقبله منى هدية أخت !
فاحمرّ وجهي ، وقلت مؤكدة :

كلا ، كلا ... لست في حاجة إليه !

فاكتأبت « سنية » وقالت :

أتردين هدية أقدمها إليك ؟ أقسم إنى لم أرتده بعد ...
وألحت على " فى قبوله ، والدمع وترقرق فى مآقيها ، فلم أر بدًّا من أخذه ..
ولما عدت إلى منزلى . أخرجت الثوب من علبة فى احتراص . وبسطته
بين يديّ . وأنا به شديدة الإعجاب . ثم ارتديته وجعلت أروح وأجىء .
أمام المرأة طويلا من الوقت . ولكنى وجدت فى أتوقف ويستغرق فى تفكير
مضطرب . ويغمر الهم " نفسى ... وسرعان ما شرعت بكره شديد للثوب .
تقلته وفذفت به فى معرض الحجره .

ودخلت أمى فى تلك اللحظة . وألقت نظرة فاحصة على " مرة وعلى
الثوب أخرى . ثم انحنت تلتقطه وجعلت تقلبه بين يديها .

ثم سألتنى فى لهجة هادئة : لمن هذا الثوب ؟

— لقد أهدته « سنية » إلى " ،

— وهل فى عزمك أن تلبسيه ؟

— وماذا على " فى ذلك ؟

— وهذه الفتحة التى تكشف شطر الصدر !

— أفى هذا عيب ؟ إنه كان لـ « سنية » من قبل ، ولم يعارض أبوها
فى شرائه لها ...

فصاحت أمى : أبوها ! وهل يفهم أبوها شيئا من أمر الثياب ؟ ومع
ذلك فإنى أؤكد لك أنه لو رأى ابنته مرتدية هذا الثوب لمزقه على جسدها !
— أحقا .

— أؤكد لك ذلك ...

وهنا بدت من أمى ثورة عصبية ، لا أدرى كيف أثارتها ،
وما الباعث عليها ؟ ... وأخذت تلقى علىّ درساً فى الحشمة ومراعاة
الآداب العامة ...

فما إن انتهت من درسها ، حتى قلت لها فى بساطة وهذوه :
إنك تحاولين منعى من ارتداء هذا الثوب ، لأنه مفتوح الصدر ،
فى شكل بجانب للحشمة ، على حين أن الثوب الذى قصلته بيديّ يظهر
من صدرى أكثر مما يظهر ثوب « سنية » وقد شاهدتِ ثوبى ذلك
ورضيت عنه .

فرمقتى أمى بنظرة شزراء ، وقالت : يا لضيعة نصائحى معك
لم أر فى حياتى ابنة فى مثل صلابة رأسك وعنادك .

ثم رأيتها ترمق الثوب لحظة ، وسرعان ما خرجت من الحجرة
تحملة فى يدها ... ووقفت مشدوهة أراقبها ، وهممت أن أجرى
خلفها أسترجعه منها ، ولما كن عافى عن ذلك عائق لا أدرى له كنهاً .

وبعد أيام وجدت أمى قد ارتدت الثوب ، بعد أن أجرت فيه
بعض إصلاح ، وكان لا ثقاً بها ، كأنما فصل خاصة لها ... فنبادلنا
بضع نظرات ولكننا لم نتحدث فى شأن الثوب أىّ حديث

كانت حجرة «سنية» حالية بفاخر الأثاث والرياش ، يزينا سرير غاية في الإبداع ... وكنت في زيارتي لإياها أقف أمام هذا السرير أتأمله ولا أمل التأمل ، ويلد لي كثيراً أن أتمدّد عليه ، فأحس بأنني انتقلت إلى عالم سحريّ تشيع فيه أحلام ذهبية جميلة !

واستلقيت مرة على السرير بجوار «سنية» أصغى لما تقصه عليّ من أبناء «شريف»... فشعرت بالبأب ينفج بفتة ، ورأينا شبحاً طويلاً ضامراً يدخل ، ولكنه ما كاد يلمحنا في السرير رافدين حتى ارتدّ بهم بالخروج ، فسمعت «سنية» تصيح منادية : «حمدى» ... «حمدى» ... تعال ... ورأيت طيف «حمدى» يعود متعثراً في مشيته . وسمعتهم يجمعهم : المعذرة ... المعذرة ... لم أكن أعلم ... «الدادة» شيرين ، هي التي قالت لي ...

وقفزنا من السرير ، وأقبلنا عليه ، نبالغ في الترحيب به ، وكنت لم أره منذ زمن طويل ... ولما انتهت عاصفة التحية ، وقفت أتأمله وأنا صامتة ، فألفيته قد ازداد نحافة . وبرزت عظام وجهه بروزاً يكاد يشق الجلد ، ولما أمسكت بيده أهرها ، خيل لي أنها خشية كالعود اليابس تكاد تنقص في يدي ، وكان هندامه يدل على رقة حاله واستبانة فقره .

فقلت له في تأثر : كيف حالك يا «حمدى» ؟
فأجابني وقد ابتسم ابتسامة سائحة : الحمد لله .
— ماذا تفعل الآن ؟

- لأننى أعطى دورساً فى الموسيقى والرسم لبعض الطلبة .
— ولكنك لم تستكمل دروسك فى المدرسة ...
— منعنى أسباب كثيرة ، أهمها المرض .
وظهر عليه الارتباك ، ففطنت إلى الحقيقة . وأردت أن أصرف
الحديث إلى منحى آخر ، فقلت : وأين تسكن ؟
فأسرعت « سنية » تجيب : يسكن آخر الدنيا ... فى « الهرم » !
فقال « حمدى » : فى قرية عند آخر خط « الترام » حول « الهرم » ...
وصاحت « سنية » : إنه يعيش فرداً فى منزل صغير هنالك ...
فقلت : يا الله ! ... تعيش فرداً فى آخر الدنيا ؟ ألا تخشى أن يصيبك أذى ؟
— لا أخشى شيئاً !
— ألا تشعر بالملل من وحدتك ؟
— إن أعمالى كثيرة لا تسمح للبل أن يتطرق إلى نفسى !
فقلت وأنا أحدى فيه متفحصة : أسعيد أنت بحياتك هذه ؟
فقال وهو يعبت برّ سترته ، ناظراً إلى جهة أخرى :
لأنى راض عن حياتى على كل حال !
وهنا علا صوت « الدادة شيرين » تنادى « سنية » فخرجت مهولة .
وهم « حمدى » بأن يلحق بها ، فقلت له : ماذا تريد منها ؟
— لى كتاب جاء فى من « شريف » وقد رغب إلى أن أطلعها عليه .
— إنها راجعة إلينا ... أمتعجّل أنت ؟
— كلا ... كلا ... ولكن يجوز أن يكون فى وجودى ما ...
ثم تعثرت الكلمات على شفتيه ، وصمت ...
فقلت : ماذا ؟ أتمم ... تسكلم ...

فرفع إلى عينيه ، وقال : قد يكون لدى « سنية » بعض أعمال ...
واجبات ... لا أريد أن أعطيها عما هي منصرفة إليه ...

— خلّ عنك ... إن « سنية » لا تشغل نفسها بشيء إذا كان
عندها ضيوف ...

وغشينا الصمت وقتاً ، وكنت أنظر إلى « حمدي » نظرات تفحص ،
فإذا بوجهه يحمل طابع الأسى والقلق ، ثم الفيتة ينظر إلى خلصة ، وتلاقت
عيوننا غير مرة دون كلام ، ورأيت ابتسامة مضطربة تسبح على فمه ،
ثم حوّل بصره عني ، وقال مهمهما : وأنت . كيف أحوالك يا « سلوى » ؟
— لا بأس ...

— وكيف أمضيت حياتك بعد انتقالك إلى « القاهرة » ؟
— كسائر الناس ... لا شيء في حياتي يستحق الذكر ! ...
ووجدتني أقصد إلى النافذة ، ممتدة الخطو .
وتبعني « حمدي » فوقفنا نتطلع إلى الحديقة ...
وسمعتة يقول: يبدو لي أن حديقة منزل « الإسكندرية » أحسن من
هذه الحديقة وأجمل ...

فقلت وأنا على حالي أتطلع :
كل شيء في « الإسكندرية » كان أحسن وأجمل !
ثم نظرت إليه قائلة : ألا توافقني على ذلك ؟
فقال خافض الصوت : إنك على صواب ...
— حياتنا في « الإسكندرية » كانت أسعد وأطيب ...
— أغير راضية أنت عن حياتك الآن ؟
— راضية أو غير راضية ، هذا لا يغير الوضع الذي أنا فيه ...

— أتلاقين في حياتك بعض المصايفات ؟

— بل قل كل المصايفات .

— ماذا .

— لقد تركت مهناي كلها هناك ... في الإسكندرية ... في ذلك

المنزل الصغير الذي كنت أعيش فيه مع جدّي و « الحاج مسرور » .

— لا ترّكني إلى الماضي كثيرا يا « سلوى » ... لأنه لن يعود ...

تطلعي إلى المستقبل .

— أيّ مستقبل يا « حمدي » ؟

— كل فتاة في مثل سنك تتطلع إلى المستقبل ... المستقبل الزاهر المشرق .

— إني أعيش في الظلام ، وأحسب ، أني سأقضي حياتي كلها رهينة

هذا الظلام .

فدنامني ، وأخذ بيدي بلطفني ، وهو يقول : يسوء أن أسمع منك

هذا الكلام ... كنت أحسب أن حياتك مع والدتك قليلة المتاعب ...

— قليلة المتاعب أرجو منك أن تترك الحديث عن والدتي ،

إنها في واد وأنا في واد آخر ، إني أعُدّ نفسي في هذه الدنيا بلا أهل .

فصمت قليلا ، وهو يرنو إليّ ، ثم جمجم : ولكن لك أصدقاء ...

ثقي أن من الأصدقاء من هم أفضل من الأهل ، تستطيعين أن تعوّلي عليهم

وأن تركني إليهم ، فيكونوا لك عوناً أي عون .

— وأين هم هؤلاء الأصدقاء ؟

فابتسم قائلة : يا عجباً ... أننكرين وجودنا ؟

— معاذ الله ولكن ...

— ألا تثقين بإخلاص شخص مثل ؟

— كل الثقة ... ولكن ما الذى تستطيع أن تفعله من أجلى يا وحدى ؟
فقال فى شىء من الحماسة : إن المرء إذا أخلص النية واهتلا قلبه-
بالإيمان استطاع أن يفعل كثيراً .
خُذْتُ فىه أفضحَصه ، وأنا أمل ما يعانى به من متاعب نفسية ومادية-
بادية على مظهره ، ناطقة بها عيناها الذابلتان ... ورحلت أسائل نفسى :
ماذا يستطيع أن يقدمه لى هذا الصديق المنكود الحظ ؟
وهممت قائلة ، وأنا أشدُّ على يده :
أشكر لك شعورك الطيب نحوى يا وحدى .
وكان يرقبى فى اهتمام ، فما إن سمع قولى ، وما شاع فيه من نعمة يأْسُ ،-
حتى خفض من بصره ، وأخذ يعبث بزرسرتة ...
وصمتنا لحظة ، ثم عاد يقول : على كل حال لن تطول إقامتك مع والدتك .
— ماذا تعنى ؟
— سيحل الوقت الذى تتركين فيه منزل والدتك إلى منزل
إلى منزل زوجك !
فقلت ساهمة النظرات :
لا يحلّ هذا الوقت قريباً ... بل يجوز ألا يحلّ أبداً الدهر
— لماذا ؟
— لا أدرى ... هذا شعورى الخاص .
— إنه شعور باطل بلا شك ... إن فتاة فى مثل بهائك ونضارتك-
ميسارع إليها الخاطبون أفواجاً .
— أشكر لك حسن ظنك ، ولكنك تبالغ كثيراً فيما تقول .
— رُحْنى أن ليس فى قولى ذرّة من المبالغة ...

«وأخذ يتوسمى لحظة، ثم قال فى صوت خافت لا يخلو من رِيشة:
شدّ ما يكون الزوج سعيداً بك !
— أظنّ ذلك ؟
— بل أوكدّه ...

وصمت قليلاً، ثم قال: والذى أرجوه لك هو أن تسعدى به أنت أيضاً،
— هل لك أن تخبرنى ما هو نوع الزوج الذى يستطيع أن يسعدنى ؟
— هذا موكول إليك ... إلى شعورك ... إلى رغائبك ...
ثم أخذ يصعد فى بصره وقتاً، ومالبت أن رن إلى الأفق وقال مبهتاً:
يبدو لى أن الزوج السرىّ الميسور هو أصلح الأزواج لك على
وجه خاص .

فتضاحكت وأنا أقول : إذن فلتبحث لى عنه !
وأقبلت فى هذه اللحظة « سنية » وهى تتصايح وتضحّ مَرَحاً ...
وما هى إلا أن قالت : ماذا كنتما تقولان ؟
فقلت على الأمر وأنا أتضاحك :
لقد اعتزم « حمدى » أن يخطب لى زوجاً من أهل الثراء والغنى ..
فازداد مرح « سنية » وتصايحها ، وقالت :
إن « حمدى » فى هذه المهمة من الطراز الاول .
ووجدته يتكلف الابتسام تكلفاً .

ثم تقدم من « سنية » وقد شاع الجدّ على قسبات وجهه ، وقال :
المعذرة يا « سنية » ... إن زيارتى طالّت ... وقد جئت فى أمر يخصّك .
— يخصّنى ؟

فأخرج من جيبه كتاباً ، وقدمه إليها قائلاً :

هذا كتاب جاءني من « شريف » به شيء يهكم .
فأشرق وجهه « سنية » وأخذت منه الكتاب وجعلت تقرأه في اهتمام ،
فانسملت قاصدة إلى النافذة أطل على الحديقة ...
ولم تفتن « سنية » إلى الانسلاخ إلا بعد أن أتمت قراءة الكتاب ،
فصاحت بي :

لماذا تركتنا ؟ هل أخفيت عنك سرّاً من قبل ؟
وفي هذه اللحظة دخلت « مدموازيل شانتل » الحجرة ، فأسرعت
« سنية » تخفي الكتاب في صدرها ... وتقدمت « المدموازيل » وهي
تسير في كبرياء وشموخ أنف مسكة بيدها اليمنى مقبض منظارها العاجي
وقد أحكت وضعه على عينيها ، ثم مدت يدها دون كلام إلى صدر « سنية »
وأخرجت منه الكتاب .
وتجلى لي في هذا الوقت ما يبين على وجه « مدموازيل شانتل »
من بشاعة ، فإن رقبتها الدقيقة ذات الجلد المققع المجدع كانت أشبه شيء
برقبة الصقر الهرم ، وإن عينيها الجاحظتين اللتين ترمقنا بهما كانتا
تمثلان لي عيني بومة شوها .

والتفتت « مدموازيل شانتل » إلى « حمدي » وهي تداعب الكتاب
في يدها ، وقالت له رامية لإياه بنظراتها المتوقدة : متى جئت ؟

— منذ نصف ساعة .

— لم أسمع بقدر ملك .

— إن « الدادة شيرين » ...

فقاطعتها قائلة :

ليس « الدادة شيرين » أن تصدر أوامر في هذا المنزل !

فلم يجبها وحدي، ودنا منا يميننا في أدب بالغ، وانصرف دون أن
يعبرها أي التفات ...

فرايتها تدمدم قائلة :

وقع ... ناقص التربية !

ثم مشيتُ إلى « سنية » في خطوات صارمة ، وقالت لها وهي تتشدد
بكلماتها : أحرم عليك لقاء هذا الولد ... أسمعت !

وكانت « سنية » واقفة كالتمثال لا تبدى حراكا ...

ورأيت وجهها قد احتقن ، وعينها قد اغرورقتا بالدموع ،
وشفتيها تضطربان بلا إفصاح ...

وخرجت « مدموازيل شانتل » في تعاظم وخيلاء ، وهي ممسكة
بيدها مقبض منظارها العاجي ...

وما كادت تختفي ، حتى ارتدت « سنية » على السرير يملكها البكاء !

جلستُ في حجر قباله النافذة أرجل شعري بعد خروجي من الحمام،
وكانت الشمس الواجحة تبعث بأشعتها، فأشعر بحرارتها ونورها ينفذان
في أوصالي، وما هي إلا أن دخلت على «أم يونس»، ولبثتُ هنيهة
تحدّق فيّ وهي تبتسم، فقلت لها: لماذا تنظرين إليّ يا «أم يونس»؟
فأجابت وعيناها تزدادان إشرافاً:

يحرسك الله... لقد أصبحت حسناء ملء العين فتنة وبهاء!
فهرتها، فأنصرفت عنى، فضيت إلى المرأة، أنظر فيها إلى نفسي وأنا
محبورة بخور. حقاً لقد استطال قوامي، وامتلات أوصالي، وعلى
وجهي رونق ورواء، فكأنني في الثامنة عشرة من عمري!
وطافت برأسي كلمة «حمدي»:

إن فتاة في مثل شبابك وبهائك ليسارع إليها الخاطبون أفواجا.
وإذا بجسمي تشيع فيه رخاوة وفتور، فأحسست رغبة في العزلة
والاعتكاف، وسرعان ما لزمّت حجرتي، وتمددت على السرير... تبّأله
من سرير يقض المضجع!... إنّي لأطلق لأفكاري عنانها... لأنها وقائع
وأحلام متلاحقة مشتبكة، شاهدت فيها أطياف «سنية» و«شريف»،
و«حمدي»... ووجهت تفكيري لحظات إلى «حمدي» وبدأت لصورته
وهو في شحوبه ومظهره البائس ونظراته التي تجلي فيها عطفه علىّ.
وتذكرت قوله: إن الزوج المورس السريّ هو أصلح الأزواج لك!
وانطلقت في أحلامي وقضيت يومى أجمع لم أبرح حجرتي إلا لتناول

الغداء والعشاء ...

ولاحظتُ « أم يونس » على سهومي وتفكيرى وعزوفى عن الطعام إلا أقله ، فدنّت منى بعد العشاء تقول : أَمريضة أنت يا حبيبتي ؟

فأجبتها : ليس بى مرض !

— إذن أنت تتدللين ...

فنهضت أتركها تجمع الصحف ، وأويت إلى حجرى ، وفتحت صوان ملابسى ، وأخذت أقلب ما فيه ، ثم دفعت باب الصوان بشدة ، فكاد لقدمه ينخلع ويتحطم ... وذهبت إلى النافذة أروّح عن نفسى ، واستندت إلى حافتها ، وكانت الحجرة لا ينيرها إلا بصيص من نور المصباح المنبعث من الردهة . فراقى أن أظل فى الظلام ، وأن أتسلّى بالنظر إلى ما يجرى فى الحارة ... ولكن أية تسلية رغبت فيها ؟ كانت الحارة حالكة السواد موحشة صامتة ، كأنها قبر يخفى بين حناياها جثثاً هامدة ... ولقد حسبت نفسى فى هذه اللحظة ميتة مدرجة فى كفنها بين « موتى »

وشعرت « بأم يونس » تدخل الحجرة ، ورأيتها تقترب منى وتقول :
ماذا تفعلين هنا منفردة فى الظلام ؟

— أسترىح .

فانبعثت من فها ضحكة خاطفة ، وقالت :

تستريحين ؟ أىّ عمل كنت تقومين به فأثورك التعب والإجهاد ؟
وكانت فى لهجتها مسحة التهمك والتأنيب ، فرفعت رأسى إليها ، وفلت :

ماذا تعنين ؟

— لم تشغلى يدك اليوم بأىّ عمل معى !

فأجبتها فى شيء من الحدة :

ماذا تعدينى يا د أم يونس ، ؟ أخادمة أنها فى هذا المنزل ؟
فأدهش المرأة أن تسمع منى ماسمعت ، وأرادت أن تتكلم ، ولكنها
لم تنطق بحرف . ورأيتها تحرك أصابعها حركات آلية ، ثم انحنى على
الأرض ، تلتقط الخيوط وقصاصات الورق . ثم خرجت فى صمت .
وازداد على أثر خروجها انقباضى ، وثارت فى نفس ثورة عبياء على
دسنية ، و «حمدي»... وأحسست كأن ناراً مشبوبة تسرى فى ضلوعى...
وظلمت أعلى كالرجل ، وقد اتسع نطاق ثورق ، فاستشعرت كرهاً شديداً
للدنيا بأسرها ، ولنفسى أيضاً... وعدت إلى فراشى ، فارتيمت عليه ،
وانطلقت ألشج وأسج من عينيّ الدمع السخين !

وأسلنى البكاء إلى طمأنينة وراحة ، كأنما قد ألقيت عن صدرى
بعض ما يحجم عليه من هموم ثقال... وقت إلى النافذة ثانياً ، فاستندت
إلى حافتها . وجعلت أسرع النظر فى الحارة ، أستدرّ من ظلامها الدامس
وسكونها الموحش وحى أفكارى ، فما أسرع أن تمثل لعيني مرة أخرى
منظر تلك المقبرة التى تحتزن بين شعابها رفات الأموات ! ...
وظلمت على هذه الحال وقتاً... وأخيراً تناهى إلى مسمي حوافر
خيل تفرع أرض الحارة ، كأنها تقول لسكانها :

إن العالم ما زالت فيه بقية من حياة !

فسدّدت عيني صوب الصوت . فإذا بأشعة هزيلة تنطير من مصباحين
عن يمين وشمال... وظهرت بعد قليل مركبة أجرة يجرها جوادان ،
وكأنها بهيكلها الأسود قطعة قدّت من الحلك . وفرحت بمقدم هذه
المركبة ، إنها حدث جديد فى الحارة هذه الليلة...
ورأيتها تقترب من منزلنا . ثم تقف ببابه ، وانبعث منها صوت

امرأة ، ثم تلاه صوت رجل ، وكان يتكلمان في حدة لهجة ، وماهى إلا أن قفزت المرأة من المركبة ، فعرفتها على الفور . إن نور المصباحين على ضعفه قادر أن يجولعيني المشاهد والشخوص ، وأمسكت بحافة النافذة وقلبي دائب الخفوق . وانثيت برأسى قليلا إلى الوراء أخفى نفسى ... كانت هذه القادمة فى زى يجانب الاحتشام ، شعرا شعث وملايس شبه مزقة تكشف جوانب من الجسد ... ورأيتها تسرع فى الدخول مهتاجة الخطو ، وقفز الرجل من المركبة يتبعها ، ولسكنها كانت قد سبقته بالدخول ، ودفعت الباب وراءها تغلقه فى وجهه ، وسمعت الرجل مدمدماً يندق الباب ، ثم عاد أدراجه إلى المركبة يغمنم بعبارات التهديد والوعيد ...

وهرعت إلى باب حجرى أنصت خلفه ، فإذا بأمرى تصعد الدرج مضطربة الأنفاس ثائرة الأعصاب ، وهى تنفث ألواناً من السباب فى لهجة نكراء . وأويت إلى مرقدى تشورى الوسوس ، ونمت ليلقى تساورنى أخلاط أحلام ...

فلما استيقظت فى طلعة الصبح ، وثب إلى خاطرى هذا السؤال : من الرجل الذى رأيته فى جوف الليل يشيع أسمى يتهدد ويتوعد ؟ وشعرت بعاء فادح تنوء به نفسى ، وذهبت إلى حجرة الخزن (الكيلاز) أتناول فيها فطورى ، فلقيت هناك «أم يونس» تعمل ، فأغضت عنى فقابلت إغضاءها بمثله ، وشرعت آكل دون أن نتبادل الكلام ... ولاحظت أنها كانت بين الحين والحين تنظر إلى من طرف خفى .

وتظاهرت بالبحث عن السكر ، ثم صحت أخاطب نفسى :
يا لله ! ... أين وضع السكر ؟ إننى لا أجده !
فأحضرت لى «أم يونس» العلبه ، ووضعتها أمامى فى صمت ، فأصابت

منها حاجتى ، واستأنفت الطعام ...

ولما طال صمتنا طفقت أغنى ، فسمعت د أم يونس ، تقول وقد
أشاحت عنى بوجهها كأنها تخاطب نفسها : لا تَعْلَى صوتك ... إن
أمك اليوم مريضة !

فقلت دون أحرك ساكناً : مريضة ؟ وهل تناولت فطورها ؟
— نعم ، تناولته فى شبة ... ولكنها أخبرتنى بأنها مريضة ، ورغبت
إلى أن ألزم الهدوء .

ولما انتهيت من فطورى تركت الصحف على غير عادتى دون أن
أغسلها ... ورأيت د أم يونس ، تتقدم ويئدة الخطوات من المائدة ،
فتجتمع الصحف وهى تتند ، ثم تمضى بها إلى الخوض .

وتركت حجرة الحزن وأنا مزمومة . وقد تجلى لى أنى قادرة أن أعيش
وكفى هواى ، لا يتحكم فى مشيئتى أحد !

ومررت بحجرة أمى ، فوجدت بابها مفتوحاً فولجت فيه ، وذهبت إلى
أمى ، فألقيت عليها تحية الإصباح ، وكانت متمددة على المتكأ القسيح
قد ختن . ثم قلت لها :

لقد أخبرتنى د أم يونس ، بأنك مريضة . كيف حالك ؟
— إنى متعبة ، وبرأسى صداع .

وتنيت فى وجهها عبوساً ، وفى عينيها احمراراً ، وعلى خديها آثار
الدمع المذروف ... ولم تكن قد اتخذت زيتنها بعد ... يا الله ! ... شدة ما هى
حامية زرية ! ... أمى حقاً تبلغ هذا المبلغ من الدمامة ؟ إن التجاعيد لتفتك
بقسمات وجهها فى غير مرحمة ، وإن عينيها لتبدوان خابيتين لا يرف لها يرق ،
وإن شعرها ليشبه فى نصوله وذبوله شعر العجائز اللواتى طحنتهن السنون !

واقترح مخيلتي في هذه اللحظة شبح الرجل الذي كان يرافقها في مركبة الخليل ، تخففت بصري ، وأحسست قلبي يدق ...
وبعد هنيهة شاع فيها الصمت قالت أُمي وهي تنفث دخان لفافتها :
مالك يا دسلوى ، ؟ أمتعبة أنت أيضاً ؟
فوجدتني أرفع لباها بصري وأقول : أصابني الليلة أرق شديد .
— أرق ؟ لماذا ؟

— لا أدري ... إن ضيقاً شديداً لازمني آناء الليل .
— لأنك ترهقين نفسك بالتفكير في أمور لا يسوغ لك التفكير فيها
— أمور لا يسوغ لي التفكير فيها ؟
— إنني خبيرة بقلوب أمثالك من الفتيات ... أنصح لك ألا ترهق نفسك بهذه الأفكار !
— أية أفكار ؟ أنت واهمة يا أماه ... قد يكون مبعث هذا الضيق ما أرهق به نفسي من القيام بأعمال المنزل والانسكباب على الحياطة !
— دائماً تشكين من متاعب لا وجود لها ... إن غيرك ليس حسدك على حياتك الناعمة الهادئة !
— حياتي الناعمة الهادئة ؟ ...

— أنت بعيدة الأطلاع ... وهذا هو مَثَار متاعبك ... يجب أن تكوني قنوعاً راضية بما قسم الله لك ...
— لا اعتراض لي على ما قسم الله !
— أما أنا فقد بذلت كل ما في وسعي لإسعادك ... أظنن أن ما أنفقته عليك في المدرسة قليل ؟

فلم أجب ... ولو سمحت لنفسي أن أخوض في حديث المدرسة لجهت

أُمى بما تكره من قول . ورأيها تشعل لفافة أخرى وتسند رأسها إلى وسادة المتكأ ، وتحذق في سقف الحجرة وهى تنفث الدخان . ثم قالت : إن ضميرى مطمئن لما أفعله من أجلك ... ولكنك لا تفرين بالجمل . فلم أعلق على قولها بشئ ، وصمتت هى أيضاً ، ولكنها دأبت تدخن حذقة في السقف ، وكنت أنعم إليها النظر متأمل ما فى بشرتها الذكاء من غضون وأخايد ... وعادت مشاهد الليل تستبد بتفكيرى . وشعرت بالقلق يغمر ما بين ضلوعى ، وخيل إلى أن الدخان المنبعث من لفافة أُمى أصبح متكافئاً كالغمام المركوم يطبّق أرجاء الحجرة جميعاً ... وأردت الخروج لاستنشاق الهواء النقي ، ولكن وجدتنى بغتة قد هبطت على المتكأ ، وأمسكت يد أُمى أقول لها :

لقد كنت أنا الليلة يقظى لم أُم ، وقد رأيت ما جرى !
فرايت اللفافة تهتز بين أناملها حتى تكاد تسقط ... وسرعان ما التفتت إلى تقول وقد ازدادت عيناها احتقاناً : الليلة ؟ ... وماذا رأيت ؟
فتشبّثت بيدها ، وقلت : من يكون هذا الرجل يا أُمى ؟
— أى رجل ؟

— ذلك الذى كان يلاحقك متهددا متوعدا ! ...
فاجتذبت أُمى يدها منى وقالت فى احتياج : أ كنت تتجسسين على ؟
— كنت ساهدة ، فممت إلى النافذة أروّح عن نفسى ! ...
وعادت أُمى إلى لفافتها تدخن ، وقالت فى لهجة راجعها شئ من الهدوء :
اطمئنى ... لأنك لم تكشفي سرا عظيما ... الرجل الذى شاهدته يلاحقنى ما هو إلا وكيل من وكلاء أعمالى ، طردته لإهماله وتفريطه .
هذا هو كل شئ ... والآن أنصح لك ألا تهتمى إلا بشئونك ، بشئونك

الخاصة ، واجتهدى أن تنامى مبكرة ، كما تنام كل الفتيات اللاتي
في سنك . أسمعك ؟

وقت تاركة حجرتها وأنصامته ، وسرت متمهلة ، والهواجس تلتهمني ،
ورحت أفكر : هل من عادة الوكلاء أن يلاحقوا أصحاب أعمالهم في صميم
الليل على هذا النحو الرذول ؟ فقصدت إلى « أم يونس » في المطبخ ،
وكانت مشغولة بقطع اللحم وقشر الخضر ، فلما رأتنى نظرت إليّ
صامتة ، ثم قالت في تحفظ وقد عادت إلى عملها : أفنى حاجة أنت إلى شيء ؟
جلست على مقعد هناك وقلت : لا حاجة بي إلى شيء !

واستغرقت في صمتي ، والخيرة والقلق يستوليان عليّ . وبعد قليل
بدأت « أم يونس » قد اقتربت مني وقالت في ترفق :

أنت على غير عادتك ... ما بك ؟
— لا شيء ..

— لا تحاولي عبثاً أن تخفي عني همك !

— فتهتدتُ وقالت : إنه سرٌّ لا أستطيع أن أبوح به لأحد ...

— حتى لي ... أنا مريبتك المخلصة ؟

— من يدري ؟

فضربت صدرها ، وقالت : هل عهدتني ندامة أعبت بالأسرار ؟
فجذبته من ذراعها بلطف ، وأجلستها بجواري ، وانحنيت عليها هامة :
مشهد عجيب رأيته الليلة انقافاً ...

— أيّ مشهد ؟

« فانطلقت أروى لها حادثة المركبة مفصلة أدق تفصيل ، فظهر
الاهتمام على وجهها ، وقالت وهي تنهض :

أنصح لك يا بني أن تنسى ما رأيته !

فقلت لها : من يكون هذا الرجل ؟

— تسأليني أنا ؟ وهل أدري من هو ؟

— لقد سألتُ أمي عنه ، وأخبرتها بكل ما رأيته ، فقالت لي

لأنه وكيل من وكلاء أعمالها ، طردته لإهماله وتفريطه ...

فنظرتُ إلى أم يونس ، طويلاً نظرات تتم عن دهشتها ، لأنني

جاهرت أمي بهذا كله ... ثم خفضت من بصرها ، وتمتمت :

لا ريب في أنه كذلك ... كما تقول ... ليس هذا بغريب !

فصحت : ماذا ؟ وهل تظنينني غبية أصدق هذه الأقاويل ؟

— يجب أن تصدقني ما تقوله لك أمك !

فقمتم نائرة أعظم :

حتى أنت لا تبغين أن تريحيني ؟ !

وبعد أيام مضت على هذا الحادث الذى أسلفت ذكره قضت أمى يومها كله فى حجرتها لا تبارحها ، فلما أقبل الليل اقتصرت فى عشاها على كوب من لبن .

أما أنا فبعد أن تعشيت مع د أم يونس ، قصدنا معاً إلى حجرتى ، ومضينا نسمر تزجية للوقت . وخيم على د أم يونس ، كسل وفتور ، فانصرفت عني إلى مخدعها . وقت أنا إلى سريرى أتمدد عليه ، واستدنيت النوم فتأبى عليّ ، ففتحت عيني ، وجعلت أجدّ في السقف تهمي الأحلام ... ولست أدرى أى وقت مضى عليّ وأنا على هذه الحال ؟ ولكن أنارتني عن أحلامي طرق بباب المنزل ، وما هي إلا أن شعرت بأمى ترك حجرتها . وتنزل إلى الباب تفتحه ، ثم تغلقه . وتناهي إلى أذنى صوت أمى . مختلطاً بصوت آخر . وتراءت لى فى هذه اللحظة سادثة المركبة ، ومنظر الرجل الذى أراد اقتحام المنزل . فتركت السرير عجلى ، ووقفت خلف باب حجرتى أرهف السمع تنتظمنى رجفة ، فتبين لى أن أمى دخلت مع الزائر فى حجرة الاستقبال ، فى الطبقة الأولى من المنزل ، وخفت صوتهما فترة . ثم تركت أمى الحجرة ، وعادت إليها بعد حين ... وظللت خلف باب حجرتى مائلة يكاد الفضول يقضى عليّ . ثم فتحت الباب فى محاذرة ، وخرجت بخطوات خفاف إلى الردهة ، وانتظرت هناك وأنا أسمع ، ثم وجدتني أهبط الدرج إلى ردهة الطبقة الأولى ، وأسرعت أخبأ نفسي فى ركن بحوار حجرة الاستقبال ...

يا الله ! ... ما أشد خفقان قلبي ! ...
ولبتُ أنبت في شغف إلى الصوتين ، كان يصلان إلى قارة
في وضوح وتارة في خفاء . وشعرتُ بالدم يصبغ وجهي ، وهممتُ
أن أعود أدراجي . ولكن قدمي تسمرت فلم أتحرك ... واشتد إنصاتي
أكثر من ذي قبل ... وبغته فتح الباب ، وظهرت أمي ، فرأيتُ
ورأيتهما ، كانت في غلالة منزلية رقيقة من الحرير الوردى ... فوقفتُ
هنيهة مصعوقة لا تفوه بكلمة ، وبدا في عينيها الاحمرار .

ثم قالت لي : أنت هنا ؟
ثم دنت مني ، ودفعتني دفعة شديدة ، وقالت في صوت مكبوت :
اصعدى إلى غرفتك يا فاجرة !

فاحتقن وجهي وأحسست بشفقٍ ترتجفان ... وفي هذا الوقت خرج
الرجل من الحجرة ينادى أمي ، وما إن وقع بصره عليّ حتى أمسك عن
السير ، ثم نظر إلى أمي مستوضحاً ، فتكلفت الابتسام ، وقالت له
وهي تنتزع الكلمات من فمها في جهد : هذه ابنتي « سلوى » ...
وتقدم الرجل مني ، وكان مبسوط القامة ، جميل الشارة ، وحدثني

في بعينيه النفاذتين ، وقال لي : « بونسوار مدموازيل » ،
ثم التفت إلى أمي يقول : تبارك الله ... إنها عروس !
فأجابته : لا تغرنك قامتها ... ما برحت طفلة في الثانية عشرة ...
فإذا بي أقول في جرة : بل في السادسة عشرة !
فضحك الرجل ، وتضاحكت أمي في نغمة نكراء . ثم التفتت
إليّ ورمتني بنظرة حامية ، وقالت : اصعدى إلى حجرتك ...
ففعلتُ ... ودخلتُ في حجرتي أشعر كأن رأسي يحترق ... ماذا

فعلت ؟ ماذا رأيت ؟ ماذا قلت ؟ ماذا سمعت ؟ أأخطأت في تصرفاتي ؟
أم أصبت ؟ وهذا الرجل الغريب ، ما زالت كلمته ترن في أذني :

تبارك الله ! ... إنها عروس !

كل ذلك كان يعج في رأسي ، فلا أدري أبي رغبة في الضحك أم
في البكاء ؟ وجعلت أروح وأغدو في الحجرة لا أفر ولا أسكن ...

وبغثة خرجت من الحجرة وذهبت إلى أم يونس ، وكانت ممددة
على فراشها ، مستغرقة في منامها ، يملأ المكان غطيظها . فأخذتُ أمزجها
وأنا أقول : استيقظي يا أم يونس ، استيقظي !

وبعد جهد جهيد سمعتها تدمدم : أي شيء تريدن ؟

— قلت لك استيقظي ...

— لآي شيء ؟

— أمر مهم ... مهم جداً

— ماذا ؟

— رجل في منزلنا ...

ففتحت المرأة عينيها ، ومسحت لعابها ، وهي تتمتم :

رجل ؟ ... رجل ؟ ... أين ؟ !

وتقلص وجهها واصفر ، فاستأنفت أقول لها :

رجل في حجرة الزوار ... مع أمي !

فأخذت تتفحصني لحظة ، ثم قالت :

ألم أقل لك لا تشغلي نفسك بهذه الأمور ؟ ... ربما كنت واهمة !

— لقد رأيته بعيني وكلمته !

— كلمته ؟ ... كيف ؟

ثم قالت: ليس بغريب أن يوجد ذلك الرجل مع أمك في مثل هذا الوقت . واعتدلت جالسة في فراشها ، فرويت لها ما وقع . وهى شديدة الإصغاء إلى ... وما إن انتهيت حتى قالت عابسة :

لقد نصحت لك ألا تهتمى بمثل هذه الأمور ...

— أيوسفك أنى أيقظتك لأفنى إليك بما كان ؟

— كلا يا «سلوى» . ولكن يجب أن تعتقدى أنك أسأت التصرف ...

— أسأت التصرف أو أحسنت ... لا يهم !

وراحت تعصر جبهتها وقتاً ، ثم قالت :

ربما كانت في حاجة إليه لبعض المطالب ، أو لشئون القضايا والوقف و ...

فقاطعتها بقول : وهل يجرى الحديث في هذه المسائل والليل يسرى ؟!

— يا بنتى للضرورة أحكام !

— وهذه الغلالة الحريرية التى تبدو فيها ... هل هى من أحكام .

الضرورة أيضاً يا «أم يونس» ؟!

فوجت المرأة وهى تنفحصى لحظات ، فتابعت قولى :

لماذا تنفقص من سنى أمام هذا الضيف ؟

— عجباً لاسئلتك يا «سلوى» ! حقاً إن بنات اليوم لاثمل الكلام !

ثم تكلفت الابتسام ، وأخذت يدى ، وهى تقول :

تعالى ... تعالى ... أنت في حاجة إلى أن تستريحى !

وسارت بى إلى حجرتى ، وطلبت إلى فى رفق أن أدخل فراشى .

فطاوعت ... وجلست «أم يونس» على طرف السرير بالقرب من رأى .

وظفقت ترقبى ، ولما انتهت من رقيتها جلست بالقرب من قدمى ، وجعلت

تدلكها فى تल्प ، فشعرت براحة ، وبدأت أعصابى تستكين ، ثم

تأملت « أم يونس » تروى لى فى صوت عذب أفاصيص عتيقة طالما سمعتها وأنا طفلة ، فأصغيت إليها فى لذة وسرور ، وطخت على أحلام الطفولة ، فجاءت أتصفح الماضى ، وكأنى أعيش فيه عوداً على بدء ... هذا منزلنا القديم فى حى « محرم بك » بحديقته المهيمة ، وها هو ذا جدى يلعب بالنرد مع « الطوخى افندى » ، وهناك بجوار الباب يقبع « الحاج مسرور » غارقاً فى تأملاته التى لا تنتهى ، وأنا أفقر بمنة ويسرة فى الحديقة ، كأنى فراشة أتقل من زهرة إلى زهرة بين الأيك والغصون !

وحسببت « أم يونس » أنى نمت ، فتركت الحجر ماشية على أطراف الأصابع . وبعد حين سمعت حركة بباب المنزل ، فقفزت من سريرى وجريت إلى النافذة ، وتطلعت إلى الحارة ، فإذا بأمرى تشييع الرجل عند الباب ... ولبثت أتابع شبحه فى سيره حتى ابتلعه الظلمة ، وما زلت أحدثن بعين حائرة حيرى ... وفيما أنا غارقة فى أوهامى ، سمعت وقع خطوات ، فالتفت خلفى ، فإذا بأمرى تدخل الحجرة ، وما إن وقع بصرها علىّ حتى صاحت :

ويحك ! ... بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، ولما تنامى ...

فتمتمت : الساعة الثانية بعد منتصف الليل ؟

— لولم أحضر لآنهك ، لقضيت سائر الليل ساهرة يقطعنى ... !

— لا أجد للنوم سيلاً إلى عينى ...

فوقفت أسمى ترنو إلى لحظة ، ثم قالت فى صوت هادى شيئاً :

اعترفى بأنك أخطأت فى تصرفك الليلة ...

فقلت فى غير اهتمام : يجوز !

— لماذا أجدك معى دائماً تبحدين الجميل ؟

— أنا جاحدة للجميل ١٩ —

— لماذا لم تصيحي بملء فمك مناديةً الجيران ، قائلة لهم : تعالوا
انظروا أُمِّي تجالس وحدهما رجلا في جوف الليل ؟ ١

— ما كان لي أن أفعل ذلك !

— كنت أظن أن طفلة مثلك لاقت من حسنوى وعطفي ما لم يقدره الله ،
لا يداخلها الظن السيء بي .

فنجيت عنها بصرى ، وعقدت يدي على صدرى ، دون أن
أنبس بحرف .

فتابعت أُمِّي قراها :

لست مضطرة لأن أجلو الأمر أمامك ، لأدافع عن نفسي ...
ومن أنت التي تريدن محاسيتي على ما أفعل ١٩ ؟

فنظرت إليها وأجبت في بساطة وهدوء : وهل اهتمت بك بشيء ؟
— تهميني ؟ وهل تجرئين ؟

وأخذت تجفف عرقها ، ثم ارتمت على المقعد تروح وجهها ...
وصمتت قليلا ، ثم استأنفت الكلام ، كأنها تحدث نفسها :

رجل يزورني ليلا ... ما في ذلك عيب ... إنه المحامي الذي يتولى
الدفاع عن قضاياى ، ويساعدنى في إدارة أعمالى . فأنا لست امرأة
غاملة متعطة . إن النفود لا تهبط على من تلقاء نفسها ، بل على أن
أسمى في سبيل الحصول عليها ... ولكن الناس لا يريدون أن يفهموا
من ذلك شيئا ... ليس من يده في الماء كمن في النار !

فأجبتها في تودة واحتمال : لا أحد ينكر أن لك أعمالا تستوجب
تلقائك للمحامين ، ولكن لهؤلاء المحامين مكاتب يستقبلون فيها العملاء !
(٥)

خلفت أمى فى وجبى ، وصاحت : إذن من يكون هذا الرجل ؟ ... تكلمى ... صرّحى بخبيته نفسك !

وصرخت منادية « أم يونس ، فهرولت المرأة إلينا على عجل ، وهى تذود النوم عن عينيها ... فاندفعت أمى تقول لها ، وهى تشير إلى :
أرأيت ابنة أشدّ عقوقاً من هذه ؟ كل ما أسديته إليها ذهب سدى !
فأقبلت « أم يونس ، على ، وقالت معاتبه :

ماذا فعلت يا «سلى» ؟ ... إنها أمك ، وأنت مدينة لها بكل شيء !
— ألا يحق لى أن أعلم من هو هذا الرجل الذى طرق بيتنا الليلة .
ولبت فيه حتى الثانية بعد منتصف الليل ؟

فصرخت أمى ، وهى توجه الكلام إلى « أم يونس » :
لقد أخبرتها بأنه المحامى ... محامى قضاياى !
فقال « أم يونس ، وهى تقطع تناوبة حادة :
إنه المحامى بلا ريب ... ماذا يخطر ببالك أن يكون ؟ !
فقال أمى صارخة : فليخطر ببالها أى شيء ... ليس على أن
أقدم حساب أعمالى لأحد ...

فتناولت « أم يونس ، يدي ، محاولة أن تذهب لى إلى أمى ، قائلة :
تعالى ... قبل يدا أمك ، واطلبى الصفح منها عما بدر منك
فسلكت يدي من يدها ، وأنا أقول :

إلى مستعدة أن أقوم بكل ما يرضيها ، على شرط أن أرافقها غداً
إلى مكتب هذا المحامى ، حتى أتبين حقيقة الأمر ..

فتقدمت أمى منى مهتاجة تقول : اخرجى يا وقرعة ، يا فاجرة !
فقلت لها غير هيابة : لماذا تشتمينى ؟

— أنت لا تستحقين الشتم وحده ، بل الصفع والضرب ...
فازددت منها دنوًا ، وأنا رافعة الرأس ، وعيناي تقدحان شررا ...
وقلت في صيحة : إذن جربي ...
وتوافقنا لحظة وجهاً لوجه ، صامتتين ، ترمق كل واحدة منا غريمتها
بنظرة ملتبئة . على حين كانت « أم يونس » تحاول الدخول بيننا ، وهي
تستعطفنا وترغب إلينا في أن نهدى من روعنا ، حتى ينتهى الامر بنا
إلى سلام ...

ووجدت أُمى تراجع بعضع خطوات ، ثم خرجت وهي تدهدم قائلة :
سترين ... سترين ...

فرددت الباب خلفها في شدة وعنف .
ومكنت موقناً أحدهم ولا أتحرك ...
ثم وجدتني أومى بنفسى في مخدعى ، يخفقنى انسكاب الدمع ...

وصحوت من رقادى فى مطلع الشمس ، على الرغم من أنى نمت بعد
طول سهر ، وكان برأسى دوار ، ويجسمى همود ، وكنت أحس فى دخيلة
نفسى بشاعر متضاربة لانهدا . وتنازلت فطورى مع د أم يونس ، وأنا
صامئة ، فقالت لى أخيرا :

لقد فكرت فى ما وقع بينك وبين أمك الليلة ، فتجلى لى
أنك مخطئة .

فرفعت رأسى إليها وقلت فى هدوء : أنا المخطئة ١٩

— أنت الابنة ، ويجب على الابنة أن تكون مطيعة لأمها ،
مهما يكن من أمر .

— حسبك ، حسبك ...

— لأنه قول أبغى به مصلحتك ١

— مصلحتى ؟ ألم تسمعها تقول لئننى أستحق الصفح والضرب ؟

— لأنه مجرد كلام لا يحمل بك أن تلقى له بالاً .

— وماذا تريد منى أن أفعل الآن ؟

— أن تذهبي معى إليها ، وتطلبي منها الصفح . . .

— تريدننى أن أقر بأنى مخطئة ، فتزداد هى عتوًّا وجبروتا ١٩

— لن يكون من هذا شئ . أؤكد لك أن طلبك الصفح سيستل
غضبها كله .

فصمت . وجعلت د أم يونس ، تحاول إقناعى بضرورة الذهاب

إلى أمي لطلب الصفيح منها ، حتى أذعنت لها بعد لآي . وانتظرنا حتى استيقظت من النوم وفرغت من تناول فطورها واحتساء قهوتها ، فقامت مع « أم يونس » ، إليها ، وكانت في حجرتها تدخن كعادتها .

فقال « أم يونس » ، وهي تتقدم منها تتصنع الابتسام :
لقد جاءتك « ساول » ، تؤدي لك تحية الصباح .

فلم تجب والدتي ، بل رأيها تنفث دخان لفاقتها وهي تتهدد . فأخذت يدها وقبلتها صامته ، فأنحنت على « » ، وقبلتني في خدي ، ثم قالت :
إن قلب الأم سريع العفو ، سريع الرضا !

وجلست على مقعد غير بعيد من مكانها ، وسمعت « أم يونس » ،
تتكلم موجهة قولها إلى « » :

أرأيت كيف أن قلبها رقيق ؟ ... لا دخل الشيطان بينكما أبداً ،
ولا عكر عليكم الصفو !

ثم عادت أدرجها وهي تقول :

أستاذن في الانصراف ... لم أقشّر بعض الخضر .

وفيا نحن وحدنا ، قالت لي أمي : أتناولت فطورك ؟

— تناولته منذ قليل .

— وماذا أكلت ؟

— جبناً وحلوى طحينية !

فابتسمت وقالت : أما زلت تحبّين الحلوى الطحينية مثل الأطفال ؟

— ما زلت أحبها !

— كنت مثلك ، ولكن عافتها الآن نفسي .

— لأنها طعام الأطفال ؟

فتضامحت قائلة : الأمر كما تقولين !
وأشعلت لفاقة ، وأخذت تنظر إليها ، وهى تديرها بين أصابعها ،
منسرحة الخاطر . على حين قالت لى : أما زلت تظنينى كاذبة فيما
أخبرتكم به فى شأن المحامى الذى قدم فى الليل ... ؟
— لا نعاود هذا الموضوع يا أمى ...
— بل يجب أن نعاوده ليسكون قلبانا صافيين .
فأجبتها وأنا أنظر فى كفى : لى مصدقة كل ما قلته لى .
— إذن أعيدك بأن نذهب معا إلى هذا المحامى فى مكتبه
فى أقرب فرصة ...
— ذلك لا يهم ...

وعادت د أم يونس ، تطلب من أمى نقودا للتشترى بعض ما يلزم
للطعام ، فرأيت الفرصة سانحة لأغادر الحجرة .
لم تبرح أمى المنزل هذا اليوم ، وتناولت معى طعام الغداء فى بهو
الطبقة الأولى . وكانت مسترسلة فى ثرثرة على غير عادتها ، فانطلقت تعيد
على مسامعى أنباء قضايها ، وأنها تثق بصديقها المحامى ، فقد دل لها على
إخلاصه فى مواقف شتى ، وهى مدينة له بالشئ الكثير ، فلولا جهده
لكانت خسارتها فادحة .

و كنت أصغى لها ولا أتكلم إلا بالموافقة . وما إن انتهينا من الطعام
حقق دق جرس الباب ، فنظرت والدنى إلى د أم يونس ، وقالت :
من يجيئنا فى هذه الساعة ؟

فأجبتها د أم يونس ، وهى منكبة على الصحف تجمعها :
لا بد أن يكون الكنتساس أو صبي الخضرى .

وخرجت لتفتح الباب ، وبعد قليل وجدناها تعود مهرولة وتنحنى على والدتي تقول : شخص يريد أن يراك .

ولم تكذب تنهى من جملتها حتى رأيت « رجل الليلة الماضية » يدخل مبتسما يتقدم من أمي مصافحا ، وهو يقول :

المعذرة عن إقلاق راحتك في هذا الوقت . لقد ...

ولم يتم جملة ، بل التفت إلى مبتسما ، ومد يده قائلا :

أهلا ، سلوى هانم ، ... « بونجور » ، أ

فأجبت : « بونجور » ، أ

— أما زلت تصرين على أن عمرك ستة عشر عاما ؟

ثم اندفع يضحك ملء فيه . وقالت أمي في طجة لاثخلو من جفاء ،
موجهة الكلام إلى :

الاستاذ رجائي بك ، المحامي الذي كنت أحدثك في شأنه منذ لحظة ...

فالتفت إلى والدتي تقول : رأيت قبل سفري إلى « الإسكندرية » ،

أن أمر بك لأرى هل أنت في حاجة إلى ؟

فقلت أمي : وكيف لا أكون في حاجة إليك ؟ إنما لم تنته في الليلة

الماضية من بحث القضية !

— القضية ... ؟

فلاحقته أمي بقولها ، وهي تنظر إليه نظرات لها معناها :

قضية المتأخر من الإيجار ...

— آه ! ... ولكننا كدنا نتممها ... هناك تفاصيل صغيرة ليست

بذات بال !

ثم مال على وقال : « المدموازيل » لا تريد شيئا من « الإسكندرية » ؟

فقلتُ : أشكر لك . لا أريد شيئاً !
— إن الإسكندرية ، تختلف كثيراً عن القاهرة ، . وتخازنها
مشهورة بسلمها المبتكرة التي لا تجدونها إلا فيها ... أحسبك لم تَرَنى
الإسكندرية ، ...

— لقد قضيت بها أكثر من عشرة أعوام !
— أكثر من عشرة أعوام ؟
فوجّهته حديثه إلى أمى قائلا : إنها الإسكندرية ، !
واندفع يقهقه على الصوت ، فقالت له أمى : متى تسافر ؟
— غداً في الصباح المبكر .
ودخلتُ وأم يونس ، بالقهوة ، وتناول الرجل قلدحه وشرع يحسب
على مهل ، وقالت أمى :
إذن نؤجل البحث في موضوع المتأخر من الإيجار حتى تعود !!
— ولم ذلك ؟ يمكن أن نلتقي هذا المساء إذا أردتِ ...
— لا موجب للعجلة !
وقدّم الرجل علبة لفائفه لوالدتي ، فأخذتُ منها واحدة ، فأسرعت
يشعلها في رشاقة ، ثم تناول لفافة له .
والثفت إلى يقول في ابتسامة واضحة : سلوى هانم ، لا تدخن بالطبع !
وأشعل لفافته ، ثم قال لأمى :
إني أفضّل أن نلتقي ، لأنى لا أعرف مدة إقامتي في الإسكندرية .
هل تطول أو تقصر ؟ وأخشى أن أتأخر هناك فتتعطل القضية !
ونفت دخانه دفعة واحدة ، وقال : قبل أن أسمى أريد أن أسألك :
ألم تشاهدى ، فلم ، مغامرات فتي الجبال ، ؟ .

— كلا !

والتفت إلى " يقول :

« فلم ، مدهش جداً يا «سلوى هانم» . لقد سمعتُ ثناء عليه مستطاباً .
وروجه حديثه لأمي قائلاً : اليوم هو آخر أيام عرض «الفلم» فإنا
رأيك في أن نذهب لمشاهدته ؟ لقد حجزت مقصورة منذ الصباح ..

— لا مانع ... !

— يمكننا أن ندرس موضوع القضية في فترة الاستراحة . إن .
« سلوى هانم » ستسمر بهذا « الفلم » كل السرور .
— ولكن « سلوى » ...

— ماذا ؟ إنه من نوع « الأفلام » التي تروق من في سنّها ...
مغامرات ... حرب ... مباحثات ... حب ... سأمراً بكاً في الساعة
السادسة والدقيقة الخامسة عشرة ... اتفقنا ... إنها فرصة لطيفة لأريكاً
سيارتي الجديدة ...

— هل فرغت من أمرها ؟

— سأتملأ اليوم ... أقصد بعد وقت قليل ... لن يركبها قبلئذ
أحد ... إنه لحظ سعيد بلا شك !

ونفض ، والابتسامة تتخايل على وجهه ، وقال :
في الساعة السادسة والدقيقة الخامسة عشرة ...

وانحنى على يد أمي فقبلها بحباً ، ثم لاطف يدي وهو يقول :
سيعجبك «الفلم» جداً يا « سلوى هانم » . إنني واثق بذلك . أما
إذا لم يعجبك فأنا مستعد للتعويض !
وجعل يقهقه ، ثم مضى .

- وما هي إلا أن قلت لأمي في ابتهاج : سأرتدى ثوبي الأخضر :
- فرمقتى بنظرة جافية ، وقالت : أيّ ثوب ؟
- ثوبي الجديد الذي أريتك إياه ، والذي فصلته بنفسى ...
- الثوب القصير الذي يظهر سافيك ! ؟
- إنه ليس من القصر كما تتوهمين .
- بل إنه فاضح .
- سأحضره إليك لثريته !
- لا يمكن أن أدعك تخرجين معي إلى « السينما » بهذا الثوب .
- أؤكد ذلك يا أمي أن ...
- لا تستطيعين أن تؤكدى شيئاً .
- ليس عندى ثوب آخر يليق بهذه المناسبة !
- أية مناسبة ؟ وهل تظنين أنك ذاهبة إلى المرقص ؟ ارتدى
- الثوب الكحلى !
- فلم أتمالك أن صرخت قائلة :
- الكحلى ؟ إنه مهلهل تتكاثر فيه الفتوق . لقد تعبّت أصابعى في
- رتقة ورقفره ، وقد عوّلت على أن أعطيه « أم يولس » ...
- حقاً ! ... يصح لك أن تنبذى أثوابك وهى في حالة جيدة ،
- لأننا من أصحاب الملايين !
- لنختصر الحديث يا أمي ... إنى لا أرغب في الذهاب
- إلى « السينما »
- وتركتها على الفور ، وهرعت إلى حجرتى ودموعى تتساقط على
- وجهى ، وذهبت إلى النافذة واستندت إلى حافتها وأنا أقرض أطراف

مندیلى ... إن أمى لتعلم عدد المرات التى ذهبت فيها إلى « السينا ، فى
حياتى ، وهى لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، ومع ذلك فإنها تضع
العراقل لتحرمنى أن أذهب اليوم لمشاهدة ذلك « الفلم » !

وطرق سمعى خفق خطوات « أم يونس » ، ثم أحسست يدها
تلاطف كمنى ، فالتفت لى إليها وأنا أقول بجدّة :

إن أذهب إلى « السينا » . لا يمكن أن يرغبنى أحد على الذهاب ...
ثم انطلقت أضحكى لها ما حدث ، فقالت لى وهى تتظاهر بتنظيف
ثوبى : « أو تريد أن تضيّع على نفسك فرصة التفرّج ؟ لو كنت
مكانك لذهبت ! »

— لا كون أضحوكة بين الناس فى ثوب الكحلّى ؟ محال ... !

فأخذتنى من يدى ، وذهبت بي إلى صوّان الملابس ، وقالت وهى
تفتحه : فلتنظر على مهل ...

فانطلقت منى ضحكة ساخرة ، وقلت : تنظرين ! أى شىء ؟ الثلاثة
الاثواب التى لا أملك سواها ؟ انظرى أيها يليق ؟ أهذا وقد نصل لونه ،
أم ذلك وهو لا يصلح إلا أن يكون ممسحة للأرض ؟ ... أغلقى
الصوّان ... أغلقيه ... !

— إن أمك تريدك على أن ترتدى الثوب الكحلّى .

— لن أرديه !

وأخرجته « أم يونس » من الصوّان وبسطته على السرير . وهى

تقلبه ، ثم سمعتها تتكلم كأنها تحدث نفسها :

لو خطننا هذا القطع ، ورشّقنا هذا الفتق ، لما كان فيه ما يعيبه !
فقلت لها وأنا أهم بارتفاعه منها : قلت لك لن أذهب إلى « السينا » ،

فأرجى نفسك من العناء .

فأمسكتُ به ، وقالت : أنت حرة في أن تذهبي إلى « السينا » أو لا تذهبي . أما الثوب فإدام لا يروقك فدعيه لي أتصرف فيه كما أشاء...
— فليكن . خذيه . إنى لست في حاجة إليه . لقد كان في نيتي أن أعطيك إياه ...

وجلستُ على مقعد بجوار النافذة ، ورحت أهرجُ رجلى ، وجعلتُ أختلس إليها النظر ، فرأيتها قد تناولت سَفِطَ الخياطة من تحت السرير ، وقعدتُ متربعة على الأرض ، وأقبلتُ على الثوب تبسط جوانبه . وبعد حين سمعتها تحدث نفسها بقولها : لو وضعنا في هذا الثوب أزراراً حمراً يا بنيّتي ، ثم جئنا له بحزام على لون الأزرار ...

فأرسلت ضحكة عالية ، وقلت متممة كلامها : لأصبح فتنة الثياب !
فرفعتُ « أم يونس » رأسها وقالت :

ما رأيك في ذوق جارتنا « الست فتحية » التي تسكن آخر الحارة ؟
— يقولون إنها نموذج الرشاقة والذوق السليم ، ولكن ما شأنها بالثوب ؟

— لقد شاهدتها منذ أيام تلبس ثوباً كحليّ اللون كأنه هذا الثوب عينه . ولكنها حلّته بحزام قرمزي وأزرار عنساوية ... وكانت في يدها حقيبة حمراء قانية ، وفي قدميها حذاء كأنه قطعة من الحقيبة ، وفي الشئ « الأيسر » من صدرها وردة حمراء ... فأعجب بها كل من رآها . وكانت بهذا الزيّ كهنياً لأنظار الرجال !

وفي الساعة السادسة والدقيقة الخامسة عشرة سمعت صوت أمي
تناديني . فلبست على عجل ، فإني تلاقى أنظارنا ، حتى قالت :

ما هذا الثوب ؟ إني لم أره عندك من قبل !

— إنه الثوب السحلي الذي طلبت منه أن أرديه !

— إن الأزرق مع العنابي من الألوان التي أصبحت مبتذلة

الآن . . . وهذه الوردة الغريبة . . إنها بلديّة الذوق . . .

ونظرت إلى قدمي ، فصاحت : ليس هذا هذا !

ورفعت بصرها إلى ثانياً تقول : قرّبي مكانك مني . . . تعالى . . .

من أين لك هذه الحقيبة وهذا الحزام ؟ . . إن جارتنا دالت فتحية ،

لها ما يماثلها . . لعلك قد . .

ودخلت في هذه اللحظة د أم بونس ، تعلن قدوم الأستاذ ورجائي ،

وأسرعنا نستقبله وأمي تنغمم ، فألفيناه في البهو لمّا أح الطلعة ، جديد

الملبس ، يتخذ رباط رقبة أحمر زاهياً يستثير بلونه انتباه الرائي . وتقدم

خفيف الخطا من أمي فلم يدها ، ثم وقف قبالي يتفحصني وهو يقول :

ماذا أرى ؟ أنا أمام د سلوى هانم ، ؟

فمضاحكت أمي وقالت : أتراها قد تغيّرت في ساعتين ؟

— إن د سلوى ، الصبية قد اختفت عن الأنظار . . .

فقلت أمي في نظرة غامضة : عجيب !

ودنا مني الأستاذ ورجائي ، وألفيته يسك بيدي ، ثم انحنى عليها

فقبلها . فنظرتُ من فوري إلى أمي ونبضاتُ قلبي تتواهب ، فرأيتهما
تحد في بصرها الملتهب ، ثم سمعتها تقول للضيف : هل تسلمت السيارة ؟
— أجل ... إنها طُوع أمرك !

وخرجت أمي ، فتبعها أنا والاستاذ ورجائي ، وإذا بنا أمام سيارة
لطيفة تبدو على ضوء النهار الغارب كأنها جوهرة نفيسة تألق ، وأخذ
الاستاذ ورجائي ، يدور بنا حولها ، ويرشدنا إلى دقائقها . ويشرح لنا
مزايها ، مسبباً في الحديث ، متأنقاً في التعبير .

وأخيراً دخلناها ، فاحتل الاستاذ مجلس القيادة ، واتخذت أمي مجلسها
في الخلف وأنا بحوارها ، ورأيت السيارة تمضي بنا والاستاذ لا ينفك
يحدثنا عن شئونها : ماهي طاقتها في السرعة ؟ ماذا تحتزن من الوقود ؟
ماهي مزايها التي تنفرد بها ؟ وقد استغرق هذا الحديث طريق السيارة
بين المنزل ودار السيدنا ...

ولما قصدنا إلى مقصورتنا في السيدنا ، شهدنا على الستارة البيضاء
أفلاماً أخبارية وأخرى فككية ، وكان حديث الاستاذ ورجائي لا ينقطع
وضحكاته لا تفتر ، ولكن شغلي بمتابعة ما يعرض من الصور لم يدع لي
بالألقى إلى حديثه وبواعث ضحكاته .

وفي فترة الاستراحة وقد أطلقَ النور أخذتُ أسرحُ بصرى
حولى وأنا مبتهجة مغتبطة ، وشعرت بالاستاذ ورجائي ، يترك المقصورة ،
وسمعتة يحسِّي بعض الناس قائلاً :

أهلاً دكتور فهم ، ... مصادقة مدهشة !

فالتفتُ خلفي فإذا بشابٍّ وسيم يدنو من الاستاذ ورجائي ، ويصافحه ،
ووقفاً لحظات يتطارحان الحديث . ثم رأيت الاستاذ يدخل المقصورة

وفي صحبته ، الدكتور ، الشاب ، واقترّب من والدتي يقول لها : «الدكتور داود بك فهم ، الذي حدثتك في شأنه أخيراً حين كنت متوَعِّكة .. ثم التفت إلى الدكتور فهم ، يقول : «دريّة هانم شوقي ، ! واتجه نحوي مشيراً إلى قائلاً : الآنسة ، سلوى هانم شوقي ، ! وأقبل «الدكتور ، على أمي وعلى يصاحفنا . وهو ربعة معتدل القامة ، نفاذ النظرات ، استرعى انتباهي منه على الفور ما يتحلى به من أدب واحتشام . وسمعت أمي تقول له :
اجلس يا «دكتور ، ... إنه لفسرني معرفتك !
— أشكر لك . لست أقلّ منك سروراً بهذا التعارف يا «هانم ، !
وقال الأستاذ «رجائي ، :
إن «الدكتور فهم ، ليس طبيباً فقط ، وإنما هو عالم أيضاً .
فقلت أمي : عالم ؟
— بحسّانة كبير ... ويريد التخصص في أمراض المناطق الحارة ..
فقلت أمي : أهشّك يا «دكتور ، !
— إن الأستاذ «رجائي ، يبالغ يا «هانم ، فيما يصفني به ...
فقال الأستاذ «رجائي ، : لا مبالغة فيما قلت !
— لا أنكر أني مهتم بأمراض المناطق الحارة . ولكني أعترف .
بأنني لم أصل حتى الآن إلى شيء يستحقّ الذكر .
— ومحاضرتك البليغة في «ديت الحكمة ، ؟
فقلت أمي وهي تتظاهر بالاهتمام :
هل أتيت «الدكتور ، محاضرة في «ديت الحكمة ، ؟
فأجاب «الدكتور فهم ، :

تحدثت عن « التيفويد » باعتباره من الأمراض الفاشية في مصر .
فقال الأستاذ « رجائي » : لقد عارضك « الدكتور شوكت » في
نظريتك ، ولكنك انتصرت عليه ...

والثفت الأستاذ « رجائي » إلى أمي يقول : لقد كان انتصاره حاسماً !
وبدأت الأنوار تطفأ ، فاستأذن « الدكتور » في الخروج ، فقال
الأستاذ « رجائي » : إلى أين ؟

— إن مقعدى ينتظري يا أستاذ !

فقال له : فلينتظر يا سيدى ! ... كن معنا إلى نهاية الرواية ...
والثفت إلى والدتي التفاتة التساؤل ، فقالت : يشرّف ويؤانس !
فقال « الدكتور » : ولكن يا « هانم » ...

وأجلسه الأستاذ رجائي ، وهو يقول : اجلس . اجلس !
وقد دار هذا الحديث ، فلم أشارك فيه بكلمة ، ولكن نظرات
« الدكتور فهم » التفت بنظراتي غير مرة .

وساد القاعة ظلام ، وبدأت الستارة تعرض « فلم » : « مغامرات فتي
الجبال » . وكان الفلم ملوّناً ، فسحرتني مناظره وخلبني حوادثه .
وشعرتُ بالأستاذ « رجائي » يذني مقعده من مقعدى ، على حين كان
« الدكتور فهم » بجوار والدتي يتحدثان بين فترة وأخرى . فكنت أسمعهم
يتكلم عن « البكتريا » ، والطفيليات واللقاح و « الامصال » ، وما إليها ،
وظهرت إحدى مشلات « الفلم » تضع على صدرها وردة حمراء ، وسمعت
الأستاذ « رجائي » يهمس بقوله : ما أشبه وردتها بوردتك ! ...

ولكن وردتك أجملُ منظرأ ، وإن عطرها لوكى !

فقلت له : إن وردتي من لسيح ، لاعطر لها ... !

— من نسيج أو من غير نسيج . إن لها لعطراً رائعا . حسبها أنها على صدرك ...

وسمعت والدتي في هذه اللحظة تقول لي في لهجة يتوضح فيها الجفاء :
إنك تحجبين الستارة عن « الدكتور » . تنحسني قليلا ...
فقال « الدكتور » ، على الأثر : إنني أرى جيداً . دعيها مكانها .
فتراجعتُ شيئاً عن مكاني . وأحسست الأستاذ « رجائي » يتأخر
بمقعده خطوة ، وبعد قليل سمعته يشترك مع « الدكتور » فيما يتحدث
به إلى أمي عن « البكتريا » والطفيليات .

وانتهى عرض الرواية وأطلقت الأنوار ، فقمنا فتأهب للخروج .
فقال الأستاذ « رجائي » :

كان « فلان » عظيماً . لقد أحسنتُ الاختيار . أليس كذلك ؟
فقلت والدتي : حقاً إن اختيارك كان موفقاً ، وأهنتك !
وانصرفنا .

ولما بلغنا مكان السيارة ، قال الأستاذ « رجائي » ، لوالدتي :
لديّ اقتراح !
— ما هو ؟

— إن الليلة رائعة ، لا يجمل أن نقضوها بين جدران المنزل .
— إلى أي مكان تريد أن نذهب ؟
— إلى مطعم ، أمبريال ، نلغشسي ونستمع بالموسيقى والرقص .
ومال عليّ قائلاً : « سلوى هانم » تحسن الرقص . أليس كذلك ؟
فقلت أمي على الأثر : ليس لـ « سلوى » في المطاعم والمراقص مكان !
فضحك الأستاذ « رجائي » قائلاً :

نحكم » الدكتور فهم ، في هذه المسألة !
فأجاب » الدكتور ، : إن من التطفل أن أتدخل في مثل هذه الأمور
الخاصة ... والآن أظن أن موعد استئذاني قد دنا ...
— ماذا تقصد ؟ أتأبى أن تكون في صُحبة » الهانم ،
هذه الليلة ؟

— الموضوع يا أستاذ ...
— الموضوع أني أدعوكم جميعاً إلى العشاء الليلة في مطعم
» أمبريال ، ... هليّسوا ... لا أريد جدالاً ولا مناقشة !
· وانحنى على والدتي يقول لها مبتسماً :
لم نلته بعد من مسألة المتأخر من الإيجار ...
وتركنا السيارة في خفارة غلام من حراس السيارات ، ونحونا نحو
المطعم مترجلين ، إذ كان مكانه على قيدِ خطوات .
وأعدت لنا مائدة في الصفّ الأول قبالة حلقة الرقص ومنصة
الموسيقى . وكانت الأنوار ألفة تخطف البصر ، والضجة متتابعة تملأ
السمع . فكنتُ مأخوذة أبعثر النظر ذات الحين وذات الشمال .
وكانت المائدة مستديرة ، فالتفتنا حولها ، واتخذت والدتي مجلسها
بين الأستاذ » رجائي ، و » الدكتور فهم » . واختارت لي مقعدى ، وأشارت
إلى » أن أجلس عليه ، فإذا بها تتعمّد به ألا أرى من حلقة الرقص إلا
بعض جوانبها بكفتِ النظر وإمالة العنق .

وأخذ الأستاذ » رجائي ، يقرأ ورقة الأظعمة بصوت مسموع ،
وقدّم خادمُ المطعم ، فكتب الألوان التي انتخبناها في مذكّرتي .
ومال الأستاذ » رجائي ، على والدتي يشاورها في أمر . فقالت :

لا بأس ... أريده بالصودا ..
وفطنتُ إلى أنه يكلمها في شأنٍ، وسمعتها تقول :
أحضِرْ لها شراب الليمون ... شراب الليمون ...
ولم يطلُ بنا الانتظار ، فقد أقبل الخادم بصبرٍ حَسَّافٍ الطعام وأقداح
الشراب ، وبدأنا نَتَطَعَسُ ، ووجدتُ الأستاذ رجائى ، يقرب منى
شراب الليمون ، على حين أخذ يفرغ زجاجات الصودا ، فى السكّوس
الأخرى التى كان فيها قليل من شراب ذهبي ...

وانطلقتُ الموسيقى تعزف ، وانتظمتُ حلقة الرقص ، وأخذتُ
بين الفينة والفينة أنظر إليها ، وأتلفتُ حولى كأتى فى مدينة مسحورة ،
وسمعتُ الأستاذ رجائى يقول :

أرجو أن تكون سلوى هانم ، مسرورة .
— مسرورة جداً . أشكر لك .

وتناولتُ أمى ثلاث كئوس ، واحتسى الأستاذ رجائى ، مثلها .
أما الدكتور ، فاقصر على واحدة . وأنى كل الإباء أن يزيد عليها .
وكان زُرَّ الكلام ، وزين المجلس ، ولم يبادلنى إلا كلمات مألوفة فى
احتشام ، وكان يقدم لى ما يرانى فى حاجة إليه من أشياء الطعام .

ورأيتُ والدتى تحتسى الكأس الرابعة ، وانطلقتُ تضحك فى
إغراق ، وترنم بصوت جهوري ، وتضرب بقدمها الأرض متباعدة
تسار الموسيقى فى الإيقاع ... ولقد أكثر الأستاذ رجائى ، من
الشراب ، فلم أعلم كم كأساً تعاطى ... ووجدتُ والدتى تمنحني عليه
هامسة فى أذنه فى تدلُّل ومعاينة . وبعد هنيهة نهضا معاً إلى حلقة
الرقص ، ثم ارتدت والدتى خطوة إلى مائدتنا تقول : الدكتور :

إن « سلوى » لا تحسنُ الرقص . تعلمته في المدرسة منذ سنين ،
ولكنها الآن نَسِيَتْهُ .

فأجابها « الدكتور » مبتسماً :

وأنا أيضاً لا أحسن الرقص يا « هانم » ،

وتأبطت أُمى ذراع الأستاذ « رجائي » ، وانتظما في حلقة الرقص ،

وانطلقا رقصان . وسرعان ما تواريا بين الراقصين ، ولكن ما لبث أن

ظهرا ثانية ... وكانا يتمايلان في نشوة وقد تقارب وجهاهما حتى كادا

يتلاصقان . وبدرت من والدتي بعض حركات غير لائقة تتبعها ضحكات

مبتدلة ، فوجدتني ألثفت إلى « الدكتور فهم » وأحسستُ على الفور وجهي

يأتهب ، خففتُ من بصري . وبعد هنيهة سمعت « الدكتور » يقول :

— أظنها المرة الأولى التي تحضرين فيها إلى هذا المطعم ...

فرفعتُ عيني إليه ، فإذا هو يبتسم في وداعة ، فقلت :

إنها المرة الأولى التي أتناول فيها الطعام في مطعم عام .

— وكيف تجدين المكان ؟

— لطيفاً ...

— وهذه الزحمة ، وهذا الدخان ، وهذا الضجيج ؟

— أحب فيه أنواره وما فيه من مناظر مسلية .

فتناول كوب الماء يجرع منه قليلاً ، ثم قال : حقاً إنها مناظر مسلية

وأمسك بالسكين يتلاعبُ بها وقتاً ، ثم قال وهو يتفحصها :

أتعرفين الأستاذ « رجائي » من زمن طويل ؟

— منذ أيام !

— فقط ؟

— فقط ! مع أنه يتولى قضايانا من عهد بعيد .

— ألكم قضايا كثيرة ؟

— أظنّ !

ورأيت والدتي قادمة مع الأستاذ رجائي ، فصمت .

وصاح الأستاذ بخادم المطعم :

أين الفاكهة يارَذل ... الفاكهة حالا . أسمع أنت ؟

ثم ابتسم لي وقال :

ماذا تود ، المدموازيل ، أن تأكل : كثرى ؟ تفاحاً ؟ برتقالاً ؟

فقلت أُمى على الفور :

أحضر لي كثرى ... أما ، سلوى ، فهي تحبّ اليوسفيّ .

وبعد قليل قدم الخادم بالفاكهة ، فإِن رآها ، الدكتور ،

حتى قال له : أمسولة هي أم بدون غسل ؟

— مغسولة يا سيدى !

— أغسلتموها بالصابون ؟

فابتسم الخادم وقال : بالماء فقط .

وصاح الأستاذ رجائي ، وهو يتناول كثرية :

ماذا ؟ هل تريد أن يغسلوا الفاكهة بالصابون ؟ ... لأنها ليست

مناديل أو جوارب ...

وأخذ يقطع الكثرية ويلتهم قطعها . فقال ، الدكتور ، :

أنسيت أن ، التيفوئيد ، منتشر الآن ؟

— أىّ ، تيفوئيد ، ؟ ... دحك من هذا الكلام !

وأخذ الدكتور فيهم ، صحيفة الفاكهة ، وطلب إلى الخادم فى

تأكيد أن يغسلها بالصابون جيداً ، ثم التفت إلينا يقول :

إن واجبي يحتم عليّ أن أفعل ما فعلت .

فصاحت والدتي : ستؤخرنا عن الرقصة يا دكتور ،

وأتمّ الأستاذ رجائي ، قولها :

إنه حقاً يؤخرنا عن الرقصة بهذه الفلسفة الطيبة ... أظن أن

الدكتور ، يرغب في أن يحاضرنا الليلة في أضرار البكتريا ، ... لسنا

في عيادة أو معمل أبحاث ... نحن في مطعم ومركز ...

ثم اندفع يضحك بصوت جهوري لفت إليه الأنظار ...

وخففت والدتي إلى حلقة الرقص بعد أن أفرغت في فيها كأساً من

الشراب ، فاقنني أثرها الأستاذ رجائي ، ووجدته قد تعثر في

مشيته ، وكاد يسقط ، فانطلقت من ضحكة كتمتها بمنديلي ، ورأيت

الدكتور ، يتبسم

وجاء الخادم بالفاكهة المغسولة فاختر ، الدكتور ، أطيّب ما فيها ،

وقدّمه إليّ ، فشكرت له ، وشرعت أقشر وآكل .

وساد بيننا الصمت ، وتلاقت عيوننا مرتين ، فتبادلنا الابتسام .

وكنّت أحسّ بشعور من الغبطة ينبعث من أعماق قلبي فيشيع بين حناياي

وسمعت ، الدكتور ، يقول : لا تنسى أن تغسلي الفاكهة دائماً قبل أكلها .

فابتسمتُ وقلت : سأفعل !

— أتؤمنين بما أقول ؟

— دون شك .

— ولكن صاحبنا الأستاذ رجائي ، لا يقيم وزناً لنصائحي ،

— لأنه على غير حق ، ويدهشني أن يتفوه بأقواله تلك وهو محام كبير .

— من قال لك إنه محام كبير ؟ !
— لا أحد . أنا التي أقول ذلك !
فضحك ضحكة لطيفة ، جاذبة لها في ابتهاج . ورأينا الأستاذ
« رجائي » مقبلاً وحده . وكان يمسح وجهه بهنديله . ولحنا نضحك
فوقف قبالتنا صامتاً يتطلع ، ثم قال « للدكتور فهم » :
ألا تأخذ كأس « درية هانم » وتذهب بها إليها ؟
— أنا ؟ لماذا ؟

— لأنها تريد أن تشرب ...
— وليكنها كلفتك أنت إحضار الكأس ... أليس كذلك ؟
— لست أنت لطيفاً يا « دكتور فهم » ... سأشكوك إليها حتماً .
ثم دنا مني وهو لا يتمالك ، وقال مبتسماً :
ليس « الدكتور فهم » لطيفاً معي ... ألا تريسه كذلك ... !
— لا أدري !
— إنني أحتج على بقاءه دائماً بجوارك ، لم يترك لي فرصة أستمتع
فيها بجديتك العذب ...

وسمعت « الدكتور » يقول :
« درية هانم » تطلب الكأس ، وأراك تتباطأ ... !
فلم أعيره الأستاذ « رجائي » التفاتاً ، وقال موجهاً حديثه إليّ :
أقسم بالله إنه ليس في هذا البهو الطويل العريض إلا خيراً بالحسان
الفاقتات من هي أشد سحراً وأوفر حسناً ورشاقة منك يا « سلوى هانم » ،
أقسم بالله إنك ملكة الجمال في هذا المكان ، بل ملكة ...
ووقف « الدكتور فهم » ، وأمسك بذراع الأستاذ « رجائي » ،

وقال له جازدا : دع ، سلوى ، وشأنها ، واذهب بالكأس كما أمرتك
« درية هانم » .

فرماه الأستاذ « رجائي » بنظرة حادة ، وقال :
لم أحضرك معنا لتجالس « سلوى » وتؤانسها . لقد تجاوزت الحد
ولم يفضّ النزاع إلا عودة أمي . ولكنها لم تنكر من أمرنا شيئاً ،
فقد استطاع « الدكتور » بلباقته وسرعة خاطره أن يحيل الحديث
فكاهةً ودعابة ...

ولم نمكث بعد ذلك إلا قليلاً من الوقت ، ونهضنا معتمزين مغادرة
المطعم ، فلما جاء الخادم ليأخذ ثمن العشاء ، أخرج الأستاذ « رجائي »
محفظته نقوده ، وشرع يقلّب فيها طويلاً ... ولمحت الخادم يبتسم .
ولكن سرعان ما وجدت « الدكتور فهم » يؤدّي له حساب الطعام في
صمت وهدوء .

وحسبنا الخطأ إلى الباب ، على حين كان الأستاذ « رجائي » يؤخذ
« الدكتور فهم » ويكرّر عتابه عليه في تقدّمه لدفع الحساب .
ولما بلغنا سيارة الأستاذ « رجائي » دخلت أمي فدخلنا في أمرها ،
ثم رأيت « الدكتور فهم » قد أسرع يجلس في مكان القيادة ، فرمقه
الأستاذ « رجائي » بنظرة نكراء ، وقال : ماذا تعنى ؟
فابتسم « الدكتور » ، وقال :

ألا تريد أن أجرة بـ سيارتك الجديدة ... ؟

ثم التفت إلى وقال : تعالى يا آنسة واجلسي بجانبى . الأستاذ
« رجائي » يفضل أن يأخذ مجلسه في الخلف .

فخلق فيه الأستاذ قائلاً : ما معنى هذا ؟ ألا تترك لي مكان القيادة ؟

فقال الدكتور فهم ، فى جدّ : لا ، لن أتركه لك . أريد أن
ترجعوا فى أمان وسلام ، إلى أعدّ نفسى مسئولاً عنكم .

ومدّ ذراعه ودفع بالأستاذ رجائى ، داخل السيارة ، وأشار
إلى أن أنتقل لأجلّس بجوار مقعد القيادة ، ففعلتُ على الأثر ، والتفت
إلى أمى يقول : أين المنزل يا هانم ؟

فذكرت له أمى عنوانَ المنزل ، ووجدتها بعد لحظة قد اندفعت .
تقرّع الأستاذ رجائى ، وتكّيل له ضروبَ التهم . وانقضى
الوقتُ وهما مسترسلان فى جدال ومهارة وتصايح ...

أما الدكتور فهم ، فكان يبادلنى النظرات مبتسماً ، ويلطف
يدى فى صمت .

وعند وصولنا ترك مكانه ، وساعدنى على النزول ، وقبل يدى .
قبلة رقيقة ...

وفي صبيحة غد استيقظت مبكرة ، وأخذت أعرض ما وقع لي من أحداث الليل .

وكانت مشاهد الرقص تتراءى لعيني . وفكرت فيما قالته أمي من أني لا أحسن الرقص ، وسألت نفسي : ماذا كان يجري لو كنت أحسنه ، وطلب الدكتور « فهم » أن يراقصني ؟ وتمثلت لي على الفور صورتنا « مسيو فوكيه » وزوجه صاحب « مدرسة العائلة السعيدة » المدرسة التي تعلمت فيها مبادئ الفرنسية والغناء والرقص ، وجعلت أحدث نفسي :

من هو المسئول عن جهلي للرقص ؟

وبعد حين سمعت « أم يونس » تقول :

صباح الخير . لعل الزهرة كانت طيبة .

— طيبة جداً يا « أم يونس » !

وقفزت من السرير ، ثم احتضنتها وأنا أقول : « سيناء » ... « مطعم » ...

رقص ... موسيقى ... متعة حلوة ... كان معنا « الدكتور فهم » !

— « الدكتور فهم » ! !

— « الدكتور فهم » ، صديق الأستاذ « رجائي » ، الحامي . شاب

مؤدب ، وهو ماهر جداً في فنه ؛ إنه حتم علينا ألا نأكل الفاكهة إلا

إذا كانت مغسولة بالصابون !

— بالصابون ؟ !

— خوفاً من « البكتريا » ... إن « التيفويد » الآن منتشر في

«مصر» ، و«الدكتور فهم» يكافحه بشدة ... إنه عالم أيضاً ، وهو يخطب
أمام العظماء خطباً جليلاً . ولكن الذى أضحكنى غاية الضحك هو
الاستاذ «رجائى» !

— ماذا جرى له ؟

— لقد زللت قدمه ، وسقط فى حلقة الرقص وسط الناس !

— يا للنائبة !

— كان منظره مضحكا ... مضحكا جداً !

واندفعت «أضحك» ، و«أم يونس» تشاركنى فى ضحكى ؛ ثم تابعت قولى :

هل استيقظت أمى ؟

— ما برحت نائمة .

فلت عليها وهمست فى أذنها :

لقد اشتبكت مع الاستاذ «رجائى» فى مشاحنة صاخبة .

— أمام الناس ؟

— بل فى السيارة ... هذا سرّ بينى وبينك !

— سرّك محفوظ فى برّ ... لا تخشى شيئاً !

— واستيقظت أمى قبيل الظهر . وبعد أن فرغت من فطورها

استدعتنى ، فذهبت إليها ، وكانت على مألوف عادتها ، دتة على مقعدها الفسيح ،

واللهافة فى يدها ، فقبلتها ، وجلست على كرسى بالقرب منها ، فبادرتى بقولها :

هل أعدت الأشياء التى استعرتها من «الست فتحية» ؟

— ستأخذها «أم يونس» ، إليها بعد الغداء .

— كان من الواجب أن ترسلوها فى الصباح ... لا أدري بأى وجه

أقابل هذه المرأة ... ماذا تقول عنا ؟ شحاذون ؟ !
— هو "نى عليك يا أمى . الأمر لا يستدعى كل هذا . إن الجيران
يتبادلون الأشياء ، ويستعير بعضهم من بعض ...
هذا يكون بين جيران الأحياء البلدية ، أما في الطبقة الراقية
فلا ... لا بد أن الدكتور فهم ، أطرى فيك الوردة والحزام ،
ولكن مع الأسف لم تحظى منه بأكثر من كلام !
— لم تجر على لسان الدكتور فهم ، كلمة في هذا الشأن .
فابتسمت ابتسامة صفراء وقالت : إذن أطرى أشياء أخرى ...
لا بد أنه قال لك : إنك بارعة الحسن ، وإن حديثك كالشهد ...
ولكن اسمى ، لا تصدق هذه الأقوال ... إن الرجال أمهم "تخلق"
الله في صناعة الكذب !

— ولكن الدكتور فهم ، لم يقل شيئاً من ذلك أيضاً !
— أظنك تريد أن تؤمىنى أن الدكتور فهم « كان يلق
عليك خطبة في طب المناطق الحساسة ! ... ولذلك كتبنا مبهجين
أشدّ الابتهاج ! ...
— كان يتحدث الأحاديث المألوفة ...

— ولماذا تريد أن إخفاء هذه الأحاديث المألوفة عنى ؟
— أى حديث أخفيه ؟
— احتفظنى بأسرارك . إنى فى غنى عنها ... ولكن أقول لك
الحق : إن هذا الدكتور شديد الكبرياء والتعصب . يظن أنه لا أحد
مثله فى علمه وإيمانه !
— إنه شخص مؤثب رزين ...

— صدقت ... مؤدب رزين كقالب الثلج !
فنهضت وأنا أقول : أظنك لست في حاجة إلى الآن !
— معذرة إذا كنت قد أثرت غضبك . ولكن أنسيت أني
صاحبة الفضل فيما نعمت به من تفرج ؟ ... أنت دائماً منكرة
للجميل ...

فعدت يدي على صدري وقلت : بل لاني معترفة لك بكل شيء !
— يجب أن تعلمي أنني أردت باصطحابك معي هذه الليلة أن
أعوض ذلك الظهور في مثل هذه المحافل الراقية لكي تتعري في الأكوام اللاتقيا .
— أشكر لك يا أمي .

— لاني أعدك لتسكوني فتاة عصرية من فتيات الطبقة العالية ،
ولكنك لا تريد أن تفهميني ...

ولم تتناول أمي الغذاء في المنزل بحجة أن لديها أعمالاً مهمة تريد
الخروج من أجلها .

وفي نحو الساعة الرابعة بعد الظهر ، بينما كنت في الردهة العليا ،
مشغولة بإصلاح بعض ملابس ، إذ دق جرس الباب ، وكانت أم
يونس ، هي التي تذهب دائماً لتفتحه . ولكنني وجدتني أسارع إلى
النزول ، فما إن فتحت الباب حتى وقفت مأخوذة ...

كان القادم « الدكتور داود فهم » !
وبادرني بقوله وهو يتسم في تأدب : لم تتوقعي أن أحضر ...
ولم أملك أن أخفي حيرتي وارتباك ، فقلت :
حقاً ... مطلقاً ... ولكن تفضل ...
وظهرت « أم يونس » بوجهها المهزول ، وجسمها الالهيف ، وعينها

المتفحصة ، وهى تسير فى تودة ، فقلت لها :
« الدكتور دأرد فهم ، الذى كان معنا أمس ...
فقلت « أم يونس ، وهى تحدد فى « الدكتور ، :
حضرتك تريد لقاء « الست » الكبيرة ؟
فقال لها فى هدوء ولطف حسبى لقاء « سلوى هاتم » ...
— قصدى أن أقول إن « الست » الكبيرة خرجت ...
— لا بأس ... لقد جئت فى زيارة قصيرة لا تستغرق أكثر من
بضع دقائق ...

فتقدمت إلى حجرة الزوار وقلت له :
تفضل « يادكتور » ... تفضل ...
وفتحت باب الحجرة ، فقال : يمكننى إنجاز الموضوع الذى جئت
من أجله وأنا واقف هنا إذا أردت ...
فقلت « أم يونس ، موجهةً كلامها إلى : الدكتور متعجل ...
فقلت لها فى صلابة : اذهبي فأحضري القهوة ...
فمنظرت إلى فى صمت ثم انصرفت عنا وهى تجر قدميها متثاقلة ..
فلما احتوتنى أنا و « الدكتور فهم » حجرة الزوار ، أخرج من جيبه
منديلاً صغيراً ، وقال :

هو منديلك . أليس كذلك ؟ لقد رأيت عليه حرف «س» مطرزاً
فتناولت المنديل ، وسرعان ما عرفته ، فقلت :
حقاً إنه منديلى ... أين وجدته ؟
— وقع بصرى عليه فى السيارة اتفاقاً ، فهممت أن أعود به إليك
قبل إيابى إلى منزلى ... ولكن الوقت لم يكن ملائماً ...

ورأيتك يدق أمامه ، وهو يقول : إني معتبطٌ بعثورى على هذا
المنديل ، فقد أتاح لى فرصة زيارتك !
فتشاغلْتُ بالمنديل أبسطه وأطويه ، ولم أتكلم .
وامتدَّ الصمتُ بيننا هنيئةً ، ثم سمعته يقول :
كيف أمضيت بقية الليل ؟ أكان نومك طيباً ؟
— نعم ... وقد استيقظت مبكرة ...
— تستيقظين مبكرة ، مع أن السهرة امتدت بنا إلى
ساعة متأخرة !

— إني مهما أسهر لا أتأخر فى يقظتى ...
— جميل جداً ... وهل تسهرين فى ليال كثيرة ؟
— أسهر أحياناً ... ولكن لا كسهرة الليلة !
— أظنك تسهرين فى منازل صويحاتك وجيرانك ...
— كلا .. بل هنا فى المنزل ، أفصل ثيابى وأخيطها ...
— حسن ... إذا أنت التى فصلت هذا الثوب الذى تلبسينه
الآن ، وأنت التى خلطته ...
— الأمر كما تقول ... واسكنه ليس بشوب ممتاز ... إنه جلاباب
منزلى ساذج ، وهو فوق ذلك قديم ...
— إن فى سذاجته سرٌّ جماله !
— الحق أن ظهورى به أمامك يخجلنى ... كان على أن ...
— إن كان لومٌ فهو على ... لاني فاجأتك بزيارتى على
غير موعد !

ودخلت « أم يونس » حاملة صينية القهوة ، فتناول « الدكتور »

فنجائنةً وشرب منها جرعة... ووجدت المرأة واقفةً لا تبرح ، فقلت لها :
امضى الآن يا د أم يونس ، ... وسأعود حين يفرغ د الدكتور ،
من شرب قهوته ...

فرمقتنى د أم يونس ، بنظرة إنكار ، والتفتت إلى د الدكتور ، ترمقه
بمثل هذه النظرة ، ثم خرجت صامتة ...

فابتسم د الدكتور فهم ، وهو يقول : إنها امرأة سليمة الطوية .
— ولكنها تضايقتني جدًّا المضايقة .
— كيف ؟

— لأنها تتدخل دائماً فيما لا يعنيتها ، وتضع نفسها في منزلة فوق
منزلتها الحقبة .

— يظهر أنها تخدم في المنزل من زمن بعيد .
— إنى أراها منذ نشأى .
— هى حاضنتك إذاً .

— لأنها تشبه أن تكون كذلك ... ولقد كان المرحوم جدى يعول
عليها فى كل شئ .

— المرحوم جدك ؟

— كنت أقيم معه فى الإسكندرية ، فلما توفى انتقلت إلى
القاهرة ، مقر والدتى ...

— هل أقمت فى الإسكندرية ، مدة طويلة ؟
— حتى العاشرة من عمرى ...

— ووالدك ؟

— لم أزه ...

ووجدتني مندفعة أقصّ عليه تاريخ حياتي ، وكيف قضيت النشأة الأولى في كنف جدّي ، وكيف أعيش اليوم مع والدتي ، ورأيتني أفضي إليه ببعض أسرارني في غير كلّفة ، وفي تحمّس وحميّة ... وأذكر أن عينيّ كثيراً ما غرورقت بالدموع وأنا أروي لحكايتي ، فكان في الفسّينة بعد الفينة يدّ يده إليّ ، ويتناول يدي يلاطفها في حنوّ بالغ ، ويقول وهو يرنو إليّ في إشفاق :

لا تيأسى ... تشجّعي ... إن الدنيا مستبسم لك لا محالة !
وجدتُ « أم يونس » تقتمهم علينا الهجرة ، فصحتُ وأنا نائمة غصبي : ماذا تريدن ؟
فأجابتنى بوجه مستجّبهن : جئت أخذ فنجانة القهوة .
— خذها .

وجعلت المرأة تتوانى في أخذ الفنجانة ، على حين كان « الدكتور » ينظر إليها مبتسماً ، ثم ألفتيته ينهض قائلاً : يظهر أني قد أطلت زيارتي ...
— كلا ...

وهمهمت « أم يونس » في جمالة متكلفة : لقد شرّفت وآنست .
ثم انصرفت في تلكو شديد ، ووقف « الدكتور فهم » قبالي يتوسّني في تودد ظاهر ، وقال :
اشكرك حسن لقائك إياي ، وأؤمل أن تتاح لي رؤيتك .
ولكن لا أدري متى تسنّح الفرصة ، ولا سيّما أني مقبل على سفر ...
— سفر ؟

— سأرحل إلى « إنجلترا » للتخصّص في طبّ المناطق الحارّة ...
— متى ؟

— بعد أسبوع ... بعد شهر ... بعد سنة ... إلى منتظر صدور
الأمر من الوزارة !

ففسخشنا الصمت معاً ، ثم رأيت يده لمصافتي ، فددت إليه
يدى ، فقال وهو يمسك بها : ثقي أنى لن أنسى هذا اللقاء ... لن أنسى
ما شعرت به من مسرة واثتناس !

خففت من بصرى ، ووجدته يرفع يدي إلى فمه ، ويلثمها لثمة طويلة
حارة . فاختلج قلبي ، وسمعته يقول : أسمحين لي بمراسلتك إذا رحلت ؟
فرفعت عيني إليه أقول : كما تشاء .

— سأوافيك من أخبارى بما تجددين فيه بعض التسلية ، وأنتظر
منك — لقاء ذلك — أن توافيني ببعض أخبارك ...

— وهل تطول غيبتك ؟

— لا أعلم على الوجه التحقيق ... قد تكون الغيبة بضعة أشهر ...
ودنا منى أكثر من ذى قبل ، وقال لى :

ثقي بأن لك صديقاً مخلصاً تملأ نفسه الرغبة فى إسعادك ...

وتذكرت فى هذه اللحظة جملة « حمدى » التى ألقاها على مسمعى فى
جلستنا الأخيرة ، إذ قال : « ألا تثقين بإخلاص شخص مثلى ؟ » .

ولكن سرعان ما تزايد شبحه الضامر الأعرج من حىيلى ...
ووجدتنى أدنو من « الدكتور فهم » وأنا أهمهم :

أشكر لك يا « دكتور » ... أشكر لك من أعماق قلبي ...

ودق جرس الباب فى هذه اللحظة ، فتركنا حجرة الزوار إلى الردهة ،
فاذا « بأم يونس » تفتح الباب للطارق . ودخلت أُمى ، فإلن لمحتاحتى
صاحت وعلى فها ابتسامة مختصة : « الدكتور فهم » ... « بونجور »

— « بنجور ، يا هانم ... لقد وجدت منديل « سلوى هانم »
في السيارة أثناء عودتنا في الليل فجئت الآن به ... يؤسفني أني لم أسعد
بوجودك حين حضرت .

— أشكر لك ... أشكر لك .

— والآن ... أسمحين لي بالخروج ؟

— ولم العجلة ؟

— على أن أمضى لبعض العيادات الضرورية .

ثم صاغت وانصرف ... وسألت والدتي « أم يونس » :

ماذا أمضيت من الوقت هنا حضرة « الدكتور » ؟

فأخذت تدعك يديها ، وتقول : بضعة دقائق ، لا أكثر ... !

— بل قولي نصف ساعة ، أو قولي ساعة كاملة ... !

— ساعة ؟ لا والله العظيم !

والتفتت إلى والدتي وقالت : وهل بقيتيا وحدكما ؟

— نعم .

فنظرت والدتي إلى « أم يونس » وصاحت بها قائلة :

يقع ذلك وأنت في المنزل ؟؟

فقلت على الفور : وماذا في ذلك ؟

فرفعت أمتي صوتها محتاجة تقول : لا شيء ... لا شيء ... « الدكتور »

المتعجل الذي لديه عيادات ضرورية ، يأتي لإحضار منديل لك ، فيمكنك

معك ساعة في حجرة واحدة ، وأنتا مختليان !

فلم أعبر كلامها أي اهتمام ، وتركها تتصايح . وسرت متمهلة الخطو

أقصد إلى حجرتي ...

مر أسبوع لم يصل إلى فيه أى نبأ يتعلق بالدكتور فهم ، ففالتسنى
 حيرة ممضّة ، وهاجنى قلق وضيق ، ولم أعد أكثر لشؤون المنزل ...
 أفضى يومى مكلةً أروح وأجىء ، أو أجلس إلى النافذة شاردة النظر
 وإذا اشتدّ الضيق والملال قصدت إلى خيوان الزينة وجعلت أصف
 شعرى وأتعطّر ...

ودخلت أمى مرة حجرق ، فرأتى أترين ، فقالت :
 اسمعى « ياساوى » إنها آخر مرة أحذرك فيها أن تأخذى شيئاً من
 أدوات زينقى ... أسامعة أنت ؟ هذه هى المرة الأخيرة ... سأغلق
 باب حجرق بالمفتاح ، فلا أدعك تدخلينها ...

فلم أجب ، وتابع زينقى ... أما باب حجرتها فقد عهدته منذ
 وطئت قدمى هذا المنزل بلا مفتاح ، ولا أدرى ما الذى يمنعها من
 طلب النجار لإعداد مفتاح له ، ما دامت كثيرة الشكوى منى ومن
 « أم يونس » لاقتحامنا حجرتها فى مغيها ... وما لبثت أمى أن
 اعتدلت فى وقفستها ، ووضعت يدها فى خصرتها ، وقالت وهى ناظرة إلى :
 حقاً ليس هناك من يضارحك جمالا ...

فظللت صامتة ، وأنا متشاعلة بزىلقى ، وسمعتها تقول :
 نسيت أن أخبرك بشئ ... شئ قد يهمك .
 فنظرت إليها فى غير مبالاة ، متوقعة أن تدلى إلى بهذا الخبر الذى
 زعمته مهماً عندى ، وتوهمته غريباً على ... فقالت :

د الدكتور داود فهم ، سافر ...
— د الدكتور داود فهم ، ؟
— الحمد لله ... لقد انفكت عقدة لسانك ... إنه سافر إلى «أوروبا»
دون أن يفكر في توديعنا ... أقصد توديعك !
— توديعي أنا ؟
— نعم ، أنت !
— ولم يأت لتوديعي ؟
— أليستما صديقتين ؟
— أرجو منك يا أمي أن تفضي هذا المزاح .. ولكن من
أخبرك بسفره ؟
— الأستاذ د رجائي ، ... وقد ودّعه على ظهر الباخرة ...
— ومتى سافر ؟
— لقد أصبحت ثرثرة ... سافر منذ أيام .
ووقفت ساهمة ، وسمعت أمي تقول :
أنصح لك ألا تضيعي وقتك دائماً أمام المرأة !
وخرجت وهي تضحك ساخرة ...
فقدفت بالمشط الذي كان في يدي ، ثم قصدت إلى النافذة واستندت
إلى حافتها ، ورحت في تفكير مضطرب !
وفي غد جاءني «الدادة شيرين» من قبَل «سنية» تدعوني لزيارتها ،
فأمضيت اليوم على مألوف عاداتي معها ... ولاحظت على «سنية»
صمتي وسهرمي ، فذكرت لها أنني أشعر بتعب ... وقد هممت غير مرة
بأن أروي لها حديث «السينما» وسهرة المرقص وزيارة الدكتور فهم ،

ولكنى لأمر ما لم أنبس بحرف ...
وفي اليوم التالى كنت فى حجرى بعد الفراغ من تناول الغداء ،
فسمعت جرس الباب يدق ، فهرعت لأفتحه . وكان الطارق الأستاذ
« رجائى المحامى » ، فما إن رآنى حتى تهلل وجهه ، وقال :
أهلاً وسهلاً « سلوى هائم » ... كيف أنت ؟
— بخير والحمد لله !
— لى مسرور جداً برؤيتك ...
ودخل الردهة وهو يقول :
كل يوم تزدادين بهاء ... ما شاء الله !
وجلس على أحد المقاعد ، ووضع ساقاً على ساق ، وتابع حديثه :
أظن أن والدتك ليست هنا ...
— خرجت قبل الظهر .
فقال وهو يتلاعب بسلسلة ساعته :
إن الوقت ليس وقت زيارة حقاً ... ولكنى كنت أجوز بهذه
الناحية اتفاقاً ، فرأيت من واجبى أن أعرج على البيت زائراً ...
وكنت أسائل نفسى ، وأنا أختلس إليه النظر :
كيف راقى هذا الرجل حين وقعت عيني عليه أول مرة ؟
وشعرت بأنى تسرعت فى الذهاب لفتح الباب ، وكان جديراً بى
أن أدع ذلك « لأم يونس » ... ولكنى تذكرت أنها خرجت بعد
الغداء لإنجاز بعض الشئون ... ومرت بخاطرى حديث والدق عن سفر
« الدكتور فهم » ، فنظرت إلى الأستاذ « رجائى » منتظرة أن يفضى
إلى بشىء ... وسمعته يقول: لقد أخبرتك قبلاً أن متاجر الإسكندرية ،

تفوق في بضائعها متاجر « القاهرة » ...

وصمت لحظة، ثم دنا مني، وهمس في أذني قائلاً: إن صديقك لم ينسك!

فاعترقني هزة، وتمتمت: صديقي؟

ورفعت ل إليه بصرى، متطلعة متشوقة، أتوقع أن يحدثني في

شأن « الدكتور فهم »، فوجدته يخرج من جيبه علبة صغيرة، ثم يقدمها

إليّ وهو يقول: لقد قلت لنفسى لا يليق بى أن أعود إلى « القاهرة »

دون أن أجلب معى هدية بسيطة لصغيرتى « سالى » ...

وخبت اللمعة التي أضاءت عيني؛ وساءلت نفسي: لماذا اختارت

« أم يونس »، هذا الوقت تخرج فيه، فأكون وحدى مع هذا الرجل؟

ورأيت الأستاذ ورجائى، يفتح العلبة، ويخرج منها غاشما، وقد

أمسك يدي، فوجدتني أجذبها إلىّ، فأمسك بها ثانياً، وهو يحاول

وضع الخاتم في أصبعى، فقلت له: كلا ... كلا ... أشكر لك!

— ماذا؟

— أشكر لك ... أشكر لك!

— لعل الخاتم لم يعجبك.

— إنه جميل جداً ... ولكن ...

— ولكن؟ ... ماذا؟ ...

— أمى ... قد لا يروقها قبولي إياه!

— ولم؟ إنه هدية من صديق يقدركما ويضمر لكما كل

إعزاز واحترام ...

ثم انحني علىّ، وقال مبتسماً:

ومع ذلك ليس من الجثم أن تعرف والدتك شيئاً ...

واستطاع أن يضع الخاتم في إصبعي ، على تمسح مني ، ثم حلق في يدي وهو يقول : إن الخاتم قد عظمت قيمته ... إنه قد ازداد تألقاً في هذه اليد الكريمة !

وأراد أن يرفع يدي إلى فمه ، فسمع حركة الباب ، فتوقف ... وفي هذه اللحظة دخلت « أم يونس » ، حاملة وعاء ، وكانت تحمل ملاءتها المتساقطة عن منكبيها ، وتحدث نفسها قائلة :

العياذ بالله ... ليس هناك أثر للرحمة في قلوب الناس ... لقد أصبح التجار لصوصاً ملعونين !

ووقع نظرها على " ، فقالت :

أأنت هنا ؟ أتصدقين أنهم لا يريدون بيع رطل السمن بأقل من خمسة وعشرين قرشاً ، مع أنني اشتريته منذ أيام به ... ولحقت الأستاذ « رجائي » في مقعده ، فأمسكت عن الكلام ، وأخذت

تدقق النظر فيه ، وتقول : ومن هذا ؟

فقال الرجل : أنا « رجائي بك » .

فقالت له في مجاهرة : « الست » الكبيرة خرجت .

— أعلم ذلك ... بلغنيها سلامي .

وخطا يخرج ، وهو يحيني تحية رقيقة ، فوجدتني أحجبه حتى

الباب ... فالتفت إليّ قائلاً : لا تشقّي على نفسك ...

ثم رأيت يهيمس في أذني :

أليست بك رغبة في الذهاب إلى « السينما » مرة أخرى ؟

فأجبت ساهمة : « السينما » ؟ ...

— هناك « أفلام » عظيمة في هذا الأسبوع ...

— أشكر لك ... ولكن أخبرني ؟

— ماذا ؟

وتوقفت عن الكلام هنيهة ، وأنا أدعك منديلى فى يدى .

ثم قلت فى تلعم : « الدكتور فهم » ... هل سافر ؟

فحدثنى الأستاذ « رجائى » لحظة ، وهو صامت ، ثم قال :

نعم سافر ... لقد ودعته على ظهر الباخرة ...

ثم انحنى على ، وقال خافض الصوت :

سأختار لك « فلان » راعماً فى هذا الأسبوع ... كوفى على يقين من .

أنى حريص على إيهانك وإسعادك على الدوام !

وفى لمح البصر وجدتهنى أنزع الخاتم من إصبعى ، وأعيده إلى علبته ،

وما هى إلا أن ناولته إياها ، فنظر إلى مبهوتاً ، فتراجعت بسرعة

أفقل وراه الباب ...

وما إن خطواتى فى الردهة خطوتين ، حتى واجهتنى « أم يونس » .

وسمعتها تقول :

أتريدين أن تسمعنى أمك شتائمها هذه المرة أيضاً ؟

فصحت بها : أتوكينى وشائى ... لا تزججنى بكلام فارغ !

وصعدت إلى حجرى ، وأنا أشعر بالنار تتأجج فى رأسى

وتصرّمت الأيام ، وسألت عن الساعة التى يأتى فيها ساعى البريد
إلى الحارة ، وأخذت أرقب مقدّمه من نافذة حجرتى ، وكلما لمحتة
أتياً تتدلى على جنبه محفظته المنتفخة المفتوحة تسكاد تساقط منها حزم
الرسائل ، أرانى قد تطلعت إليه ، وأشعر بقلبى يزداد خفوقه ، فيمر
بمنزلنا لا يلوى عليه ، وهو يمسح وجهه المسكود ، فينالنى أسف بمضّ ،
وأحسّ بنفسى أحقد على ذلك الساعى الديمى ... ثم أغلق النافذة فى
عنف ، وأطرح نفسى على السرير ساهمةً أفكر ...

وبينما أنا على هذه الحال ذات يوم تذكرت جملة أمى :

« إن الرجال أمهر خلق الله فى صناعة الكذب ! »

فانفرجت شفتاى فى حسرة ، وأسابت جفنى ، واليأس يتسكّل

إلى قلبى !

أما الأستاذ « رجائى » فلم أعد أرى له ظلاً ... على أنى دخلت مرة
على أمى لأحييها تحية الصباح ، فلفت نظرى على الفور خاتم فى إصبعها ،
وكان هو الخاتم الذى أراد الأستاذ « رجائى » إهداءه لى ، فأبيت
قبوله ... ورحمت أدق النظر فى الخاتم ، فقالت أمى :

لأنه خاتم لطيف ، اشتريته منذ أيام قليلة من محلّ « زهّار » ...

فحدقت فيها وأنا أقول : حقاً . لأنه خاتم لطيف ... مبارك !

وفى ذلك اليوم جاءتنى « الدادة شيرين » تدعونى أن أزور « سنية » ،

فذهبت إليها ، وتلقّستنى صديقتى بالبواب ، وبالغت فى الترحيب بى ،

كشأنها معي ، وطفقتُ تغمرني بقبلاتها التي لا ينضب لها معين ...
ولما دخلنا البهو ، رأيت فيه «حمدي».. فقالت «سنية» وهي تضحك :
لقد تفضّل اليوم بزيارتى !
وسمعتة يخمخ : العفو ... العفو ...

وتقدم منى يصاحنى وهو صامت خافض البصر ، فإذا هو قد تقوّس ظهره ، وازداد سقماً ونحافة . فقلت له فى إشفاق : لقد طال غيبتك !
— إن مشاغل الحياة كثيرة ، و ...

فقاطعته بقولى :

خلّ عنك ! ... إن مشاغل الحياة لا تعوقك عن زيارة الأصدقاء !
خفا رأسه ، وأخذ يدعك يديه ، وقال : أؤكدك أؤكدك ...
ولم يزد . فضت بنا «سنية» إلى حجرة الزوّار ، وخرجت تطلب لنا شراب الليمون ... وشاع الصمت بينى وبين «حمدي» وقتاً ، وكانت تبدو عليه علائم الحيرة والقلق ، على الرغم مما كان يتظاهر به من الهدوء وطالما شعرت بأنه يرغب فى فضّ هذا الصمت الموصول ، فيخونه الإفصاح ... وأخيراً قلت له : إننى عاتبة عليك أشد عتاب ...

فرفع إلى بصره الزائغ ، وقال : تعبتين علىّ ؟ لماذا ؟

— أتذكر قولك فى آخر لقاء لنا ؟

— أذكر كلّ شيء !

— ولكنك لم تفعل شيئاً ...

فطأطأ رأسه ، وقال فى سهوم :

وماذا يستطيع شابٌ محطّم مثلى أن يقدمه لك ؟ !

— لقد قلت لى : إن المرء إذا أخلص النية وامتلأ قلبه بالإيمان

استطاع أن يفعل كثيراً ...

فانطلق يدعك يديه بشدة ، وهو يقول :

يظهر أن إخلاص النية والإيمان ميعوزهما شيء آخر ...

— وما هو هذا الشيء الآخر ؟

فتلفت حوالتيه زائغ البصر ، وقال في حسرة :

أنا فتى محطم ... منكود الحظ ... لا فائدة ترجسى من مثلى !

— وأنا ... هل أنا إلا محطمة منكودة الحظ مثلك ؟

فتطلع إلى بعينه الحائرة ، وقال : هذا شيء مؤلم ... مؤلم جداً

الإيلام ... أخبريني ما الذى يجب على أن أفعله من أجلك ؟

فقلت خافضة البصر ساهمة : لا شيء ... لا شيء ...

فدنا منى ، وقد بدا عليه شيء من التحمس ، وقال :

يجب أن أراك ... يجب أن تفضضى إلى بمتاعبك كلها ... يجمّل

أن أتحدث إليك طويلاً فيما يجب عليك أن تعمل به ... قد أستطيع أن

أقول لك شيئاً تجدين فيه نفعاً .

— إنى أثق بك يا دحمى ، ... أنت صديق مخلص .

— أسمحين أزورك ؟

— ولم لا ؟ هذا شيء يسرنى !

— يسرك حقاً ؟

— وكيف لا يسرنى ؟

فنظر إلى فى يقظة ، وعيناه متالفتان ، ولم يلبث أن قال :

مضى أستطيع أن أزورك ؟

— فى أى وقت تشاء !

— ألا تضربين لى موعدا ؟

— تعالَ غداً .

— غدا ... أجادة أنت ؟

— كل الجدد ...

— فى أية ساعة ؟

— فى السادسة

— سأحضر .

— لا تنسَ أن تحضر معك صَفَّارتك ...

— صفارتى ؟ ... أما زلتِ تذكريها ؟

— وهل نسمى صفارة « حمدى » ؟

— صفارة الطفرلة ...

— سنمضى وقتاً طيباً .

— بلا شك ...

ووجدت وجهه قد تورَّدَ بشراً وأنساً ، ومال علىَّ يقول :

سأسمعك مقطوعات جديدة من تأليفى .

— جميل جداً .

ودخلت علينا « سنية » فى هذه اللحظة بشراب الليمون ...

فصمتنا . . . ولم نخبرها بشئ . . ولما صاحفنا « حمدى » مستأذناً ،

ضغطت يده ضغطةً خاصَّةً ، فأجابنى بابتسامة !

وفى غدى أعددت العدة لاستقبال « حمدى » فنظفت حجرتى

ورتبته ، وارتديت ثوباً غير ثوب البيت ، وبدوت متعطرة حسنة

الهنئام . . . ورغبت لى « أم يونس » فى أن تطيبَّ القلـل

بالبحر ، وتعدّ شراب الليمون...

وحلت الساعة السادسة ، فكثتُ أنتظر في الردهة بجوار الباب .
وانقضى ربع ساعة ، فتململت في جلستي ، وخرجت أتطلع إلى الطريق .
ولكنه كان مقفراً صامتاً كما هو شأنه ، فدخلت الردهة ثانياً ، وطفقت
أغدو وأروح ... ونظرت إلى ساعتى ، فإذا بالوقت منتصف الساعة .

فصحت « بأم يونس » : كم الساعة الآن ؟

فأجابتنى من أعماق المطبخ : ستة ونصف يا بنقى .

— ساعتك مختلفة... مختلفة... !

وعدت إلى الباب أنتظر بجواره ... ماذا أبطأ « بحمدى » ؟

ووضعت ساعتى على أذنى ، فوجدت دقاتها منتظمة كدقات القلب

السليم ... أين « حمدى » ؟...

ربما كان قد أخره الترام ، أو ربما عاقه عن الحضور عائق هين !

وسمعتُ حركة في الطريق ، فهرعت إلى الباب ، وفتحته . فوقع

بصرى على غلام حقير يعدو خلف قطه ويقذفها بحجر ، ودخلت وأنا

شديدة السخط على هؤلاء الأطفال المسمل المشردين الذين يقلقون

راحة السكان ، ولا يرحمون الحيوان الأليف الضعيف...

وحلت الساعة ولم يحضر « حمدى » . فهرولت إلى « أم يونس » ،

وقلت لها محتدة : لقد توّسل إلى أن أضرب له الموعد ... فما باله

لا يحضر ؟... أية وقاحة هذه ؟

فهزّت كتفها ... فاستأنفتُ أقول وما زلت مغتضبة للهجة :

لأنه فائد الذوق .. لا أدري لماذا رضىت أن يزورنى ؟

ودقّ الجرس فى هذه اللحظة ... وتواصلت دقاته . خفق قلبي ،

وقلت « لأم يونس » : إنه هو ! ... عجلى بإعداد القهوة ، وأحضرى .
بعدها شراب الليمون ... وليكن كل شيء نظيفاً ...
جريتُ إلى الباب أفتحه ، فواجهني صبيٌّ في نحو العاشرة من عمره ،
حافى القدمين ، على رأسه طربوش واسع يكاد يستر أذنيه ... وما إن
وقع بصره علىّ ، حتى قال : سيدى « حمدى » مريض اليوم ، ولا
يستطيع الحضور ، وهو يعتذر إليك ويبلغك أزكى السلام ...
وقد نطق بهذه الجملة الطويلة على التتابع في طبخة ثابتة ، كأنه في المدرسة .
يلقى قطعة من محفوظاته بين يدي معلمه ... فألقيت عليه نظرة متفحصة ،
فبدا عليه القلق ، ورأيتهم بالرجوع ، فددت يدي إلى أذنه ، وشدته .
منها حتى أدخلته الردهة ، وأقفلت الباب ، ولم أعبا بما أظهره من تمنع .
واستنكار ، ثم عركت أذنه ، وأنا أقول : سيدك « حمدى » ليس بمريض ،
أعرف أنه ليس بمريض ... قل الحقّ ، ولا تكذب علىّ ...
فانطلق يقول : والله العظيم إنه مريض ... والله العظيم إنه مريض !
فقلت له في إشارة تهديد :
سأقتلع أذنك في يدي إذا أصررت على كذبك ...
وعركت أذنه حركة عنيفة ، فتلاوى الغلام متألماً ، وصاح مستغيثاً ..
فقلت له : اصدقنى ... إنه ليس مريضاً ... أليس كذلك ؟
— حقاً إنه ليس بمريض والله العظيم !
فتركت أذنه ، فتراجع ينخرط في بكاء وشهيق . فدنوت منه لألطف
ظهره ، وأقول : يجب أن تكون صادقاً ... انتظر حتى أحضرك
كوباً من شراب الليمون .
فلمنق في الصبي وأخذ يمسح أنفه وعينه ، فذهبت على الفور ،

وطلبت إلى «أم يونس» أن تتاولني كوباً من شراب الليمون ، فقالت :
هل حضر ؟

— كلا ... لم يحضر بعد ... ولكنني أطلب هذا الكوب للغلام
فقير رأيته في الطريق يستجدي ، فأدركتني الشفقة عليه .

وذهبت بالكوب إلى الصبي ، فأفرغه في فمه دفعة واحدة ، وأشرق
فيه ابتسامة واضحة . فأنحيت عليه ، وهمست في أذنه : إذاسالك سيدك
«حمدي» فأحذر أن تخبره بما وقع ... أغام أنت ؟

— فاهم ، والله العظيم !

وفتحت الباب ، فانطلق يعدو كما تعدو قطرة نَفْثُور... رقصت
إلى حجرتي ، فاستندت إلى حافة النافذة ، ورحت أفكر في شأن
«حمدي» ... حقاً لم يعد الحقيقة حين قال لي :

لأنه فني محطم لا فائدة ترجى منه !

حقاً لأنه اشخصية تافهة ، مضطربة ، ضعيفة ، لا تستحق مني إلا
الإهمال ... فعلى أن أنساه ، وأن أنسى ما بدر منه !

وسرعان ما طاف بمخيلتي وجه «الدكتور داود فهم» الذي يفيض
حيوية ورجولة ... ومخيل إلى أني أسمع صوته وهو يقول لي :
أسمحين لي براسلك إذا رحلت ؟ سأوافيك من أخباري بما
تجدين فيه بعض التسلية .

وراعني الصمت الذي يخيم حولي ، فأخذت أتطأ إلى الحارة ...
شدَّ ماهي عابسة ! منازل قديمة بالية على وشك الانهيار ، أكثرها خلو
من السكان تصفر فيه الرياح ... وهذا السكون الموحش الجاثم فوق
الصدور ... شدَّ ماهو ثقیل خائق ! ... حتى الباعة الجوالون يضنون

بأصواتهم على تلك الحارة المتقفرة .

وتمثل لى فى هذا الوقت قصر « سنية » وحديقته الفيحاء ! ...
يا لله ! ... ما أشدّ الصمت فى هذه الحارة ... ألا أسمع صوتاً واحداً
يرنّ فيها ؟ إنى لأرحّب حتى بنباح الكلاب ! .

وترامى لى خيال « حمدى » فى هذه اللحظة .. كأنه « موميا » فرعونية
متدثّرة بلفائفها ، ترك تابوتها مخيصة الظهر ، وتنظر إلى بعينها المفرّغتين !
وسمعت و فحّ خطوات ، فالتفتّ فإذا « بأم يونس » تدخل الحجرة
حاملة سلطانية ملئت بشراب الليمون ، فصاحت بها :

ماذا تريد يا « أم يونس » ؟

— لقد أحضرت لك شراب الليمون لىكى تذوقيه ... إنه كالشهد !
فجذبت السلطانية من يديها ، وقذفت بها فى الحارة ، فسمع لها
دوىّ قوىّ وهى تتكسّر !

ونظرت إلى الشراب المنسكب على الأرض ، فخيّل لى فى غمسه ق
الغروب ، أنه دماء تنشحى من جروح ، ففطّيت وجهى بيدي ،
وارتميت على كتف « أم يونس » وقد غلبت نوبة نسيج وانتحاب ، كما
يفعل الأطفال ! ...

تفقدت أمى فى اليوم التالى ، فلم أجد لها فى البيت ظلاً ...
 فقلت « لأم يونس » : لأنها لم ترنا وجهها منذ يومين ... أين هى ؟
 — العلم عند الله يا بنى ... فقد تكون مدعوة عند إحدى صواحبها !
 وبعد هنية استأنفت تقول : ألا ترغبين فى الخروج ؟
 — الخروج ؟ وأين تريد يبنى أن أذهب ؟
 — تذهبين معى لزيارة ضريح «الست أم هاشم» ... ثم نقصد إلى
 الحاجة «أم البشائر» ؟
 — الحاجة «أم البشائر» ؟
 — سيدة صالحة مبروكة ، وأنا أعرفها من عهد بعيد ...
 وهبطت على فكرة جريئة على حين فجأة ! ...
 فصمت هنية ، ثم قلت : أمتعزمة أنت الخروج حقاً ؟
 — قبيل العصر ، بعد الفراغ من أعمال المنزل ... وأنت ؟ ألا
 تصاحبينى ؟
 — كان ذلك بودى ، ولكننى أشعر بتعب ، وأوشى الراحة .
 — ما هذا الكسل ؟ ... إن زيارة «أهل البيت» مفيدة لك .
 — لا أستطيع يا «أم يونس» ... اذهبي وحدك !
 وقضيت فى حجرى وقتاً ، وقد استبدت بى تلك الفكرة الجريئة ...
 يجب أن أنفذها ... يجب أن أرد الإهانة التى لحقتى من ذلك
 «الشخص» ... يجب أن أفهمه أنى لست ألعوبة فى يده ، وأن شخصي

أقوى من شخصيته ، وأعز مكانةً ا
وما كادت «أم يونس» تغادر المنزل . حتى قصدتُ إلى حجرة أمي ،
وجعلتُ أفكّش في صوان ملابسها ، وأعرض ما فيه ثوباً ثوباً ،
وسرعان ما استقرّ اختياري على ثوب وردىّ وحذاء أحمر وملاء بلدية
وبرقع ، ورحت أرتدى حلّتي الجديدة ، ثم تزيّنت وتعطّرت مسرّقةً
في ذلك كل الإسراف . غير مشفقة على ما حواه صِوان أمي من
حقاق وقوارير ا

ووقفتُ أمام المرأة أنا مثل نفسي ، ثم ابتسمت ...
وتركت المنزل وقلبي موصول الخفوق ا
كانتُ هذه هي المرة الأولى التي أخرج فيها وحدي ، فجمعت شجاعتي ،
وركبتُ السيّارة الحافلة إلى «ميدان فريدة» . وما كدت أمشي إلى
محطة «الترام» ، حتى رأيت رجلاً يقترب مني ، وهو يقول :
تبارك الخلاق ا

وأقبل آخر بعد ذلك ، وقال في جراحة عجيبة :
أأحضر مركبة يا «هانم» ؟
ولما دنا «ترام الجيزة» وهممتُ أن أركب فيه ، سمعتُ همساً
ولماذا أنت متعجّلة ؟

اتخذتُ مقعدي في مقصورة السيدات وأنا أبتم عابثة ، وكان
ركوب «ترام الجيزة» أمراً يكاد يكون مألوفاً لدىّ ، فقد طال ركوبي
إياه إلى منزل «سّنية» مع «الدادة شيرين» .
ولم يكن بالمقصورة غيري ، ولكن ما إن وقف «الترام» في المحطة
الأولى في «شارع فؤاد» ، حتى صعدتُ سيّدةً بدنية مترهلة الجسم ،

وجلسْتُ على المقعد أمامي ، فإلأته كله... وضايقتني وجودها ؛ إذ كنت
أوثر أن أخلو إلى نفسي ... ورأيتها تحدّق فيّ بين فترة وأخرى ،
وتمضغ اللبان في خلاعة ، فحوّلت وجهي عنها ، ونظرت من النافذة .
وبعد قليل سمعتها تقول : أليس هذا « ترام الجيزة » ؟

فالتفتُ إليها ، وقلت على عجل : نعم هو « ترام الجيزة » ا
ثم أشعت بوجهي عنها ، أنظر من النافذة ، وكنت أسمع تنفسها
وصرير فيها وهي تمضغ اللبان ...

رائقتُ فترة دون أن تتوانى عن المضغ لحظة ، وكدت أقول لها :
دعي اللبان حيناً ؛ فإن مضغك إياه يثير أعصابي ...
وسمعتها تقول : وحضرتك ذاهبة إلى « الجيزة » ؟
فالتفتُ إليها ، وقلت : نعم ...
— حضرتك نازلة في محطة « الجيزة » ؟
لجعلت أحد من بصرى هنيئة ، ثم غمغمت :
قد أنزل فيها ، وقد أنزل قبلها .

وغضضت الطرف عنها ، وانثذيت أنظر من النافذة ، ولا أعي وجود
المرأة الثقاتاً ، وكان سحتي عليها يمنعني أن أخلو إلى تفكيري ، ولسكن
على الرغم من ذلك كنت أسائل نفسي أحياناً : هل أخطأت بخروجي ؟
هل أصدت ؟ لماذا أكون قد أخطأت ؟ فم الخطأ ؟ أمسوبة الحرية أنا
حتى أعد خروجي للزهوة إلى « الأهرام » جريمة ؟ يجب أن تكون لي
إرادة ... يجب أن أنفذ ما أرغب في تنفيذه لا أنقاد لسلطان أحد ا .
وكنت أسمع دائماً مضغ اللبان وفرقته ، فيخيّل إلى أن هذه
السيدة تقصد بعملها هذا أن تضايقتني وتشير غضبي .

وأخيراً رأيتها تترك « الترام » فى المحطة القريبة من طريق « انبابة »
 خدمت الله على انصرافها ، وأرحت نفسى على المقعد ، وانطلق « الترام »
 يخترق طريق « العجوزة » وكان الهواء لطيفاً منعشاً ... ثم اقتربنا من
 « الجزيرة » ، فعاودنى شيء من الخوف ، إذ خشيت أن يصادفنى أحد من
 معارف « سنية » أو أتباعها ، فيضايقنى بأسئلته ، ولكنى تشجعت ونزلت
 من « ترام الجزيرة » أستأنف الركوب فى « ترام الأعرام » ، وما إن
 اندفع فى الطريق يذهب حتى بدا لى سَخَفُ الأوهام التى هاجمتنى !
 ماذا يهمنى من أمر الناس ؟ لا شأن لأحد بى ، ولا سلطان لإنسان على !
 وهذا الفتى الضامر الأعجف سأكيل له الصاع صاعين ، هذه « الموميا »
 الكريمة المنظر سأفهمها حقيقة أمرها ، وسأضعها فى الموضع الذى تستحقه !
 وكانت المروج الفسيحة والمغانى الأنيقة على جانبي الطريق يعبرها
 ناظرى فى عجلة ، والهواء يهب على وجهى قوياً فأستقبله فى شغف
 شديد ...

وأخيراً بلغت الساحة « الأهرام » ، فتركت « الترام » وسرت بخطوات
 مترددة « وأنا أتطلع دائماً حولى ، وما كنتى الحيرة ، وخطر ببالى أن
 أعود أدراجى ، ووقفت لا أدرى ما أفعل ؟ ومررت بى غلام من بائعى
 شراب « الغازوزة » ينادى مشيراً بشرا به ، وأقبل يعرض على بضاعته ،
 وأنبرى يغرينى ما وسعه الإغراء ، فطلبت منه زجاجة ، فما أسرع
 أن نزع سداتها فى خفة ولباقة ، وناولنى الزجاجة ، فوقفْتُ أشرب ...
 ووجدتني أندفع مسائلةً ذلك البائع : أمن أهل هذه الناحية أنت ؟

— نعم .

— أتعرف سكانها ؟

— كلهم عملائي ... أوافيهم بكل ما يطلبون ... إني لست بائع
« غازوزة » فقط يا « هانم » !

فقلت في شيء من التلعثم : أتعرف منزل « حمدي أفندي » ؟
ففسكر لحظة ، ثم قال : « حمدي أفندي » الطويل النحيف ؟

— نعم .

— معلم الموسيقى ؟

— هو عينه ...

— ليس منزله ببعيد ... انظري ... هناك على مقربة من هذه
القرية ... اتخذى أولا الطريق المعبّد ، ثم انحدرى منه ، واسلكي
الطريق الأعفر ...

فشكرت له ، ثم جرعت بضعة جرعات على عجل من زجاجة
« الغازوزة » ، وما هي إلا أن مضيت حيث دلّسني البائع ، ولم أضلّ
الطريق ... ووجدت المنزل في البقعة التي أشار إليها ، فإذا به منزل
حقير تتقدّمه حديقة صغيرة لا يحوطها سياج .. ووقفت بحجّة متبينة ؛
وخالط أذني في هذه اللحظة صغير « ناي » منبعث من المنزل ، فوقفت
برهة أنظر ماذا أفعل ؟ واسترسل « الناي » في لحنه ، وكانت نغمته تنطوي
على أسمى دفين ، نغمة ساذجة رخيصة تصل إلى أعماق القلوب .
وعادوني التردد ، وطاف برأسي شبح « حمدي » ينظر إليّ بعينه
الذابلتين الحائرتين ، وهو يهمهم :

أنا في محط منكود الحظ ، لا فائدة ترجى من مثلي !

ووجدتني أخترق الحديقة على مهل ، وصغير « الناي » يجتذبنني إلى
الباب . ووقفت تجاهه أتسمّع ... ثم أخذت أقرع الباب . وقلبي

خافق رَقَسَاف ، وفتح باب المنزل ، فإذا بي أمام «حمدى» وجها لوجه ،
فأخذ يحدّق في دهشا ، ثم قال : من تطلين ياسيدتى ؟
فقلت له على الفور وأنا جامدة في أن أغيّر نبرات صوتي :
أطلب الأستاذ «حمدى» معلم الموسيقى .

— أنا «حمدى» ... أية خدمة تبغين ؟

فاندفعت أقول : أريد أن تعلمنى أغنية ...

فحدّق فيّ مبهوتا ، وغنم : أغنية ؟ ... أغنية ؟ ...

— الأغنية التى كنت تعزفها اللحظة على «الناي» ...

ثم ماعتمت أن خلعت برقعى وأنا أتصاحك ، فنظر إلى «حمدى»
في اضطراب ، وقد تضرّج وجهه ، وسمعته يلوك هذه الكلمات فى فمه :

من ؟ ... من ؟ ... «سلوى» !

— لقد جازت عليك اللعبة ، وهذا ما رغبت فيه ...

واسترسلت فى ضحكي ، فرأيت وجهه قد تجعّجهم . فنظرت إليه وقلت :
أعلى هذا النحو تستقبل ضيفك ؟

فأقبل علىّ وهو يدعك يديه ، ويقول : تفضلى ... تفضلى !

وبعد أن سكّت لحظة ، قال : لماذا أخفيت نفسك عني !

— لأنى أردت أن تكون مفاجأة ، فأخطأت فى تقديرى ...

— كلا ، لم تخطئ فى تقديرك قط ... ولكن ...

واقترب منى وهو ينظر إلىّ فى احتياج ، ثم أمسك يديّ قلساً
حيران ، وشفتاه تختلجان بلا كلام ...

وسمعه يقول خافت الصوت : هذه الملاة ... هذه الملاة !

ثم تزايلت الكلمات علىّ فمه ... فقلت له مبتسمة :

أعجبتيك هذه الملاءة ؟

فضغط يدي، وانفراج فيه الهزيل عن ابتسامة ملؤها الرجاء والتعطف .
ثم قال في صوت ضعيف : لا ريب أنك متعبة ... المنزل بعيد عن
محطة « الترام » ، ... تعالى اجلسي ... تعالى !

وأسرع يبحث عن مقعد يصلح لأن أجلس عليه ...
وكان البهو مهوش الاثاث : « بيان » قديم مهتم ، وبعض مقاعد
متربة تتجمع عليها كومات من الصحف والدفاتر والأوراق التي
تحتوي خطوط الأدوار الموسيقية .

ورأيته يقبل مقعداً ليخليه بما عليه . ثم انهال عليه بمنديله ينظفه
وقدمه إلى " ، جلست عليه ، واندفع بعد ذلك محاولاً أن ينظم ما يشتمل
عليه البهو : يرفع كومات ويضع كومات ، يقبل مقعداً ويقيم آخر .
ولكنه مع ذلك كله وجد الهو قد ازداد اضطراباً . وألقى التراب
يعقده في جوّه سحباً قاتمة ، فوقف حائراً يتصبّب منه العرق جزافاً ،
وقد اكتسى شعره الأشعث وملابسه المهملة بطبقة كسداء .

فقلت له وأنا أسعل : دع عنك هذا ... أتراني غريبة تتكلف لي ؟
اجلس ، لا تجهد نفسك . أنضيق الوقت في مثل هذا ؟ لقد خرجت
متنزّهة إلى « الأهرام » ، وتذكرت أنك تسكن غير بعيد منها ، فخرجت
طليكَ أزورك ، لأسأل عن صحتك ...

فغضّ من بصره ، وهو يقول :
أشكر لك يا « سلوى » ... أشكر لك !
... سأتركك بعد دقائق .

فرفع رأسه ، وقال : لماذا لا تمكثين وقتاً أطول ؟

- لا تنس يا د حدى ، أن الطريق طويل ، ويجب أن أعود إلى المنزل قبل غروب الشمس .
- إن غروب الشمس غير قريب ... أخبريني أيهما تؤثرين :
- شراب البرتقال أم عصير الليمون ؟
- قلت لك لا تتعب نفسك .
- أقدم لك أولاً قهوة .
- أرايتنى أشرب القهوة يا د حدى ، من قبل ؟
- ... لا ترصدى مطاي ... دعيني أقدم لك شيئاً ... برتقالاً مثلاً ...
- برتقالاً جنيئاً من حديقتي ...
- ... أفى حديقتك شجر برتقال ؟
- ألم تريه ؟
- لم ألاحظ وجوده فى الحديقة ... إذن نذهب إليه .
- وقت غلغت الملاة ، وهو يختلس النظر إلى ثيابي : أهى ثيابك ؟
- أفى ذلك شك ؟
- إنها بديعة ... بديعة جداً .
- فطفقت أضحك وأنا أقول : لقد سمعت إطراء كثيراً من غيرك !
- عمن ؟
- من رجل عابثى بجوار محطة « الترام » وآخرين فى الطريق ..
- عفواً ... أنا لم أقصد ...
- وانكفاً على يديه يدعكهما بشدة ، فقلت له :
- إطراؤك يحمل معنى آخر ، معنى نبيلًا بالطبع !
- أشكر لك .

وخرجنا إلى الحديقة ، وزلّت قدمي أثناء السير ، فانخلع حذائي ،
فأسرع وحمدي ، يلتقطه ، ثم ساعدني على احتدائه ، وهو يتأمل طويلا ،
ثم قال : أعابثك أحدٌ غير هذا الرجل ؟

— كثيرون ... تبارك الخلاق — أأحضر مركبة يا د هانم ، ؟
لماذا أنت متعجّلة ؟ ... إلى كثير من أمثال هذا الكلام !
وانطلقت أضحك وأنا أقول :

الرجال كلهم ملعونون يا د حمدي ، ... والمعدرة ... لاتؤخذني !
— لن تعودى وحدك يا د سلوى ، ... سأرافقك إلى المنزل .
— خلّ عنك .

— هيهات !

وصحبني إلى شجرة البرتقال ، وكان فيها قليل من ثمرات يانعة ،
فقال لي د حمدي ، وهو يشير إلى الشجرة :

لأنى أنقر باحتيازي لإياها ... لقد انتهى موسم البرتقال ، ولكن
شجرتي ما فتئت محتفظةً ببعض الثمار ... هذه ميزتها !
فاجتנית برتقالة ، وبدأت أفشرها ، ثم أمسكت عن العمل فجأة ،
وقلت : لقد نسيت أن أغسل البرتقالة بالماء والصابون .

— ماذا ؟

— يجب غسل الفاكهة قبل أكلها بالماء والصابون .

— من أين لك هذه الآراء ؟

— ألا تعلم يا د حمدي ، أن مرض « التيفوئيد » منتشر الآن في
« مصر » وأن العدوى به من الطعام الملوّث ؟

— ولكن هذه البرتقالة ليست ملوثة ... أؤكد ذلك لك !

— كيف تؤكد لي ذلك ؟ أنستطيع أن ترى البكتيريا ،
بالعين المجردة ؟

— والبكتيريا ، ١٩

— أجل ، البكتيريا ، . الطفيليات . الميكروبات ، الجراثيم !
— حقاً لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ! ... ولكن كيف انتهت
إليك هذه المعلومات ؟

— أو حسبتني جاهلة ؟

— عفوك ... عفوك !

وما هي إلا أن أنجستُ على البرتقالة قضيًا ، حتى فرغت منها ... فما
أسرع أن اجتسني ، حمدي ، لي برتقالة أخرى ، فبدأت أفشرها ، وأنا
أقول : لم أكن أقدر أن برتقال حديقتك يبلغ هذا المبلغ من الجلاوة !
— أعجبك حقاً ؟

— كل الإعجاب ...

— سأجتني لك طائفة منه .

— لا ... لا

— لماذا ؟

— لأن لا أريد .

وتبادلنا الابتسام ، ودرت حولي بعيني أنظر في زروع الحديقة
ومسالكها ، فراققت سدا جتها وخلوها من التنسيق ... وصافح وجهي
في هذه اللحظة نسيم عليل يحمل في تضاعفه طيب الريح ، فغمغمت :
إني أغبطك على مقامك في هذه البقعة يا ، حمدي ، !
— أترورك هذه الحياة ؟

- ولم لا ؟ بيت لطيف ، وحديقة مشمرة ، وهواء طيب ...
ولكن أخبرنى : ألا تشعر بالسّامة من وحدتك ؟ .
فابتسم وهو يداعب عوداً يابساً ، وقال :
السّامة أمر لا بد منه ، ولكنى أكاخها بالعمل .
— أنعمل طويلاً من الوقت ؟
— أعمل ما أمكنتنى صحى من العمل ...
وناولنّه فصّاً من البرتقال ، فراح يتأمله برهة ، ثم شرع يأكله
على رِسله ، ورفع بصره إلىّ قائلاً :
أحِ زرى ... من يزرع هذه الحديقة ويُحَقِّقُ بنباتها !
— الخادم الذى عندك .
— لأنه لا يعرف كيف يشقى عوداً من الورد !
— لديك إذن بستانى .
— أنا نفسى البستانى !
— أنت البستانى ! ... عهدناكَ موسيقىّاً تقضى وقتك أمام
« البيان ، أو فى صُحْبَةِ « النّاي » !
— وهل تجدین اختلافاً بين البستانىّ والموسيقىّ !
— أليس بينهما اختلاف ؟
— إن لكل نبات من هذه النباتات التى ترينها حولنا ألحاناً خاصة
به ، فالورد يترنم بالحن غير التى يترنم بها الفلّ ، وللفلّ أنشودة تختلف
عن أنشودة شجرة البرتقال !
خدّفت فيه طويلاً ، ثم قلت بسّامة الشجر :
ما زلتَ فيلسوفاً كما عهدناكَ ...

وأشار إلى شجرة « توت » هرمة وهو يقول :

— احزرى ... ما اسم هذه الشجرة !

— أولها اسم ؟

— « الحاج مسرور » ...

— أحقاً سميتها « الحاج مسرور » ؟ ما أطيب قلبك !

— بل قولى ما أطيب قلب « الحاج مسرور » ... لقد كان يحبنا

أصنى حب .

— إن الماضى يعمرُ جانباً كبيراً من قلبك !

— إذفا فصلت بينى وبين الماضى يا « سلوى » لم يصبحْ لى وجود .

— ولكن ألا تذكر قولك لى : يجب ألا يركن المرء إلى الماضى ،

بل عليه أن يتطلع دائماً إلى المستقبل !

نعم ، أذكر ... وقد يكون هذا سرَّ شقوقى !

وسرنا بخطوات وثيدة إلى شجرة « الحاج مسرور » ، وكنت قد

فرغت من أكل البرتقالة . وأردت أن أمسح يدى ، فلم أجد منديلاً

معى ، فأخرج « حمدى » منديله من جيبه ، وقال وهو يتسم فى استحياء :

أتسمحين لى أن أمسح يديك بمنديلى ؟

فقدت لى إليه يدى ، فأخذهما بين يديه ، وجعل يمسحهما فى عناية

وتلطف ، ويطيل النظر إليهما . فقلت :

لقد أصبح منديلك غير صالح للاستعمال !

— وكيف خطر لك أنى سأستعمله ؟

... سترميه إذن ؟

— بل سأحتفظ به كما هو تذكارة لهذه الزيارة .

وتبادلنا النظرات ، ونحن صامتان ... ثم مضينا نجوس خلال
الحديقة جنباً إلى جنب ، ونعاود السير في مسالكها دون نظام ...
ولبثنا في جيئة وذهوب ، نحسدهُ هنا ونعرجُ هناك ، يخسبُ علينا
الصمت ، و « حمدي » يبعث في عرض الأفق شوارداً النظرات !
وأخيراً دنونا من الباب ، فوقفت قائلة : لقدحان موعد أو بُسقي ؟
— أو بتمك ؟

وعلا بهامته إلى ، كأنه صحا من سبات عميق .
ثم أردف قائلاً : لا يمكن أن يكون ذلك !
— أخشى أن يدركني الليل ...
فامسك عن الكلام برهة ، وهو قلق حيران .
ثم قال : أو مل إذن أن أحظى بزورات آخر .
ولم يكذبْ بجملة . حتى رأيت وجهه قد اكفر ، وساد حركاته
الارتباك ، وظلَّ وقتاً كأنما يؤامر نفسه ...
وأخيراً أخذ بيدي في تذلل ومسكنة ، وقال في صوت عتق :
أرجو ألا تكوني حافدةً عليّ لما بدرُ مني أمس ...
فلاطفت يده بلا كلام ، فتابع قوله : كنت في حالة نفسية ...
فقاطعت قائلاً : لا نلتقِ إلى ذلك بالا .
فشدَّ على يدي شديداً عصبياً ، وقال بحمجا : ما أنبل قلبك يا رسولى
— إلى الملتقى .
— سارافقك حتى البيت .
— كلا ... كلا ... أخشى أن يرانا أحد في الطريق ، ولا سيما
معارف و سنية ،

— ولكن كيف تعودين وحدك ؟

فابتسمت قائلة : كما جئت وحدى ؟

— وهؤلاء الاوغاد الذين يضايقونك في الطريق ؟

— إن نظرة واحدة منى كفييلة بأن تعيدهم إلى صوابهم ، وتقفهم .

عند حدّ الأدب .

وتذكرت أنى نسيت الملاءة ، فصرخت : ولكن ... الملاءة ؟

— سأحضرها لك فوراً .

وجرى إلى الدار ، فغاب فيها لحظة ، ثم عاد يحمل الملاءة ، وأعانى

على ارتدائها ، ثم وقف يتأملنى صامتاً ...

وبعد لحظات قال : إذن أصاحبك إلى محطة الترام .

— لا بأين .

وانطلقنا لسير ، وكان الطريق في أوله أعفر غير ممهد ، فأسرع

« حمدى » يمدّ إلى ذراعه ، فاستندت لـ « ليلها » شاكراً ، وسرنا وأنسام

الأصيل تهبّ علينا مزاجاً من جفاف الصحراء ورطوبة المساء !

وانبرى « حمدى » يحدثنى كيف يحيا ؟ وماذا يعمل ؟ وروى لى

حوادث فسكرة بما يجرى بينه وبين تلاميذه . كان يتحدث طلق الحيا ،

سُذلق اللسان فى ألفة لم أعدها فيه من قبل ... ووصلنا إلى المحطة ،

وكان « الترام » فى الانتظار ، فمددت يدي إلى « حمدى » أصاخه ،

فتناولها بين يديه ، واستبقاها وقتاً وهو يرنو إلى « بعين حسيرى » .

ونفخ عامل « الترام » فى صفّ ارته ، ففز « حمدى » يدي ، ثم أطلقها

وهو يبتسم ابتسامة كاسفة دون أن ينهس بحرف . وصعدت فى العربى ،

وتحرك « الترام » وأنا ألوح « لـ حمدى » بيدى ... أما هو فكان يحدق

في ، والابتسامة الكاسفة على فيه تطبع بحبائه بطابع الحزن والتحسّر
وشهدتُ معي في العربية بعض الركاب من الأجانب ، مضوا يتحدثون
في اهتمام ، ويشيرون في الفينة بعد الفينة إلى «الاهرام» وإلى معالم الطريق
وانسرحتُ أنا أفكر في وحدي ، وما هو عليه من شذوذ ، وما يعانيه
من متاعب الحياة ... مسكين هذا الشاب ! شد ما هو طيب النفس ،
نقى السريرة ! ... إنه في حاجة إلى من يرعاه بقلب شفيق .

وكان « الترام » ينهب الطريق ، والمغانى تمر سراعاً في غسق
الغروب كأنها الأشباح ؛ ووجدتني أسألك نفسي : هل المغانى في «لندن»
على غيرار هذه المغانى ؟ وهل تجري الحياة هنالك كما تجري هنا الحياة ؟
وكيف يعيش « الدكتور داود فهم » في بلاد الإنجليز ؟

وبلغ « الترام » ميدان « فريدة » فتركته قاصدةً على التوّه
إلى منزلي في السيارة الحافلة . وما كدت أتخطى عتبة الباب ، حتى
رأيتُ أم يونس ، أمامي فرمقتني بنظرة متجهمة ، وهى تمفحصني
طويلاً ، وسمعتها تقول في لهجة دمدمة وتأنيب :

تلبسين ثياب أمك : وتخرجين وحدك ؟ ... عرفت الآن لماذا

لم ترغبي في الخروج معي لزيارة ضريح « الست أم هاشم » ؟ !

فوضعت يدي في خاصرقي ، وقلت : أنا حرة أفعل ما أريد !

فقال ، وقد اضطربت عيناه ، وكأنهما دامتان من فرط الاحمرار :
أين كنت ؟

... كنت حيث كنت !

وأدبرت عنها ، فإذا هى تجتذب الملاة قائلة :

إنى أسألك أين كنت ؟

فدفعتها عنى وأنا أقول : ألا تكفين عن هذيانك ؟
وكادت المرأة تسقط ، لولا أنها لاذت بمقعد قريب فاستندت إليه ،
وشعرتُ بأنى أسأت تصرفى معها ، وإن كانتُ هى قد تجاوزت الحدَّ ...
فأمسكتُ عن السير ، وقلت لها فى لهجة لا تخلو من رفق :
إنك تخرجينى عن حلمى بتدخلك فيما لا يعينك .
فأجابتنى مبهورة الانعام :

تدخلُ فيما لا يعنينى ؟ ... أهذا هو جزاء جهدى فى خدمتك ورعاية
شأنك ؟ لو عرفت كيف قضيتُ الوقت وأنا ذاهبة العقل أترقب أو بُشَتِكَ
فى حيرة وتململ ، لما تقوَّمتُ بمثل هذا الكلام ...

— أنت تتعبين نفسك فيما لا جدوى منه !

— ألا تخبرينى أين كنتِ ؟

— وإذا لم أخبركِ ؟

— أتضرُّع إليك أن تقولى أين ذهبت ؟

ورأيها تنظر إلى بعينين شرقتين بالدمع ، فقلت :

كان بى ضجر ، فخرجت إلى الطريق ، وركبت الترام ، إلى الهرم ..

— وحدك ؟

— أجل ، وحدى ... أفى ذلك ضير ؟ ... لست طفلة ... لأننى

فى سن تحوِّلنى أن أفعل ما أريد .

فدمدمتُ فى حسرة :

— كلا يا «سلى» . بل أنتِ فى سنٍّ توجب عليك الحذر الشديد !

وأخذت بيدي ، فضمت بى إلى حجرى فى صمت ...

تعاقت أيام لم يحدث فيها شيء غير مألوف ..
أما أمي فقد جعلت زيارتي «لحمدي»، وكنت وافقة أن «أم يونس»
لن تبوح لها بشيء مما كان ... وقدمت «الدادة شيرين» قلعوني
من قبل «سنية» إلى زيارتها على مألوف العادة، فاستجبت لها .

وما إن استقبلتني صديقتي في بيتها ، حتى سافقتني إلى حجرتها ، وهي
تمس في أذني : سأريك شيئاً ...

وقامت إلى الباب تغلقه ، ثم ذهبت بي إلى خزانة كتبها ، وفتحت
درجاً أخرجت منه لفيفةً من الرسائل ... وبعد أن فككت وثاقها
استلكت منها رسالة وهي تقول :

إنها آخر رسالة وردتني من «شريف» ... ألا أقرؤها عليك ؟
— يسرنى ذلك كل السرور .

وجلسنا على الأرض بجوار الخزانة ، واللفيفة في حجر «سنية»
وجعلت صديقتي تقرأ الرسالة ، ولم يكن بها شيء ذو غرابة : بدأت
بتحية مألوفة ، وختمت بقبلة رسمية ... ولكن الذي رافق فيها بعض
أوصاف للحياة في «فرنسا» ... فقلت لها :

ألا يقص عليك «شريف» أنباء أشخاص هنالك ؟
— قلما يفعل .

— ألم يتعرف إلى أشخاص جدد مرّوا بفرنسا، من أعضاء
البعثات الحكومية ؟

— لم يخبرني في هذا الشأن بكثير أو قليل .

ثم نظرت إلى " ، وقالت ووجهها يلتمع بشاشة وبشرا :
ما رأيك في الرسالة ؟ لطيفة غاية اللطف ، أليست كذلك ؟
— ولا سيما هذه القبلة الختامية !

فابتسمت ابتسامة ساطعة ، ثم احتضنتني ، وهي تقول :
ثق أن حي لياها لا يقلّ عن حبّه لياي .
فلاطفتها ، وأنا أقول :

أهنتك يا « سنية » ... ومتى يعود إلى « مصر » ؟
— لا أعلم لي ... ولكنني سمعت من « مدموازيل شاتل » أنه
لا يغيب طويلا .

فجئمت خدّها ، وقلت : وموعد الزواج ؟
فولت عني ، وهي تقول : دعينا من ذلك !
وأعادت الرسالة إلى الليفة ، ثم أودعتها مكانها من خزانة الكتب
وما هي إلا أن وجدتني أميل على « سنية » أقول لها هامة :
لديّ سرّ أريد أن أفوض به إليك ...
فاحتضنتني ، وأرهفت لي السمع ، فقلت :
لقد دعاني « حدى » إلى زيارته .
— متى ؟

— منذ أيام ...

— وعل لبّيتّ دعوته ؟

— لقد ألحّ عليّ ، فلم أملك لدعوته رفضاً .

— وهل صحبتك أمك في هذه الزيارة ؟

— أمي ... إنها تجهل الأمر كله !

— ومن صَحْبِكَ إذن ؟ ... « أم يونس » ؟

— كلا ...

— أذهبت وحدك ؟

— ولم لا أفعل ؟

وأقبلت على « سنية » تنظر إلى محذقة في عَجَب وإِكْبار

فتابعت قولي : هذا زمن الحرية !

ورأيت عيني صديقتي تلتمعان ، وضغطت يدي ، وهي تقول :

وماذا فعلت هناك ؟

— تنزهنا حول « الأهرام » ، ثم دعاني إلى تناول الشاي في أحد

النوادي .

— أتناول معه الشاي في النادي ؟

فقلتُ عليها وهمست : ودَّخِنتُ لفافة تبغ !

فسمعتُ شهيقَها وهي تقول : لفافة ؟ ... يا لك من جريئة !

— اسمعي ... اسمعي ... لأنني لم أتم لك ما جرى ...

— قولي ...

— وعندما أَرَخِي الظلام سدوله ، وكاد النادي يخلو من رواده ،

رأيتُ « حمدي » يَدْنِي وجهه من وجهي ، ثم اغضب قبلة مني !

فقطتُ « سنية » وجهها بيديها ، وهممت : أَوَقْبَلْكَ ؟

ولم تلبث أن انفجرت ضاحكة ، وأقبلت تغدق على القبلات !

ولما حان موعد انصرافي ، نزلتُ إلى البهو مع « سنية » فلبحت

أباها « الزهيري باشا » جالسا في ركن يطالع الصحف ويدخن ...

فوقفت أقول « لسنية » : لكم تخبريني بأنه موجود !

— وهل كنت أعلم أنه عاد من الضيعة ؟
وشعر « الباشا » بمكاننا منه ، فالتفت نحونا ، فلم أر بدًّا من أن
أقبل عليه أحييَّه ... وأذكر أنني لم ألتق به منذ أكثر من عام ...
فسرت إليه متهيبَّة ، على حين أنه أخذ يتفحصني بعينه الحادتين
ذواتي الأهداب الغزار ... ثم ابتسم ، وقال وهو يمدُّ يده إلى :
ها أنت ذى يا « سلوى » ... كيف حالك ؟
فقبَّلت يده وأنا أقول : بخير يا عمى .

— أم نصرفه أنت ؟

— عائدة إلى منزلى .

— مع من ؟

— مع « الدادة شيرين »

ورأيتَه يطيل النظر إلى وجهى ... وسمعت « سنية » تقول :
إن « الدادة شيرين » تركب معها « الترام » وترافقها حتى المنزل .
فقال « الباشا » لابنته :

وكيف تدعيها تركب « الترام » ؟ أليس عندنا سيارة ؟
فغمضت « سنية » :

المعذرة ... لم أكن أعلم أن السيارة غير مشغولة !

وخرجت مع « سنية » وركبت السيارة إلى المنزل في صحبة « الدادة »
حقاً لم أكن أتوقع أن يشملنى « الزهيرى باشا » بهذا العطف
ولقد راعيتُ منه نظراته اللامعة التى تماثل نظرة الأبطال فى أساطير
الأولين ! .

وفى ضحوة غيد التقيت بأُمى غبَّ الفطور ، فجلست معها ساعة

نتجاذب أطراف الأحاديث . وسألتني كيف قضيتُ يومى في منزل
« سنية » ، فرويت لها نُتفأ من أخبارى ...

ثم قلت لها في ختام الحديث : وقد رأيت « الباشا » ،
— « الباشا » ؟

— وحييته ، فردَّ تحقيق أحسن رد ، وتلطف بي أكرم تُلطف ...
— هذا عجيب !

— عجيب ؟ لماذا ؟ إنه دائماً يعاملنى معاملة كريمة .

— معاملة كريمة ! إنه يعدُّنا من بعض أتباعه !
— أتباعه !

— أجل ... ولكن لكل "امرىء كرامته ، ولكل امرئ مكانته
في نفسه ... لن يستطيع ذلك «الباشا» أن يشترينا بماله !
ونَهضت هى إلى حجرتها ، فقمت على الأثر إلى حجرتى ، وقد ملأ
رأسى التفكير فيما تحدثت به أُمى إلى .

وما إن استقرَّ في المقام ، حق رأيت « أم يونس » تدخل الحجرة
في تباطؤ ، وهى تَقلب رسالةً في يدها ، فقلت : ما هذه ؟
فأجابتنى ، وعيناها تحدَّقان في الرسالة :

لقد أعطانيها ساعى البريد ، وأخبرنى أنها تخصُّك .

فإن طرقت سمعى هذه الكلمات ، حتى اختلطت الرسالة من يدها
فقلت مهتاجة : ماذا ؟ لابد أن هذه الرسالة لأحد غيرك ... لقد قالت
لساعى البريد إن «ساوى» لم يسبق أن تلقَّت رسائل من أحد ...
ولحت طابع البريد الإنجليزى ، فرفرف قلبى ، وأخذت أدفع
« أم يونس » إلى الباب ، وأنا أقول : لأنها لى ... لأريب فى أنها لى .

فوقفت المرأة تقول : إذن أخبريني بمن جاءك ؟
فحدثتها بنظرة حادة ، ثم غمغت : إنها من « سنية » .
— « سنية » ؟ لقد كنت عندها أمس ! فضّى الغلاف وانظري ،
— قالت لك إنها من « سنية » ، وكفى ! انصرفي عني الآن ،
وسأخبرك بعد بما فيها .

وخرجت المرأة تتسخط ، وأقفلت الباب خلفها ، وجعلت أطيل
النظر إلى الرسالة ، وكأن بين جنبيَّ طائر أبيض ... ثم فضضت الرسالة
وظفقت أقرأ :

« حضرة الأنسة المهذبة سلوى شوقي :

استميتك العذر من تقصيري في موافاتك برسائلي وفنق وعدى
إليك ... كثيراً ما هممتُ أن أكتبَ إليك ، وطالما شرعتُ أسطر
جملا وكلمات . ولكني ما أعم أن أحجم بعد لإقدام ، وأنهال على الورق
أمزقه شرّاً ممزق ... كيف أبيع لنفسى مراسلة فتاة لم أرها إلا مرتين ؟
أية الموضوعات هي التي يجب ألا أعددّها في الكتابة والتسطير ؟ على أني
قررتُ أخيراً أن أبعث إليك بهذه الرسالة مهما يكن من أمر .

لا أريد أن أتحدث إليك في شأني ، فأوافقك ببعض أنباءي كما أسلفت
لك وعدى ، ولكنني أريد أن أخصّسك بهذه الأسطر ... لا يذنب لي أن
أكون صريحاً : إن المرتين اللتين لقيتُك فيهما كشفتم لي جانباً من
حياتك ، واستطعتُ أن ألمح ما يحيط بك من خير ومن شر ، وتوضحت لي
بعض همومك وآلامك ... ولقد وجدتني مهتماً بهذا كله أشدّ اهتمام ،
راجياً أن أكون بجانبك في متاعب الحياة ، عوناً لك على أن تتجاوز
مراحلها الأولى بسلام ... والآن ، وبيننا شقة بعيدة ، كأن بكِ قولين :

ماذا تستطيع أن تقدم لي ؟ حقاً ليس في طوقى أن أقدم لك شيئاً كبير
النفع . ولكنى على أية حال أرجو أن تعدّين نصيراً صادق الرغبة في
خدمتك ، ولن يخيب ظنّك في " إذا عوّلت على " .

وأبعث إليك في الختام بهجيات ، عطّرة ، وإلى الملتقى في الرسالة الآتية ؟

المخلص : داود فهميم

استدراك : « لم أكتب لك عنواني ، لأنني لم يستقر بي المقام بعد
في المسكن المنشود » .

وجعلت أتلو الرسالة ، أبدى فيها وأعيد... وكلما أتممتها انسحرت
بمفكرة أكتبته مدلولها ، وأفسّر لنفسى ما يخفى على من معانيها ... إنه
يشير إلى ما يحوطني من خير ومن شر ، وإلى همومي وآمالى ، وإلى رجائه
أن يكون عوناً لي ... كل هذا حسن ، ولكن ... ولكنه لم يوضح لي
شيئاً معيناً : ما هو نوع العون الذى يبذله من أجلي ؟ وكيف أعوّل عليه
وهو لم يخبرني متى يعود ؟ ... وتحيته الأخيرة ؟ ما كان ألقها من تحية !
ورأيت الباب يفتح في بظء ، ثم أطلّ رأس « أم يونس » فقلت لها :
ادخلي .

فدخلت ، وهى لا تحسّد ببصرها عن الرسالة ، فجذبتها من ذراعها ،
ودهب بها إلى النافذة ، ثم قلت لها : ليست الرسالة من « سنية » .
— كنتُ أعلم ذلك .

فأمسكت عن الكلام لحظة ، ثم قلت :

أتذكّرين شخصاً يدعى « الدكتور داود فهميم » ؟
فراحت المرأة تفكر ، ثم قالت :

« الدكتور داود فهميم » ، ... « الدكتور داود فهميم » .. أظنه الشاب

الذى حضر لزيارتك منذ شهر . وقدمت له القهوة فى حجرة الزوار .

— إنه هو عينه ...

— أهو صاحب الرسالة ؟

— بعث بها إلى من « لندن » .

— وما « لندن » هذه !

— من بلاد الإنجليز !

— أو سافر إلى بلاد الإنجليز !

— بعثته الحكومة فى أمر مهم .

— وماذا قال لك فى الرسالة ؟

— يقول إنه ... إنه يهتم بحياتى ومستقبلى ، ويكرّر هذا القول .

— وماذا أيضاً !

— وإنه يفكر دائماً فى ، وقد مرّز عشرات الأوراق قبل أن

يختم رسالته إلى ...

— يظهر انه يضمرك عاطفة طيبة .

— لم يصّرّح لى بشىء .

— وبماذا ستجيبينه ؟

— لا أكتب له الآن شيئاً ... لم يرسل إلى عنوانه بعد .

— أنصحك ألا تبسطلى معه فى الكلام ... نحن لا نعرف من

شأنه إلا القليل ، ولم نفطن إلى سريره .

— إنه يطلب إلى أن أعوّل عليه لأنه صادق الرغبة فى خدمتى .

— حسناً ... حسناً ... عدينى بأنك إذا كتبت له شيئاً فإنك

قبل إرساله إليه تطلعينى عليه .

— أعدك بذلك !

وقبلتها وقبلتي ...

واتفقتُ معها على أن يكونَ هذا الأمر بيننا سرّاً جدّاً مكتوم .
ولقد أسلّمتُ هذه الرسالة إلى تفكير حائر استغرق وقتي أجمع ،
فكنت دائماً أعيد قراءتها ، وأحسّل جملتها ما تحتمل من وجوه المعاني
وضروب التأويل ... ولما جنّ الليل ، قصدت إلى نافذة حجرتي ،
فجلستُ بمجوارها ، وأرسلتُ طرفي في الفضاء الحالك ، والرسالة في يدي
لا تفارقتني ... وقضيتُ هزيعاً من الليل وأنا غارقة في أحلامي . وكانت
تراءى لي في هذه الأحلام صورة الدكتور فهم ، في أشكال متعدّدة ،
ولكن وجهه لم يكن يتغير ، ذلك الوجه الهادئ القسّات الذي يحمل
طابع الرجولة الحقة ... كانت عيناه ترنوان إلىّ في عطف وعدوبة ،
وفه يهيمس في صوت خافت :

أما زلت تشكّكين في إخلاصي ؟ أما زلت تتجاهلين عاطفتي
نحوك ؟

فكنت أهبّ من نومي ، فأدثني الرسالة من عيني ، وعلى ضوء
المصباح الشحيح الذي ينير حجرتي ، كنت أقرأ : وكثيراً ما هممت أن
أكتب إليك ، وطالما شرعت أسطر جملاً وكملاً ، ولكني ما أعتَم
أن أحجم بعد لإقدام ، وأنهل على الورق أمزقه شرمزق ، ، فأنتحى
الرسالة عن مرّمي عيني ، ثم أرائني قد ابتسمتُ ، وماهي إلا أن أهيّم
في أودية الأحلام ، وشبّحتُ الدكتور فهم ، يتوضح في مخيلتي
يملاً آفاقها ...

استيقظت من النوم في غدى متكاسلة ، وقد متّسع النهار .
وما كدت أفتح عيني حتى رأيت أم يونس تدخل الحجر ، وبيدها رسالة قلبها بين يديها ، فقفزت من فراشي ، وأخذت الرسالة منها ،
فقلت : أفي كل يوم رسالة من بلاد الإنجليز ؟ ... ما هذا ؟
وتبيّنت الرسالة على عجّل ، فألقيتها تحمل طابع البريد المصري
فقلت « لأم يونس » وأنا أدفعها نحو الباب بلطف :
ساخبرك بكل ما فيها .. دعيني الآن حتى أقرأها بسلام .
وأقفلت باب الحجر ، وجعلت أقالب الرسالة وقتاً في يدي ، وأنا
أستطلع الخط ... لمن يا ترى ؟ .
وأخيراً فضضت الغلاف ، فإذا الرسالة من «حمدي» ... وقرأت :
عزيزتي سلوى :

أجزل الشكر لك على زيارتك اللطيفة ، حقاً كنت كريمةً معي ،
طيبة القلب نحوى ... لقد أشعرتني بسعادة أجده نفسي عاجزاً عن
وصفها وإن أطلت القول ... هذا دين لك عندي ، فهل أستطيع يوماً
أن أوفيك إياه ؟ ... على شفّتي كلام كثير أريد أن أفضي به إليك ،
وإن بعضه لينحّم بعضاً ، فبأى شيء أبدأ ؟ أريد أن أتحدث إليك
مشافهةً ، فمتى نلتقي ؟ سأزورك يوم الأربعاء في الساعة العاشرة صباحاً .
أرجو أن يروّفك هذا الموعد ، وأن تكوني راضيةً عني ...
وأبلّغك أذكى تحيةً ؟
صديقك الوفي : حمدي

ملاحظة : « إنى محتفظ بالمنديل الذى مسحت به يدك فى صندوق صغير من خشب الصندل ، وسأظل محتفظاً به ، تذكر أ لا يعدها عندى تذكر آخر فى هذا الوجود ... » .

ووضعت الرسالة على خوان الزينة ، ووقفت أفكر ... مسكين هذا الفتى ! ما أطيب قلبه ! ... شدة ما تحزننى حاله فى فقره الشريف ودخلت على فى هذه اللحظة « أم يونس » مستطلعة ، فقلت لها :
إن الرسالة من « حمدى » ، إنه يرغب فى زيارتى .

— يرغب فى زيارتك ؟ يفعل كما فعل فى المرة السابقة ؟

— إنه يعتذر اعتذاراً بالغاً ، لقد كان مريضاً لا يستطيع الخروج .

وسيحضر يوم « الأربعاء » ، غداً ...

— غداً ؟ ... إن هذه الزيارة غير مقبولة على أية حال .

— لماذا ؟ إنه صديق الطفولة ، أما أخلاقه ...

— أعرف أنه ولد طيب .. ولكن يجب إخبار أمك مهما يكن

من أمر .

— أتركى هذا لى .

وكان الصباح ... ورأيت « أم يونس » فى البهو ، فما كادت تلمحنى

حتى هرعت إلى ، وقالت وقد نسيت أن تحيننى تحية الإصباح :

هل أخبرت أمك بأن « حمدى » يزورك اليوم ؟

— لأنها لم تستيقظ من نومها بعد ... قد يأتى « حمدى » وتنتهى

زيارته ، وأمى ما تزال تنط فى نومها .

— وإذا استيقظت وهو موجود ؟

— لا تلقى لهذا الأمر بالا .

وانتظرت «حمدي» في البهو بالقرب من الباب ، وحطت العاشرة ،
ومر بعدها ربع ساعة ، ولكن «حمدي» لم يحضر ... وقت أروح
وأعدو في البهو ، وأنا أفرض أظفاري ... ومر عقرب الساعة بمنتصف
الحادية عشرة ، ورأيت «أم يونس» آتية تستالغ الخبر ، فصاحت بها :
اذمبي عنى الآن ... لا أريد أن أرى أحداً ...

واقربت الساعة من الحادية عشرة ، فانطلقت أدمدم :

ولدا قليل الأدب ، مجرّد من الذوق !

وقصدت إلى حجرتي ، فوجدت «أم يونس» جالسة تحسّي
قهوتها ، فنظرت إليها متمجّبة ، فقالت :

هل يسومك أن أشرب القهوة في حجرتك ؟

ـ افعل ما تريدن .

وجلست على المقعد بجوار النافذة ، وأسندت رأسي إلى قبضة يدي
وخيّم الصمت وقتاً ، ثم سمعت «أم يونس» تقول كأنها تحدث
نفسها ، وهي تصب القهوة في القدح :

لو كنت مكانك لما اهتممت بالامر أى اهتمام .

فصحت : أمهمة أنا بالامر ؟ من قال لك ذلك ؟

وأرسلت ضحكة مشوّهة ، وتركت مقعدي ، وأخذت أتغنى ،

ثم فتحت صوّان ملابسى ، وجعلت أقلب ما يحتويه ... وسمعت
«أم يونس» تتكلم في لهجتها السابقة ، وقدح القهوة في يدها :

لماذا لا تأتى الدادة شيرين ، فتأخذك اليوم إلى «سنية» ... ؟

وكنت على وشك أن أثور عليها ، ولكننى لم أفعل ، وجعلت

أراجع قولها فيما بين يدي ، وبين نفسى ... حقاً ، لماذا لا تأتى الدادة شيرين ،

فَتَأْخُذْنِي إِلَى « سَنِيَّة » ؟ إِنِّي فِي حَاجَةٍ مُلِحَّةٍ إِلَى أَنْ أُرَوِّحَ عَنْ نَفْسِي !
وَعَدْتُ إِلَى النَّافِذَةِ ، فَاسْتَدْتُ رَأْسِي إِلَى يَدِي ، وَأَرْسَلْتُ بُصْرِي
فِي الْحَارَةِ ، وَمَضَيْتُ أَفْكُرُ فِي اضْطِرَابٍ ... إِنْ « سَنِيَّة » لَا تَرْسِلُنِي إِلَى
« الدَّادَةِ شِيرِينَ » ، إِلَّا إِذَا رَغِبْتُ هِيَ فِي رُؤْيِي ، أَمَا أَنَا فَحَرَّمْتُ عَلَى
أَنْ أَزُورَهَا مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ... أَلَيْسَتْ وَالِدَتِي عَلَى حَقٍّ إِذْ قَالَتْ لَانْهَم
يَعْدُونَنَا مِنَ الْإِتْبَاعِ ؟ ... نَحْنُ دَائِمًا كَرْمَنُ الطَّلَبِ !

وَقَمْتُ إِلَى صَوَانِ مَلَابِسِي ؛ وَبَدَأْتُ أَهْيِي نَفْسِي لِلْخُرُوجِ ، فَقَالَتْ
« أُمُّ يُونُسَ » : مَاذَا أَنْتِ فَاعِلَةٌ ؟

— سَأَذْهَبُ إِلَى « سَنِيَّة » .

— إِلَى « سَنِيَّة » .

— فِي مَسْأَلَةِ مَهْمَةٍ ... كُنْتُ قَدْ لَسَيْتُهَا .

— وَلَكِنْ « الدَّادَةُ شِيرِينَ » لَمْ تَحْضُرْ ...

— وَمَالِي وَالدَّادَةُ شِيرِينَ ، ؟ هَذَا أَمْرٌ يَخْصُنِي لَا يَخْصُهَا .

وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ الْبَابِ ، فَقَالَتْ لِي « أُمُّ يُونُسَ » : إِذْنٌ أَذْهَبُ مَعَكَ

— تَذْهَبِينَ مَعِيَ ؟ وَمَنْ يَجْهِّزُ طَعَامَ الْيَوْمِ ؟

وَخَرَجْتُ مِنْ بَابِ الْحَجَرَةِ ، وَرَحْتُ أَتُبُّ عَلَى الدَّرَجِ مَسْرَعَةً ،

فَسَمِعْتُ « أُمَّ يُونُسَ » تَقُولُ :

وَإِذَا سَأَلْتَنِي عَنْكَ أُمُّكَ ، فَاذْأَا أَنَا قَائِلَةٌ لَهَا ؟

فَتَلَبَّثْتُ فِي مَهْطِي قَلِيلًا ، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي إِلَيْهَا ، وَقُلْتُ :

أَخْبَرْتُهَا بِأَنَّ « الدَّادَةَ شِيرِينَ » جَاءَتْ فَصَحَّبَتْنِي إِلَى مَنْزِلِ « سَنِيَّة » ،

بَلَعْتُ بَيْتَ الصَّدِيقَةِ دُونَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ غَيْرُ مَأْلُوفٍ ، وَكَانَ لِرُكُوبِ

« التَّرَامِ » وَاخْتِلَافِ الْمَنَاطِرِ أَمَامَ عَيْنِي أَثْرٌ طَيِّبٌ ، فَقَدْ هَذَا شَيْئًا مِنْ

ثائرة نفسى ... دخلت على « سنية » فى حجرتها ، فألقيتها تتلقى درساً فى اللغة الفرنسية مع « مدموازيل شانتل » ... ورفعت المربية رأسها ، ورمقتنى بنظرة نكراء من خلف منظارها ، وما أسرع أن قالت :
« إن « سنية » مشغولة الآن ، فأرجو أن تنتظرها حتى تفرغ من
الدرس ...

ونظرت إلى « سنية » نظرة استرضاء لا تخلو من دهشة ، ثم عادت إلى كتابها تقرأ فيه و« المدموازيل » تستمع إليها . فخرجت وأنا أغضغ :
المعذرة ... لم أكن أعلم .

وذهبت إلى الردهة ، وأخذت أتفرّج بالصورة المعلقة على الحائط ، فلما وقفت أتطلع إليها بدت لى كأنها جديدة لم تعلق إلا اليوم ، وعجبت من نفسى كيف زرت البيت غير مرة ولم ألتفت إلى هذه الصور كأنى أجهل وجودها على الحائط ؟ ... ولبثت أنظر إلى صورة تمثل هجوم عصابة من اللصوص البحر على قُرْصنة آمنة مطمئنة ، وكانت جموع اللصوص تدوس الأطفال فى طريقها ، وتحمل السبايا من النساء وكانهن متاع ولاحظت شهماً غريباً بين صورة كبير اللصوص البحرين وبين « الزهيرى باشا » ... أليست عيناهما متماثلتين فى الوهج وغزارة الأهداب ؟ وهذا الشارب الغزير ، أليست طيع أحد أن يجد فرقاً بينه وبين شارب « الباشا » والد « سنية » ، وكان كبير اللصوص البحرين يصدر أوامره إلى أتباعه . وقبالتة امرأة بارعة الجمال تكاد تكون عارية ، وهى راكعة تتضرّع إليه ... فأطلت وقفقى أمام هذه الصورة وأنا مأخوذة بروعتها ودقة رسمها ، وخيل لى أن شفقى كبير اللصوص تتحركان ، وتوهمت أنى أسمعه يصبح بأحد أتباعه ، فسرت الرجفة فى

أوصالى ، واستندرت حولي أتبتين مكاني ، فإذا بي أرى الزهيري باشا ،
خارجا من إحدى الحجرات ، وهو يخاطب « شقيق أفندي » كاتب الدائرة
في حدة وعنف ، وانكشفت في موقفي ، فربّني ولم يرني ، وخرج مع
الكاتب إلى الحديقة ، ومكثت حيث أنا وقلبي مازال دائب الشفق .
ثم عدت إلى تجوالي في الردهة أنفّس العين بين الصور ، ولكنني كنت
أعود دائما إلى صورة « لصوص البحر » فأقف أمامها أتأملها ...

وكان السكون يخيم على المنزل ، لا تسمع فيه إلا أصداء ضعيفة
تنبعث من أماكن الخدم البعيدة . ولم أر أثرا « للدادة شيرين » ...
كيف لا تسرع إلى تحييتي ؟ وأحسست انقباضا . ورفعت بصري
إلى ساعة الحائط ، فتبتّنت لي أني قضيت في الردهة وحدي قسرا ساعة .
لماذا لا أعود إلى منزلي ؟ واتجهت مسرعة إلى الباب فإذا بي أرى
« الزهيري باشا » داخلا ، مقطّيب الوجه ، يحمل في يده إضبارة أوراق ،
فأخليت له الطريق ، فما إن رآني حتى انبسطت أسارير وجهه ، وحيثاني
في رقة ، ثم قال وهو يلاطف خدّي : لم أعلم أنك هنا ... متى أتيت ؟

— منذ ... منذ برهة !

— وهل رأيت « سنية » ؟

— رأيتها مع « مدموازيل شاتل » تتلقى درسها .

— ولماذا لم تبق معها ؟

— لم أرد أن أقطع عليها درسها ، لقد أتيت لشأن نافع .

— وأين أنت ذاهبة الآن ؟

— عائدة إلى المنزل .

ورأيت « الزهيري باشا » يصيح بصوت عال مناديا « سنية » ،

فقلت له : لماذا تستدعيها ؟

— انتظري قليلا !

وانبعث ينادى ابنته في صوت أشد وأعنف من ذي قبل .
وشاهدت « سنية » تهرع نازلة الدرج ملبسية النداء ، فلإن رآها
« الباشا » حتى قال لها في لهجة جافية : أمن اللائق أن تهملى صديقتك ؟

فقلت : أؤكد لك يا عمى أنها لم تهملنى قط !

وتكلمت « سنية » خافضة الرأس تقول :

إن « مدموازيل شانتل » حتمت على أن أؤدى القرين تحت إشرافها .
وقال « الباشا » جافى اللهجة كما كان : أى تمرين ؟ اصعدى إلى
« المدموازيل » فأخبرها أن الدرس انتهى ، وعودى من فورك إلى « سلى »

فقلت فى تلعم : ولكنى ... ولكنى منصرفة الآن .

وصعدت « سنية » ... ونظر إلى « الباشا » يقول :

لقد حان موعد الغداء ... ألا تتناولين معنا الطعام ؟

فأطرقت حائرة ، فأتم كلامه قائلا : سنا كل معا .

فرفعت « بصرى » إليه ، وقد داخلى التمجيب ... لم يسبق أن تناول
« الزهيرى » « باشا » معنا الطعام ... وسمعته يقول مبتسما :

قد لا يروقك مجلسى ، ولكنى لست كرها على نحو ما تتصورن !

ففتحت فى أريد الكلام ، ولكنى لم ألفظ حرفا . ومضى « الباشا »

يضحك ضحكته المتزنة ، وقال وقد رأى « سنية » عائدة تجرى :

اذهبا إلى الحديقة حتى ندعوكا !

وخرجنا إلى الحديقة ، وانطلقنا نسير فى ممشاها الكبير .

وقالت « سنية » : لقد ثارت فى الدهشة حين رأيتك !

- لم تتوقعى أن أحضر !
فقلت فى لهجة ساذجة وهى تبسم :
إن الدادة شيرين ، لم تذهب إليك كالعادة .
فقلت لها : لقد حضرت لأسألك عن شيء .
— تسألينى عن شيء !
— أرغب فى رؤية أغطية وسائدك . إن التطريز يعجبنى جداً ،
وأريد أن أنقل رسمه .
— لتطريزى أغطية وسائدك على مثاله ؟
— نعم !
— إذن تعالى معى لأريك إياها .
— أماننا فسحة من الوقت !
وتابعنا سيرنا فى الحديقة ، فررنا بشجرة يرتقال محملة بالثمر ، فوقفت
أمامها أتأملها صامتة ، ثم تركناها ومشينا .
وقلت « لسفينة » : لم يزرك وحدى بعد !
— كلا !
— ألم تلاحظى عليه أنه تنير كثيراً عن ذى قبل ؟
— حقاً تنير .
— إنه دائماً عكبوس صموت !
— لقد اصطلح عليه الفقر والمرضى معاً !
— ولكنه لا يبذل جهداً فى علاج مرضه أو الخلاص من فقره .
لأنه يترك نفسه منهجيّاً للأقدار تذهب به كل مذهب ! ... إنه فقير خامل
النفوس ، راقداً الهمّة ...

واستدردنا ، ثم سرنا متجهين إلى المنزل . ومرت بنا فترة صمت .
وقلت « سنية » وأنا أحسّدق أمامي : اسمعي يا « سنية » ،
— ماذا ؟

-- لا تبعثي إلى " منذ اليوم " الدادة شيرين ، لندعوني .
فتوقفت « سنية » ، ترنو إلى " ، وهي تقول :

لا أبعث بها إليك ؟ لماذا ؟

— سأحضر من تلقاء نفسي !

— لا أفهم ماذا تقصدين ؟

— كيف لا تفهمين ؟ قلت لك إنني سأزورك كلما واثنتي الفرصة
وتيسّر لي الحضور ...

— لعل " شيئاً قد ساءك !

— ما أعجب أمرك ! ... لماذا تظنّين أن بي استياء ؟

— ذلك ما أحسبُه !

وأخذت « سنية » يدي تلاطفها ، وقالت وقد تابعتنا سيرنا : ولكن
أخشى إذا لم نبعث إليك « بالدادة شيرين » ، أن تطيل عناغيبتك .

— اطمئني ، فستكون زياراتي مقاربة .

— والآن ... أتريدين أن أريك أغصية الوسائد ؟

— أماناً فمسحة من الوقت !

وماكدنا نقرب من الباب ، حتى رأينا « الدادة شيرين » تقبل علينا
وهي تقول : سيدي « الباشا » ينتظر كما في حجرة الآكل .

فبادرت « سنية » بقولها : وهل سيأكل معنا ؟

فقالت « الدادة » : هو و « مدموازيل شانغل » ، !

فالتفتت إلى « سنية » وقالت : ولكن ... أظن « الأفضل ...
فقلت لها هامسة على الأثر : هل الأفضل أن نظل دائماً أطفالاً ؟
وجذبتها من يدها ، ففضينا ندخل الدار ...

كانت حجرة الأكل من أعظم حُجَر المنزل . أُنشأها على أحدث طراز
مظانة جُدرانها بورق مزخرف تشيع فيه الحضرة الدِّكْناء ، وقد
أحيط السُّطْر الأسفل من جدران الحجرة بِوزرة من الخشب
المُدهَّب . ولا أذكر أني دخلتها إلا مرة واحدة ، ولكني لم أتناول
فيها الطعام قط ... دخلت وأنا أتلفت حولي ، وكان الضوء فيها غير
ساطع ، فلم يقع بصري في الحجرة على أحد . وألقيت نظرة على الحوائط
فوجدت صفحةً مملوءةً بنماثيلٍ لا فائين من الفاكهة كبيرة الحجم .
فقلت لـ « سنية » : نأكل كل هذه الفاكهة ؟

وأرسلت ضحكة عالية ، فسمعت صوت « الباشا » يقول :
سندم لك من الفاكهة الجنسيّة ما هو أطيب منها !
فالتفتُ صوب الصوت ، فألقيت « الباشا » ينظر إلى « باسم الثغر »
وتلاقت نظرانا ، وطالعتني على الفور وجه كبير اللصوص البحريني ،
خففت من بصري ، وقلت متلعثمة :

عفوا ... لم أكن أظن أنك هنا يا عمي ... !

— اجلسي ! اجلسي ! لا حرج عليك ...

وكان مجلسنا على هذا الترتيب : « الباشا » في الصدر ، وأنا عن يمينه ،
و « سنية » عن شماله ، و « مدموازيل شانتل » قُبالة ، ولم أكن قد
أحسست قدومها ، ولكني رأيتها فجأة تحتل مقعدها وبدأ الطعام ،
وكانت « مدموازيل شانتل » أشبه بالدُممية التي تتحرك باللوب ، تتجلى

الصلابة في كل حركاتها، تحمل وجه مشنوق ، لا تلفظ الكلمة إلا بشقّ النفس ، فلم أعرف وجودها أي اهتمام ، وأقبلت أصغى إلى «الباشا» وقد مضى يحدثنا حديثاً لطيفاً يصف به عهد حداثته حين كان يماثلنا في السن ، ويشرح لنا مكايده في معاملته للناس . وعرج في حديثه على الريف ، فروى لنا بعض نوادره مع الفلاحين ، وجعل يصوّر لنا الحياة في القرى أجمل تصوير ... والحق أني قضيت موقتي في هذه الجلسة هائلة ممتعة ، وما كنت أحسب أن «الباشا» على هذا النحو من الإيثار وعذوبة الحديث . ووجدتني أترك نفسي على بيجيتها ، ولا حظت أني أسرفت في الضحك ، وحانت مني التفاتة إلى «مدموزيل شانتل» فرأيت علام الشميزاز مرتسمة على وجهها بوضوح ، تحولت بصري إلى «الباشا» فوجدته يبتسم إلى في لطف بالغ ، وكأنه يشجعني على الاسترسال في الضحك ، غير مبالية بتلك «المدموزيل» العبوس !

وقد أكرت من الطعام في شهية . وكان «الباشا» هو الذي يضع الطعام بيده في صحفي . وقبل انتهاء الأكل استأذنت «مدموزيل شانتل» في الانصراف ، فرأيت «سنية» تتبعها النظر في حيرة .

وسمعتها تغتمغ : إنها لم تأكل الفاكهة !

فقال «الباشا» بلامبالاة : سترسلها إليها في حجرتها ، فهي تفضل ذلك . وجعل يستأنف حديثه ... وبعد أن أكلنا الفاكهة أحضروا القهوة و«الباشا» فأخذ يحتسبها على مِسْهَل . وقد انطلق يدخن ، ورأيتة يستغرق في التفكير برهة . ثم التفت إلى «سنية» قائلاً :

ألاحظ أنك متعبة هذه الأيام يبدو على وجهك ذبول ومهزال ... أنت محتاجة إلى الراحة . لقد فكرت في إرسالك إلى الضيعة .

فقلت « سنية » كأنها تكذب أذن : إلى الضيعة ؟
— تقضين هناك نحو أسبوع ... أحسب أنك لا يطيب لك المقام
هناك إلا إذا صحبتك « سلوى » .

والثفت إلى على الفور يقول : مارأيك ؟ أسبوع في الضيعة مع
« سنية » ، تركبان الحجر ، وتنزهان في الحقول ، وتصطادان السمك ...
ولا تنسى أن هناك حديقة فيساحة تجريان فيها ماطاب لسكا الجرى .
وصفقت « سنية » مهتاجة تقول : الضيعة . « سلوى » . الحقول ...
وقامت إلى أبيها تعانقه ، وقال « الباشا » : ولكن مارأي « سلوى » ؟
فقلت وقلبي يشتد وجيبه : لا بدّ أولاً أن أستاذن والدتي .
فقال « الباشا » : قولي لها إن « سنية » تدعوك لقضاء أسبوع في الريف .
وكان ينفخ دخان لفافته على نحو رائع .
وقال متابعاً حديثه : أذهبت إلى الريف ؟
— كلا !

— إنك كـ « سنية » لم تطأ قدمها الضيعة !
ورفعت « سنية » عينها إلى أبيها وقد أظلم وجهها عبوس وهي تغمغم :
و « مدموازيل شانتل » ؟
فقال « الباشا » « بئسما » :
أيّ الأمرين تختارين ؟ أن تسافر معك أم تبقى هنا ؟
فبكست « سنية » رأسها . وقالت : لا أدري ... لا أدري ...
فقال « الباشا » : تبقى هنا .
فقلت « سنية » : وماذا تفعل وحدها هنا ؟
فقلت على الفور : امنحوها إجازة !

فقهه والباشا ، وقال : فكرة عظيمة ! إن لها أهلا في الإسكندرية ،
يمكن أن تقضى عندهم أسبوعا !
والتفت إلى ابنته يقول : ولكن يجب أن يرافقكما أحد !
فقلت : « الدادة شيرين » !

فضرب الباشا المائدة بيده وقال : فكرة أعظم من الفكرة السابقة .
وفي هذه اللحظة دخلت « الدادة شيرين » تحمل لفيفة في يدها .
فإن أبصرها « الباشا » حتى صاح : لقد وقع اختيار « سلوى » عليك
لتصحبها هي و « سنية » إلى الضيعة !
فأشرق وجهها المستدير المقبَّب ، واختلج جسمها البدين المترهل ،
وقالت في صوتها الهادي ولهجتها المحببة : بارك الله فيها وهيئ لها الخير .
ووضعت أمامها اللفيفة قائلة : لقد أحضر « جميل » السائق ما أمرته به .
— حسنا ...

وخرجت « الدادة شيرين » فتناول « الباشا » اللفيفة ، فإذا هي
علبة نخمة من الحلوى ، وسمعته يقول لى : إنما هدية من « سنية » إليك .
— أنا ؟ !

— نعم أنتِ ، هدية صغيرة من صديقتك !
وناولنى العلبة فأخذتها وأنا مضطربة ، ثم رأيت « الباشا » ينفض قائلا :
لقد اتفقنا على كل شيء ، ونحن منتظرون استئذانك لأمك في شأن السفر .
ودنا منى يلاطف خدسى مبتسما ، ثم غادر حجرة الطعام .
وفتحت العلبة فإذا هي تزخر بالفاخر من الحلوى ، فأعطيت « سنية »
منها ، وأخذت لنفسى شيئا ، ومضينا نأكل فى مَرَح ، وبغثة رأيت
« سنية » تحوطين بذراعيها ، وتضمنى بشدة إليها وهي تغمرنى بقبلاتها !

ما إن فرغت أمى من تناول فطورها حتى دخلت عليها فى حجرتها
وهى ترتبم ، وفى يدها بعض الأوراق المالية تفلها ، لحييتها تحية
الصباح ، فردت التحية دون أن ترفع عينها عن الأوراق ، ثم قالت :
هذا ربيع بعض أملاكنا !

— حسناً ... لقد كنت أمس عند سنية .

— أخبرتنى بذلك د أم يونس . وكيف هى ؟

— ليست على مايرام !

فرفعت أمى نظرها لى وقالت : أمرىضة ؟

— إنها متعبة ، ومحتاجة لى تغيير الهواء !

فصادت لى أوراقها المالية تسمى بها وترتها ، وقالت :

أبناء السرة دائماً يشكون تروك الصحة ... وللى أين يريد

أن يرسلها أبوها لتغيير الهواء ... لى الإسكندرية ؟

— بل لى الضبعة !

ووجدتها تدس الأوراق فى صدرها وتقول : لى الضبعة ؟ ...

فكرة حسنة ! ... لقد سمعت أن لهم هناك قصر أ وحديقة واسعة .

— هكذا قال الباشا .

— وهل لقيته ؟

— نعم ! وقد تناول الطعام معنا أنا و سنية ، و المدموازيل ..

ونفشت أمى دخان لقاقتها دفعة واحدة ، وقالت :

- تناول الطعام ممكن؟ ...
- وانطلقت منها ضحكة عابثة ، ثم عادت تترنم ، وبفئة انقطعت عن الغناء ، وقالت : ولكن لماذا قال لك إن له قصرأ وحديقة في الضيعة؟ فنظرت إليها في تضرع صامت وأنا أبسم ، ثم أمسكت يدها ولاطفتها ، فقالت : آه ... فهمت !
- فقلت على الفور ، وأنا أشدد على يدها :
- إن وسنية ، تدعوني إلى الذهاب معها لقضاء أسبوع .
- وهل هي التي دعتك ؟
- دعني بلسان والدها... ليس لها — كما تعلمين — أن تقرر شيئاً دون موافقة الباشا ،
- مفهوم ، مفهوم ... ليس لها أن تقرر شيئاً ... ولكني أسأل هل الفكرة فكرتها ؟
- الحق أن الفكرة كانت عارضة أثناء الحديث ، ولو كان الباشا .
- قد ترك وسنية ، الوقت لأبدتها من تلقاء نفسها .
- حقاً ! ... حقاً ! ...
- لأنها تحبني أصدق حب .
- شيء واضح !
- وفتحت علبة لفافها ، وجعلت تنظر فيها ، ثم أخرجت واحدة .
- فأشعلتها في بطة ، وقالت واللفافة في فها :
- وهل يذهب الباشا ، إلى الضيعة أيضاً ؟
- كلا ...
- وكيف علمت بذلك ؟

- لم يتحدث إلينا في شأن سفره ، بل كان جمل حديثه يتعلق بسفر
« سنية » و « الدادة شيرين » .
— و « المدمازيل » ؟
— سيمنحونها إجازة .
— وبماذا أجبت حين دعاك « الباشا » ؟
— أجبتُه بأنى سأعرض الأمر عليك .
— وماذا قال فى ذلك ؟
— قال : يجب استئذان أمك !
وأخذت تدخن برهة وهى صامتة .
ثم قالت وهى تنظر إلى الدخان المتطاير : كثير أن تغيب هناك أسبوعا ...
ماذا تفعلين فى هذا الأسبوع ؟ لو كنت مكانك لما استطعت المسك
أكثر من يوم واحد ... من يطيق سسكنى الريف ؟
— حسبي بضعة أيام .
— وتركيتى هنا وحدى ؟
— لا أغيب أكثر من يومين إذا أردت !
— أنا لا أريد أن أحرملك هذه الزهرة ، بشرط ألا تزيد على يومين .
يجب ألا تسكونى ضيفة ثقيلة على الناس مهما يظنوا لك الرضا !
— إن أغيب أكثر من يومين !
وقبلتها وقبلتى ، ثم قلت لها وأنا مهتاجة :
وقد أهدت إلى « سنية » علبة من الحلوى !
— علبة من الحلوى ؟ ... أين هى ؟
وهرعت إلى حجرتى ، وعدت أحمل العلبة ، فأخذتها أمى ، وجعلت

تقلبها وهي تقول : لا بأس بها !
وفتحتهما ، وجعلت تنظر فيها طويلا ، بيد أنها لم تصف بكلمة واحدة
نخامة الحلوى ، وأخذت منها قطعة ، وهي تقول :

« سنية ، هي التي أهدتها إليك ؟
— نعم ، ولكن « الباشا ، هو الذي أوصى بإحضارها !
وجعلت تلوك قطعة الحلوى في فمها قائلة : مفهوم ! ... مفهوم !
ثم انطلقت منها ضحكة غريبة ، فقلت : لماذا تضحكين ؟
— لا شيء . لا شيء . تذكرتُ حادثاً تافهاً أضحكني ... أخبريني
كيف كان حديث « الباشا ، ممكن على المائدة ؟

— كان مسلياً ، روى لنا أقاصيص ونوادر من عهد حدثته .
وتناولت أُمى قطعة أخرى من الحلوى . وقالت :

يظهر أن له أوقات صفاء !
ورأيت في هذه اللحظة « أم يونس ، تدخل الحجرة ، وهي تهج ،
فقلت لها أُمى : ما الخبر ؟ !

فنظرت المرأة إلى « ، ثم التفتت إلى أُمى ، وبعد صمت مبسوط قالت
في تباطؤ : قدِمَ « حمدى أفندى ، وهو في البسوة ...
فقلت في دهشة لا تخلو من غيظ : « حمدى ، ؟ !

وقالت أُمى : من « حمدى ، هذا ؟
فقلت : إنه صديق الطفولة ... عرفته قديماً عند « سنية .
— آه ... يخيل إلى أنى سمعته مرة تتحدثين في شأنه .
وقالت « أم يونس ، : ماذا يجب أن أقوله له ؟
فقلت في اندفاع :

قولى له إني مريضة ، أو قولى أى كلام آخر ... لا أريد أن ألقاه
فنظرت إلى أمى تنفحصى ، ثم قالت : ولماذا لا تريد أن تلقاه ؟
— لأنى ... لأنى غير متأهبة للقائه .

فابتسمت أمى وقالت : ولكن ليس هذا من الذوق فى شيء !
فالتفتت إلى د أم يونس ، وقالت : أدخله حجرة الزوار .
ونظرت إلى تقول :

سأنزل إليه ، وسألقاه نائبة عنك ... ولكن يجب أن أغير ثوبى .
ووجدتها قد تركت مقعدها ، وقد أخذت معها علبة الحلوى ،
وفتحت خزانتها ، ووضعت العلبة فيها ، وطفقت تعرض أثوابها .
وخرجت أنا إلى الردهة ، ومن ثم نزلت إلى الطبقة الأولى ...
ودخلت حجرة الزوار ، وما إن وقع بصرى على د حمدى ، حتى
اختلج جسمى اختلاجة فزع .

لقد شهدت له شاحب الوجه ، غائر العينين ، يتصبب العرق غزيراً
من جبينه ، ورأيت يده بالمنديل ، ثم مدها إلى وهو يقول :
أقسم لك إني كنت أمس فى حالة يرئى لها من وعكة المرض .
واشد شحوب وجهه ، ورأيت يده يغمض عينيه ، ويمسك بجبهته .
وشعرت حين صاغت به بأنه محوم ، فقلت : اجلس . استرح . ما بك ؟
جلس وعيناه مازالتا مغمضتين ، ثم غمغم : أنا اليوم أحسن حالا .
وضغط يدى ، وفتح عينيه قليلا ، وهو يقول :

أرجو ألا تكونى مستاءة ...

— كان يجب أن تظل فى فراشك !

— بل وجب على أن أحضر لك كاشفك بعدى .

— ولم لم تبعث إلى رسالة ؟

— خشيت ألا تصدقني !

ودخلت « أم يونس » بالقهوة ، فتناول كوب الماء وكرّعه دفعة واحدة . ثم انطلق يمسح العرق الساج على وجهه ، وبعد حين مضى يحسّى القهوة ... وقال وقد أفرّث ثغره عن ابتسامة كاسفة :
أشكر لك ... الحمد لله ... أشعر بتحسّن كبير .

ودخلت أمي في هذه اللحظة ، وكانت مزينة معطرّة ترتدى ثوباً يكشف جانباً من صدرها ، فقلت لها :

حضرتي الأستاذ « حمدي » الموسيقّ الفنان .

والنفتّ إليه وقلت : والدتي !

وانحنى « حمدي » على يد والدتي وقبلها في أدب ، وهو يقول :

تشرفنا « يا هانم » !

— تشرفنا يا « بك » ... من الغريب أنك صديق ابنتي منذ الصغر ،

ولم أرك حق الآن . لم تزرنا قبل هذه المرة .

— حقاً لم أزر هذا المنزل قبل الآن ، ولسكني كنت أتردّد على

منزل « الإسكندرية » .

— أوه ... هذا عهد قديم جداً !

وصمتت والدتي برهة ، ثم قالت : هل حضرتك موظف في الحكومة ؟

— كلا ، بل لاني أعطى دروساً خصوصية في الموسيقى والرسم .

— حضرتك رسام أيضاً ؟ ... شيء جميل ... أعرضت صوراً

في المعارض ؟ ... ذكررتني ... إن معرض رابطة الفنانين الذي أقاموه

الشهر الماضي في « الكونكتال » كان عظيماً جداً !

— لم أتمكن من مشاهدته مع الأسف ، ولم أعرض فيه شيئاً .
— إذن عرضت في غيره .

فطأطأ هامته ، وقال : ليس لدى صور أعرضها ... أنا معلم صغير
فوجدتني أقول : إن « حمدى » متواضع يا أمى ، ولعل هذا هو
السبب فى غط حقه دائماً ... إن كثيراً من القطع الغنائية التى يسمعونها
الناس فى « الرّڭڭيو » هى من تلحينه ، ولكنه لا يذكر اسمه .
فقلت أمى لـ « حمدى » :

— إذن حضرتك تمكسب من تلحينك لمقطوعات الغناء ؟

فقال « حمدى » وهو يعبث بأصابعه :

أكسب ما هو ضرورى لمعاشى .

— أتقيم مع أسرّتك ؟

— بل أقيم وحدى .

فابتسمت والدتى ابتسامة لا يخفى معناها ، وقالت :

إن الفنانين يهوون حياة الانفراد .

فرفع بصره إليها وقال : لى أحيا هذه الحياة ، لانى بلا أهل .

— بلا أهل ؟ ... كيف ؟

— يجوز أن يكون لى أهل لا أتذكرهم ، ولكنى لا أعرفهم ولا
يعرفوننى .

— شىء غريب !

— لى أسكن وحيداً فى قرية بجوار « الأهرام » ...

وخشيت أن يفضى أمام والدتى بشىء من أمرى يارتق على غير

قصد ، فخنزت له غبزة فهمها ، فابتسم قائلاً : إنه ليسرنى أن

قشر فني ، الهانم ، ودسوى ، ... إن منزلى بسيط جداً ، ولكنه يستطيع
أن يرحب بزيارتكما .

فقلت والدتي على عجل : إن شاء الله ! ... إن شاء الله ...
ونفض دحمى ، مستأذناً فى الخروج ، فذت له أمى يدها وهى
تقول فى لهجة رسمية :

فى الوقت سعة ... لماذا أنت متعجل ؟
— إنى أشكر لك حسن ضيافتك يا دهانم ، ...
وقبل يدها فى تبجيل ، ثم صاغت وضغط يدى ، ومضى إلى الباب .
والنفت والدتي إلى تقول :

لم يكن ينقصنا إلا هذا الموسيقى تعقدين بينك وبينه صداقة !
— إنه شاب طيب مخلص .
— حسبك ! ... الطيبة والإخلاص وحدهما لا ينفعان فى .
هذه الدنيا ...

وسرنا بضع خطوات صامتتين ، ثم قلت لوالدتي :
سأرسل أم يونس ، إلى دسنية ، لتخبرها بقبولك دعوتها لى .
ولتسألها عن موعد السفر .

فأجابت وهى تجدد فى سيرها :
فليكن ... فليكن ... أرسلها !

ما أسفر صبح يوم السفر حتى شرعت أعدّ أشياء ، فلما أعددتها لم يبق إلا أن أضعها في حقيبة ، فسألت أم يونس ، أن تأتى لى بها ، فوجت المرأة وقالت : ليس عندنا حقائب !

— ليس عندنا حقائب ١٩٠٠

وعجبت كيف أنى لم أهتم بهذا الأمر قبل الآن ، وكيف لم يخطر ببالى أن أدبره أمس . ووقفت أكاد أتمنّ من الغيظ ، وقد وضعت يدي في خصرى ، وصحت بـ « أم يونس » أطلب لى بها أن تحضر لى حقيبة في الحال .

وتناهت صيحتها إلى أمى فجاءت تسأل ما الخبر ، فأنبأتها « أم يونس » بالامر ، فابتسمت طويلا ، وهى تداعب سلسلة فى يدها . ثم قالت « لأم يونس » : اذهبي فأتينى بحقيقتى فى حجرة الفرش . فبادرت بقولى :

أية حقيبة يا أماه ؟ ... تلك التى احتكرتها القبط لصغارها !

— احتكرتها القبط لصغارها ؟ ما هذا الكلام ؟

— لأنها مزوّقة ، وليس بها مفتاح !

— يمكن ربّطها بالجبل .

— لا أحتمل نظرات السخرية التى يرشّحنى الناس بها .

— إذن عليك بشراء حقيبة جديدة ... أمعك ثمنها ١٩

فلم أجب ، وواصلت أمى قولها : إذن لماذا التعالى والتكبر !

— سأضع أشياء في صُرَّة .

— كما يحلو لك !

وخرجت وهي تداعب السلسلة . ولاحظت أن « أم يونس »
ليست في الحجرة ، فخرجت أناديها فلم أسمع لها ردًّا ، فازداد حنق
عليها ، وعدت إلى حبرتي ، واستلقيت على المقعد ، وقد زهدت في
السفر ... وبعد قليل دخلت « أم يونس » وأنفاسها تتتابع وهي حاملة
حقيبة لطيفة ، فقفزت من السرير وقلت : من أين جئت بها ؟

— ضعي أشياءك ، ولا تضيعي الوقت في كلام !

— أراهن على أنها من « الست فتحية » ...

— قلت لك ضعي أشياءك وكفى !

وانهمكنا نضع الأشياء في الحقيبة ، ثم أقفلتها بالمفتاح ، ثم وضعته
بغناية في محفظتي ... وجعلت أرتدى ملابس في عجلة ، إذ تبين لي
أن الوقت قد أزف ، ولم يخطئ تقديرى . فسرعان ما سمعت نفير
السيارة يدعوني إلى النزول .

خرجت من الحجرة و « أم يونس » خلفي تجر الحقيبة ، فوجدت
أمي في الرَّدهة . فسارعت إليها وقبلتها قبله الوداع ، فاستجابت لي
بقبلة عابرة . وما إن وقع بصرها على الحقيبة حتى صاحت : ما هذا
يا « أم يونس » ؟ ... إنك تسيئين إلى كرامتي بهذا العمل المذموم !
— أى عمل ؟

— لقد حذرتك أن تستعيرى شيئاً من أحد ... أين أخبا
وجهى من الناس ؟

وسمعنا نفير السيارة يتعجلنا ، فضيت أعين « أم يونس » على

حمل الحقيقة وأخذنا نهبط الدرج . وسمعت أمي تقول :
إن من يراك بحقيقتك هذه يحسبك راحلةً إلى «أوربا» ،
ورنّت ضحكها في سخرية ... وما إن بلغت السيارة حتى احتضنت
«أم يونس» بشدة وقبلتها في حضنٍ بالغ . وركبت وأنا أحسّ «سنية»
و«الدادة» شيرين ، في صخب واهتياج ، ولما تحركت بنا السيارة
التفت إلى «أم يونس» فوجدتها بجوار الباب تحدّق فينا مبتسمة وهي
تمسح عينيها ، فباغتتني كآبة وأسى ، واستغرقت في تفكير .
وبعد حين سمعت «سنية» تقول : انظري . انظري .
فانتهت من أحلامي ، ونظرت فإذا بموكب من صغار الكشافات
يسرون بخطوات راتبة منظمة على قرع الطبول ، وهم يؤدّون بصفيهم
لحنًا من ألحانهم الساذجة ، وعلى وجوههم طلاقة وبشر ، ورأيت
«سنية» تحييم بيدها وهي تضحك ، فالتفت إليها «الدادة» شيرين ،
بوجهها اللامع البراق ، وقالت وقد تجلّت عليها علامة الجد والوقار :
لا تضجّني بالضحك على هذا النحو يا بنتي
ثم وجهت إلينا معاً قولها : إن سيدى «الباشا» قد أوصانى بأن
أرعاكما ، وألا أترككما على هواكما .
فبادلت أنا و«سنية» النظرات ، ثم علا صوتنا بالضحك .
فصاحت «الدادة» شيرين : لماذا تضحكان ؟ أفى قولى ما يثير هذا الضحك ؟
فقلت لها وأنا أشدّ على يدها : لقد رأينا قطعًا أجرب يتواثب أمام
السيارة كأنه ألبان ... لقد أضحكنا منظره يا «دادة» .
واستأنفنا الضحك ، وسمعنا «الدادة» تقول وهي تضحك معنا :
لقد رأيتَه يفرّ بين عجلات السيارة . كادت تقصم ظهره ... !

وبعد حين تخطت السيارة حدود القاهرة ، ومضت تسير في طريق
معبّد تكتشفه المزارع . وسرّحت مبصرة في الحقول معتبلةً وأنا أستقبل
النسيم الفواح . ورأيتُ فيما حولي أشجارَ القطن يتناثر فيها نسواري
البنفسجى ، ومررنا ببعض البيادر حيث ميدرس القمح بالنوارج
فقلت : الدادة شيرين :

طالما ركبت هذه النوارج ، وسقت الثيران ، في عهد جداتى .
فقلت : أكانت نشأتك في الريف ؟

فقلت : سنية : إنها من بلاد الفلاحين !
فبادرت : الدادة ، تقول في حدّثة : ماذا تقولين ؟ أفلاحة أنا ؟
فرايت : سنية ، تربت ذنن : الدادة شيرين ، وهى تقول :
لا تغضبى ... لا تغضبى ... أو قلت لأمك فلاحه ؟ !

ثم حدّقتُ في وجهها برهة وهى تبسم ، وقالت : لى أحبّ فيك
و طابّع الحسن . هذا الطابع الذى يزين ذقنك . لى أحبه أعظم الحب !
ثم انبرت تدغدغها ، فإذا المرأة تتأود ، وإذا بها فى ثورة تضحك
وتخلط الضحك بالتمنّع والاستنكار .

ومررنا ببندر شاسع تعمل فيه عدة نوارج ، فقلت : للدادة :
وهل نستطيع أنا و سنية ، أن نركب النوارج فى الضبعة ؟ !
فقلت وهى تلفظ كلماتها على ررسل : تركبين النوارج أنت
و سنية ؟ ... هذا أمر قد أفكر فيه حين نكون فى الضبعة !
فقلت : سنية ، وهى توجه نظرها لى :

ولكن أليس فى ركوبها من خطر ؟ ألا تجرها الثيران ؟
فقلت : لسنية : أىّ خطر ؟ ... ألا ترين الاطفال يعتلونها وقد

أخذوا يسوقون الثيران في سهولة ويسر ؟

والثفت إلى « الدادة » ، وقلت : وستركب معنا « الدادة » ،

فقلت : أنا أركب النورج ؟ ماذا تقصدين ؟

— لتراعيانا وتمعّنى بأمرنا ...

... سننظر في هذا الأمر ... سننظر فيه حين نصل إلى الضيعة !

ووجدتها تبترد السائق بصيحتها ، قائلة له : دفّتي النظر أمامك

وحذار أن تغفل . مالي أراك تتأيل تأيل النيام ؟

ورأيت السائق لا يعقّب على قولها بشيء ، وإنما اقتصر على أن يهز

كفيه بلا مبالاة ... وظلت السيارة ماضية بنا بين الحقول ، واسكني

لاحظت أن الطريق لم يعد معبداً ، فقد جعلت السيارة تهتز ، وراح

رأسى يصطدم بسقفها كلما اهتزت ، فكان في ذلك مثار للضحك .

واضطرب السائق أن يهون من سرعته ، إذ ضاق الطريق ، واعترضته

السقّوات ، وتزاحمت أشجار السنط المشتبكة على جانبيه ، وكنا نمر

بزرافات ومحدان من الفلاحين يَمْضون إلى أعمالهم مترجلين أو

على ظهور الدواب ... فأما المشاة فكانوا يتحيدون عن وسط

الطريق ويعثون إلينا عوابر النظرات ... وأما الراكبون فكانوا

يتابعون سيرهم وقد تدلت أرجلهم الطويلة حتى كادت تلامس أديم

الأرض وهم غير مباليين بدنو السيارة ، فلا يجسدهم السائق بدا من

الوقوف حيناً والتباطؤ حيناً آخر .

وفي بعض الطريق كنا نصادف زُمرّاً من الصّبية فأراهم يقبلون على

السيارة ولا يفتأون يقبعونها ويتعلقون بها من الخلف متهللين متصايحين .

كان كل شيء يدعو إلى الغسطة ، بيد أني ضجرت من ذلك الغبار

المتطاول الذي كان ينال علينا فتضيقُ به أنفاسُنَا أيّ ضيق .
وأخيراً وصلنا ... وتملت السيارة وهي تقترب من الضيعة ،
فإذا بي أرى القصر قائماً وسط أكواخ الفلاحين المتواضعة ، يستقبلنا
بهامته البيضاء عليها غبرة . وكان الطريق المؤدى إليه يقوم على جانبيه
صفان من الأشجار في استواء ، وتعرض منتصفه تربةً اجتزأها على
جسري من الخشب ، شعرتنا به يهتز تحت عجلات السيارة ، وسمعنا له
قطعة واضحة ، فتأسكتنا بأيدينا ، وقد أخذ منا الملح كل مأخذ .
وما إن دنت السيارة من الباب حتى لمحنا جمشعاً من موظفي الضيعة
يقربون منا . وهم رجع إلينا رجل أشيب ، مصلب العود ، يرتدى
الجلباب البدويّ والمعطف ، ووجه الأسمر الممتلئ المضرج بنضرة
الصحة يتطلق تحية ومؤانسة . فبادر إلى الباب يفتحه وهو يكرر من
كلمات الترحيب . والتفتت إلى « الدادة شيرين » وهو يقول :

أهلاً وسهلاً بأمي !

ومدّ نحوها يده لتستعين بها على النزول ، فتحتت عن يده وهي تغمغم :
أمك ؟ ... الأفضل أن تقول إنني جدّتك ! لا تكلف نفسك عناء
في معاوئتي ! ... أستطيع أن أنزل دون أن أستعين بأحد .
فلم يأبه لقولها . وإنما دنا منها يأخذ بيدها ، فما كان لها أن تستطيع
النزول من السيارة دون أن يعينها .

وقال لها : لا تغضبي ... لن أدعوك أمي ... أهلاً وسهلاً بأختي !
وما كادت قدماها تثبتان على الأرض حتى ردت يده وهي تقول :
الحق يا مصطفي أغندى ، أنى لا أميل اليوم إلى الهزل ، فدع
هذا المزاح !

وكنْتُ أنا و«سنية» نضع منديلنا على فئنا نَكْتُمُ به ما يكاد ينبعث من الضحكات .

وأحاط بنا جمعُ الموظفين ، وكانوا أخلاطاً بين لابسِ لبدة أو حمامة أو طربوش . فأقبلوا علينا يحيوننا واحداً تلو الآخر ، وقد يفتحن أحدُهم على أيدينا فيقبلها .

ورأيتُ مدخلَ الحارة التي فيها مساكن الفلاحين قد اكتظمت بالنساء والأطفال ، وكانوا يشربون بأعناقهم ويتناولون برءوسهم لئلا يزحم بعضهم بعضاً .

ودخلنا القصر أنا و«سنية» ويدي في يدها . وكان «مصطفى أفندي» يتقدمنا وهو يصدر أوامره للاتباع ، على حين كانت «الدادة شيرين» تزمّم خلفنا في خطو كسيح ، وهي تصيح بنا أن نتمهل . ونادت «مصطفى أفندي» فرجع إليها ، فاعتذلت في وقتها ورفعت رأسها شاحخة الأنف ، وقالت له :

حضرتك «ناظر الزراعة» في الخارج . أما في القصر ...

فلم يدعها الرجل تتم جملتها ، وإنما بادربقوله ، وهو يتسم بتسامته الساطعة :

أما في القصر حضرتك «الناظرة» ... مفهوم !

كان المنزل عجيب الشكل ، على طراز عتيق ، له بهو طويل مُعشَم ، يقوم على جانبيه صَفان من الحُجَر ، واستقبلتنا على الباب فلاحه عجوز كأنها دجاجة هَرَمَة منسولةُ الريش ، ولكنها على الرغم من علوّ سنّها كانت تبدو عليها مخايلُ النشاط ، وما كادت ، الدادة شيرين ، تراها حتى مدّت إليها يدها في مظهر من التعاضم قائلة :

كيف حالك يا د أم نجم ، ؟

فأسرعت المرأة تقبل يدها وهي تقول :

أطال الله عمرك يا ست د دادة ،

والتفتت إلينا ، الدادة شيرين ، وقالت : هذه د أم نجم ، العجّانة

ستعمل لكا الفطير ، المشلت ، ، وتطبخ لكا الفريك الفاخر !

وتقدمت منا الدجاجة الهرمة والبشريسطة على وجهها ، وصاحتنا

وهي تقول : سأعمل لكا كل ما تطلبانه منى . أنا خادمتكا .

ووقفت تتأملنا وهي تقول : ماشاء الله ، ماشاء الله ... زادكا الله

محسناً وبارك فيكما . عروسان ، ما أملحسكما !

فقالَت « الدادة شيرين » ، على الأثر :

تقدّمينا إلى الحجرة ، ولا تشكّثرى من الكلام ...

فأذعنت المرأة الأمر . وتقدّمسنا لِمَتَرِينا حجرَ المنزل ، فدخلناها

واحدة إثرَ الأخرى ، فإذا هي متشابهة في أنماها الساذج القديم ،

ونظامها الرينىّ الراتب ، إلا حجرة واحدة كانت تمتاز عن الأخريات

بأريكة فسيحة ، وصوران عريض للبلابس عليه مَسحة من الوجاهة .
وقد اخبرتنا « أم نجم » أن هذه حجرة « الباشا » وأنها له خاصة .
ولبئذ « الدادة شيرين » تناقش « أم نجم » في شأن الحُجَجر ، وأَيُّها
أطيب هواء وأكثر تعرضاً للشمس . وقد أطالت تطواقها وواصلت
حديثها حتى بلغ منها الإعياء كل مبلغ . فتهالكت على مقعد ، وهي تلتقي
بأوامرها إلى العجانة مبهورة الأنفاس ... وخرجتُ أنا و « سنية »
إلى الحديقة فإذا بها ساذجة مهوشة لا نظام فيها ولا ترتيب ؛ تحسب
شجرها الكشف المتلاقى بعضه ببعض قدنما على الفطرة ، وكانت ساذغة
الظلال ، يتدفق الماء في قنواتها . وقد أثقلت أشجارها ثمار المانجو
والبرقوق ، وتدلّت من عرائشها عناقيد العنب . فانطلقنا نعدو
لا نعرف أين نقصد ، وقد نقطف الثمر من أغصان الشجر فنأكله .
وقد نتراشق بالقشور والنوى ، وقد نرتبى على الحشائش الرطبة
النديّة ونحن نتضاحك متصايحتين ، ونشرب من القنوات ثم نتقاذف
بالماء ونستأنف العدو في مراح .

وأدركنا التعب ، ونحن نعدو ، فاستلقيتُنا معاً على الأرض بجوار
أقرب شجرة منا ، وحانت منى نظرة إلى أعلى الشجرة ، فألفيت منفسى
أطيل التأمل فيها ، فقالت « سنية » : ليس فيها ثمرة واحدة !
— ليس من العجَب أن تكون خالية من الثمر .

— لماذا ؟

— ألا تعرفين لماذا ؟ إنها شجرة برتقال ، وقد انتهى موسمها .

— وكيف عرفت أنها شجرة برتقال ؟

فابتسمتُ وأنا أتلاعب بعود في يدي ، ولم أجبها بشيء ، فقالت :

لماذا تبسمن !

سـ لأن شجرة البرتقال هذه أذكرنى أمرا .

— أى أمر ؟

فلم أجب ، ومضيت أنكث الأرض بالعود ، فقالت : أسر هو ؟

— ليست أسرارى محجوبة عنك ... تذكرين ما أخبرتك به مرة

من أن « حمدى » دعانى إلى زيارته ، وأنى قصدت منزله بجوار « الهرم » ؟

— نعم ، وأذكر أنك شربت الشاي فى أحد الأندية ، وأنت

دخنت لفاقة كتبخ !

فأرسلت ضحكة طويلة ، وقلت : ما أحد ذا كرتك !

واقتربت « سنية » منى وهمست فى أذنى : وأنه قبلك !

فنجستها عنى فى دعاة وأنا أقول :

لا أذكر أنى قلت لك شيئا من هذا !

— أنا دمة أنت على أنك أفضيت إلى هذا الخبر ؟

— كلا ، ولكن اصدقينى : ماذا قلت لك فى شأن القبلة ...

أخبرتكم بأنها قبلة واحدة أم قبلات ؟

— أئمة قبلات أخرى غير قبلة النادى ؟

فخفضت من بصرى . وتمتمت : تحت شجرة البرتقال فى حديقة منزله !

فصاحت « سنية » : لم تخبرينى بهذا . أنت صديقة غير مخلصة ...

فأمسكت بيدها وقلت : وكانت الشجرة ما زال عالقا بها بعض

الثر اليباع ... كانت قبلة عذبة جميلة معطرة بأريج البرتقال ... !

وأدنت « سنية » وجهها من وجهى وقالت : لأنه يحبك !

فلاطفت خدها وأنا أبتسم وقلت : يجوز !

— لا تسخرى منى ... وإنك لتحيينه أيضا !

— هذه مسألة أخرى يا عزيزى !

— كيف ؟

— ليس الحب بالأمر السهل ... فلنخض فى حديث آخر .

— إذن أنت لا تحيينه ؟

— وهل قلت ذلك ؟

— إنى لا أفهم ما تبغين !

فتضاحت طويلا ، وطرق سمعنا فى هذه اللحظة صوت
« الدادة شيرين » وهى تأمرنا بالعودة ، فقمنا وأنا ممسكة بيد
« سنية » وقلت : يجب أن نهرب !

وجرينا نطلب مهرباً ، ونداء « الدادة شيرين » يقتفى أثرنا ونحن
نستخفى . وأخيراً اعتزمتنا العودة إلى المنزل ، فدخلناه والعرق يتصبب
من جبيننا ، فاستقبلتنا « الدادة » بقولها : أنا لا أحب العبث ... إن
سيدى « الباشا » رغب إلى فى أن أراقبك مراقبة شديدة . يجب أن ...
فهجمنا عليها ، وانطلقنا ندغدغها ونقبلها وهى تتضاحك مرة
وتنهرنا أخرى !

وتناولنا الطعام فى ركن من أركان البهو . وكنا نأكل فى شبهة
بالغة ، وأطربنا صنيع « أم نجم » . العجانة لإطراء أطربها وأبهجها ،
فأقبلت تعدد لنا الألوان التى اعتزمت أن تعيدها لنا كل يوم ، ونقول :
لأنها ألوان يستحيل على أمر غاه أن يجاريكى فى طهوها !
وما إن حان العصر حتى تركنا الدار مع الدادة « شيرين » ،
وقد اختمرت بخمار أبيض ، وانتعلت خفأ أحمر . وكان يرافقنا

« مصطفى أفندي » الناظر ، يتبعه على بعد خطوات أحد الخفراء سائراً بهامته المرفوعة وقامته المديدة الصلابة ، وشاربيه الغليظين المترافقين على فمه ، وهو يحمل بندقيته ويسعل بين فترة وأخرى ، كأنه يشعرنا بوجوده ، وبأنه لا خوف علينا ما دمنا في حماه ! ... وكانت طائفة من الاطفال يفتقون أثرتنا من بعيد ، وهم يهرولون في ثياب رثة مهلهلة ، ويتظرون إلينا بعيونهم التي تشبه عيون القططة ، ثم يقبل بعضهم على بعض يتهامون ، فالتفت إليهم « الدادة شيرين » وقالت في صيحة منكرة : تنحروا ... فلاحون ! ... أعجوبة نحن ؟ ... لماذا تنظرون إلينا على هذا النحو ؟

وما أسرع أن انتهرهم الناظر ، وأشرع إليهم الخفير ببندقيته تخويفاً ، فنفروا هاربين ، ولكنهم جمعوا جموعهم بعدحين ، وعادوا يتأثروننا لا يزالون !

ذهبنا إلى البيدر فقضينا فيه وقتاً نتفرج ، وكان منظر الثيران وهي تجر النوارج في حلقات القمح منظرأ جميلاً فيه تسلية . ولكنني لاحظت أن هذه الثيران تسير بحيثية الرأس تدفع بخطاها دفعا ، وعلى جسمها يسبح العرق . ورأيت أحدها - حيناً مرّ في دورته بالقرب منا - يرفع رأسه إلى وينظر بعينه المحمرتين . وكان بائن الهزال ، بارز عظام الظهر ، أصلم الأذن . فتأثرت له ، وأدركتني الشفقة عليه ، فقلت على الفور للناظر : من أي وقت دار هذا الثور ؟

— منذ الصباح .

— ألم يسترح فترة ؟

— إنه ينال من فترات الراحة ما فيه الكفاية .

— ولكن يجب أن يأكل ... ألا تراه شديد الهزال ؟
فضحك الناظر وهو يقول :
ومن ذا الذى يمنعه من الأكل يا « ست هانم » ؟ إن الحبوب
أمامه يصيب منها ما يشاء !
وسمعت « الدادة شيرين » تقول :
لا أسمح لسكا بركوب النوارج ... لا أسمح مطلقاً ... !
ولم تكن قد أبدينا أية رغبة ما ركوبها ، فلم نجبها بكلمة ...
ولما أردنا العودة سيراً على الأقدام كما جئنا لاحظ الناظر أن « الدادة »
بدأت قواها تنخور ، فأمر لها بدابة ، فامتنت عن ركوبها فى شدة
وجد ، وأبت إلا أن تمشى كما تمشى ...
وما إن خطت خطوتين حتى كادت تنكفئ على وجهها ، فأسرع
الناظر والخفير إليها يحميانها من السقوط ، ثم احتملاها إلى الدابة
ركباها إياها ، وهى ما فتئت تتمنع وتتأبى !

نعمت .. في ليلتي الأولى التي قضيتها في الضيعة — براحة لم أتذوقها
من زمن بعيد ، لقد نمت نوماً عميقاً صافياً لم يشبسه شيء حتى طائف
الأحلام . فلما استيقظت في رونق الضحى سمعت سحرة أثار دهنتي ،
فأرهفت السمع ، ولم يطل انتظاري ، فقد طرق أذني صوتٌ عرفت
صاحبه على الأثر ، فقفزتُ من سريري ، وقصدتُ على الفور فراشَ
« سنية » فألفيتها تتمطى ، فقلت لها : ألم تسمعي ؟

— ماذا ؟

— إن « الباشا » هنا !

— هنا ؟ مستحيل ! أراك نائمة تحلين !

فصحت بها قائلة : إنك أنت النائمة الحاملة ... لقد سمعته يسعل .

— إنه الخفير !

ودخلت « الدادة شيرين » فبادرتنا بقولها :

صه ! لاتصايحا . إن « الباشا » في البهو يتناول فطوره .

فحملت فيها « سنية » ثم تركت الفراش عجلى ، وخرجت إلى البهو
أما أنا فلم أشأ أن أخرج قبل أن أستكمل زيتي ...

وبعد حين تركت حجرتي ، فوجدت « الباشا » يتشرف قهوته ، وهو

يلاطف « سنية » ويداعبها . فما إن رآني حتى ابتسم قائلاً :

ما أرى حياة الريف إلا مدعاةً للكسل ... ماهذا يا « سلوى » ؟

ألا تستيقظين إلا الآن وقد بلغت الساعة العاشرة ؟

— أهي العاشرة الآن يا عمى ؟

— انظري !

وحيانى فى تظلف وهو يشير إلى ساعته . ثم قال : إنى قد مت لبعض أعمالى العاجلة ، وصلت إلى الضيعة فى قطار الليل وسأبرحها هذا المساء .

فصاحت « سنية » : هذا المساء ؟ ولماذا ؟

فنظر إلى قائلاً : إنى لا أريد أن أضايك !

فقلت : تضايقنا ... معاذ الله يا عمى !

وأرتقى « سنية » علبتين كبيرتين ، وفتحتهما أمامى وهى تقول :

علبة فطائر من « جروى » ، وعلبة حلوى مختلفة الأشكال .

وقال « الباشا » مبتسماً : إن « سنية » لا تفتأ تفكر فيك ... وقد

أوصتنى بأن أحضر لك هاتين العلبتين .

فرفعت بصرى إليه ، ثم حرفته إلى « سنية » وأنا أقول :

شكراً ... شكراً ...

وقال « الباشا » : إنك لم تتناولوا فطوركم بعد ... هيا إذن .

ألا تعرفان أنكما ستوزعان الثياب على صِبيّة الفلاحين ؟

— نوزّع الثياب ؟

— انظري ...

فالتفت حيث أشار ، فالفيت لفيفة كبيرة بها قطع من المنسوجات .

ذات الألوان الزاهية . وصاحت « سنية » تقول :

سوف يبلغ بهم السرور كل مبلغ . إن ملابسهم رثة مهلهلة .

وسمعنا « الدادة شيرين » تغمغم وهى تهنيئاً لنا مائدة الفطور :

إنكم تعوّدونهم الترف والترقّة . لماذا لا تطهون لهم الديوك الرومية

أيضاً وترسلونها إليهم ليَطعموها ١٩
وتناولنا الفطور و«الباشا» يفاكِهنا بحديثه الرقيق. ثم خرجنا
بعد ذلك إلى إدارة الضيعة ، فألفيناها تزخر بالموظفين ، وعلى رأسهم
«مصطفى أفندي» ، الناظر ، وقد ارتدى في ذلك اليوم حُلَّةً إفرنجية .
وأمال على رأسه طربوشاً زاهى الحمرة ، وأحكم قتل شاربه الاشيب .
فكان في منظره أشبه بالديك المنتفش الريش المزهو بعُرفه الأحمر
البراق ! ... ولحمت على البعد ركناً تكدست فيه لمة من الأطفال .
يحيط بها بعض الخفراء .

وما إن شعر الموظفون بقدومنا حتى أقبلوا سراعا على «الباشا»
وعليها يصاحوننا ، فشهدت منظراً رائعاً تجلى فيه الخشوع والإكبار .
وكنْتُ — كلما انحنى أحدهم على يدي يقبِّلها — أشعر بهزّة تنظم
جسدى كله !

طال بنا وقت المصافحة والتحية ، ثم أخذنا مقاعدنا . ولبت
الموظفون وقوفا خلفنا ، وقد وضعوا أمامنا قطع المنسوجات ، ثم أذنوا
للأطفال أن يتقدموا منا ، فهرعوا إلينا يتصايحون والخفراء من حولهم
يحاولون المحافظة على النظام ، وجعل «الباشا» يتناول الثياب قطعة
قطعة فينارلنى واحدة ويناول «سنية» أخرى ، فيعطى كل منا القطعة .
لمن يتقدم من الصبية . فكان كل طفل لا يكاد يأخذ نصيبه حتى يجرى
نحو البوابة وهو يثبُّ فرحاً وابتهاجا . وارتجت الساحة بأغاريد
النسوة وأدعيتهن ، وهن ينتظرن أطفالهن خارج «الدوّار» .

ولما أتممتنا توزيع الثياب ، رجعنا إلى الدار و«الباشا» ينظر
إلينا مبتسماً وهو يقول : إن قدومكنا الضيعة عيدٌ لهؤلاء الفلاحين .

لقد أمرتُ لأكراما لسا بأن يقيموا لهم جميعاً مأدبةً حافلة يعبرون فيها جفان التريد مكسلة باللحوم .

وقصد « الباشا » إلى الحديقة ، فتقضى وقتاً مع « مصطفى أفندي » الناظر يدبر معه شؤون الضيعة . ولما حان وقت الغداء أقبل علينا وقد جلسنا إلى الخوان فنتظر مقدمه .

وجاءت الصحاف ، فإذا هي وليمة عظيمة تعددت فيها الألوان ، فبدت على وجهي الدهشة ، فقال « الباشا » موجهاً حديثه إلى :

هذه تحية صغيرة لضيقتنا « ساوى » . . . إن « سنية » تتهز دائماً الفرصة لتؤكد لك تكريمها لصحتك !

فتبادلت أنا و « سنية » النظرات ، ولاح على شغرينا ابتسام . وبعد أن فرغنا من الطعام اقترح « الباشا » أن نلعب بالورق ، فراقنا الاقتراح ، وكان « الباشا » في لعبه ظريفاً غاية الظرف ، يلاطفنا بأشتات النوادر والمسلح ، ويختلس إلى أوراقنا النظر ، وقد يستل بعضنا منا في خفة وخفية ، فإذا فطننا إلى ما يصنع وصحنا به ، أعاد ما استله في مهارة وسرعة ، وانهرى يبرى نفسه في رقة وبشاشة !

وذهبنا أصيلاً إلى البيدر تصحبنا « الدادة شيرين » و « مصطفى أفندي » وقد كنا استأذنا « الباشا » في ركوب النوارج ، فأذن لنا في يسر ، ومن ثم ضربنا صفحاً عما تبديه « الدادة شيرين » من ممانعة واعتراض ، واعتلينا هذه المركبات الخشبية الصغيرة التي تجرّها الثيران ، وقد شملتنا البهجة والإيناس ، ورأينا « الدادة شيرين » تعرض رغبتها في مشاركتنا الركوب بدعوى المحافظة علينا . وما كادت المركبة تتحرك بنا حتى رأينا « الدادة » تصفق بيديها كالأطفال ، وأشدّها المهدلة تحتلج مرحاً .

وأمضينا وقتاً طيباً في البيدر نلهو ونلعب ، وامتطينا ظهورَ الحمر
نحول جولة صغيرة في حقول القطن . ثم رجعنا إلى الدار حين جَنَحَت
الشمس المسغب .

وبعد العشاء عدنا إلى اللعب بالورق ، وتوالت دَعَابَات «الباشا»
فلم ينقطع لنا ضجيج وصياح . وسعنا « الدادة شيرين » - وهي تجمع
الصّحاف وترتب أثاث البهو - تجمجم قائلة :

ما هذا الصياح ؟ شيئاً من الرزاة والعقل ... إن الصّخب لا يحمل
بغير الأطفال !

وبعد حين أدرك « سنية » الفتور والرخاوة ، وخذ لشاطها كله ،
واستبدّ بها الثأوب ، فوقفنا اللعب بالورق ، وقامت «سنية» إلى أبيها
فقبلته وقبلها ، وقصدت إلى حجرتنا على الفور .

أما أنا فلما أردت أن أصافح «الباشا» أوّدعه ، أطبق يده على
يدي ، وأخذ يتوسّمني طويلاً ، ثم انحنى علىّ فطبع قبلةً على جبيني ،
وأحسستُ به يدينني إليه ويطلّ التقبيل . ثم قال وهو يرتّب ظهري
في صوت مخفوض :

ثق أن إعزاي كلك لا يقلّ عن إعزاي ولسنية، ... أنت ابنتي
مثلها سواء سواء !

وتركتُه وهذه الجملة تدوّى في أذني . ومضيتُ أفكر فيها ،
وأستوضح الأسباب التي تدعو «الباشا» إلى أن يعطفَ علىّ هذا
العطفَ البالغ ، فيجعلني أشارك « سنية » في مكانها من قلبه !

قضى «الباشا» معظم وقته معنا في اليوم التالي ، فذهبنا جميعاً إلى الحقل ، وطفنا ببيارد القمح ، وقصدنا إلى المخازن حيث تكدّس الحبوب تلالاً عالية .

وكان «الباشا» فكها مهذاراً شديد الملاطفة ، وعجبت من نفسى كيف كنت فيما سلف من أيامى يتمسكنى الخوف حين أراه .
وأراد «الباشا» في الليل — بعد العشاء — أن يلعب معنا بالورق فأبدت «سنية» معذرتها من ترك اللعب . فقد كانت تشعر بصداع وترغب في أن تنام ، ففضت إلى الحجرة على الفور ، وأردت أن ألحق بها ، فأمسك بي «الباشا» وهو يقول : اجاسى قليلا ! ...
فأطعت ... وأشعل «الباشا» لفاقة تبغ ، وجعل يرسل دخانها على نحو أخذ بديع . وطال بيننا الصمت . بيد أن «الباشا» كان يثوالبني بنظراته وابتساماته ، فلم أجد مناصاً من مبادلته الالبسام .
وأخيراً قال : لقد أخبرونى بأن نعجة البستانى أنتجت الليلة حملاً .

— حملا ؟ ... أين ؟

— فى مسكن البستانى ، هناك فى الحديقة .

— وهل يسكن البستانى الحديقة ؟

— إن له كوخاً غير بعيد .

— لم أره ، مع أنى عجبت الحديقة طولا وعرضا ، أنا و«سنية» .

— إنه كوخ مستور بين الأشجار .

— والخمسل ؟

— يقال إنه جميل جداً !

— وددت لو رأيته ..

— إذا أردت ذهبنا الساعة إليه لتتفرج .

— الساعة ؟ !

— ولم لا ؟

— نحن في الليل يا عمي !

— أتخافين وأنت معي ؟

— ولكن ...

— لقد بزغ الهلال ، وهو على صغره ، يضني على الحديقة نوراً

غير ضئيل ... تعالى ... لا تسكوني كسولا !

وجذبني من يدي بلطف ، فنهضت معه ، وقصدنا إلى الحديقة ،

وكان نور الهلال حقاً يرسل أشعته الرقيقة فيبدد شيئاً من ظلام الطريق .

وأحس « الباشا » أحد الخفراء يتبعنا ، فأمره أن ينصرف لشأنه ...

وسارني « الباشا » ويده دائماً مطبقة على يدي ... ومضى يروى

نادرة وقعت له منذ الصبأ في هذه الحديقة نفسها ، إذ هرب من البيت

ليلاً ، واختبأ بين الأشجار لينشر الذعر في أسرته ، ويملاً قلوبهم رعباً .

فبادرته بقولي : إذن لقد كنت شجاعاً وأنت صغير .

— إن الشجاعة تلازم مني منذ عهد طفولتي .

ووقف عن السير ، ونظر إلى قائلنا : أتجبن الشجاع ؟

فأجبت مبتسمة : إن الشجاع دائماً محبوب !

فضغط يدي ولاطفها ، ثم تابعتنا سيرنا ...

وبلغنا كوخ البستاني ، وكان في أقصى الحديقة من جهة الغرب . ولم أكن قد كشفت هذا الموضع من الحديقة حين مجلت فيها أنا ووسنية .
وألفينا البستانيّ وزوجه بباب الكوخ ، فلما إن رأينا وعرفانا حتى هرعّا إلينا بحسبنا في تهلل واحترام .
فأسرع « الباشا » بقوله : لقد رغبت « سلوى هانم » في مشاهدة
الجل الذي نمتجّ الليلة ... أين هو ؟

فأدخلنا الكوخ ، ولم يكن فيه من الضوء إلا ما يبعثه ذلك
المصباح العميق السكدر من واهن الشعاع . وشمّنا على الفور رائحة
غريبة كظيمة ، هي مزاجٌ من رائحة البهائم والسماد والخيز .
وكان الكوخ يحوى حجرتين يفصلهما حاجز قصير من البوص .
وكنّا نحى هاماتنا ونحن نسير ؛ خشية أن يصدّهما السقف . وكانت
إحدى الحجرتين خاصة بسكنى الأسرة ، والأخرى للدوابّ والدواجن ،
ولسكن لم يكن ثمة فارق بين الحجرتين !

وصاحت زوج البستاني تنادى ابنتها وتأمّرها بإحضار الجل ،
وكانت وهي تصيح تجاهد في التنقّب بخمارها ، تخفى وجهها إلا عينيها ،
فيخرج الصوت حبساً غير واضح .

وما لبّ أن تقدمنا خطوتين في كنّ الدواجن حتى واجهتنا ابنة
البستاني وبين يديها الجل . وكان ثغرها يفتّر عن ابتسامة لطيفة تبينهاها
على الضوء الخافت المنبعث من ذلك المصباح المغير .

أما الجل نفسه فكان تحفة من التحف ، له بشرة وردية يكسوها
شعر رقيق كالديباج ، وهو ينظر إلينا على تخوّف بعينين سوداوين
ناصعتين . وقد ازداد وسجله حين هبت أسراب الدجاج ثائرة في حماة ،

تدوّى بأجنحتها وتتصايج . وكانت النعجة لا يفتر لها ثغاء ، تلاحقُ ابنة البستانى ، وتمتثل بصرها فينا ، كأنها تسأَلنا : ماذا نحن فاعلون بوليدها ؟

ولم أتمالك أن قبّلت الحبل بين عينيهِ ، ومسحتُ على جسده الأملس وأنا أدلّله ...

ولما هممنا بالخروج ناولنى « الباشا » خفية قطعة من النقود ، وهمس فى أذنى أن أمدح الفتاة لإياها ، فاهتزتُ الأسرة اغتباطاً بى وشكراً لى . زايِلنا السكوخ . وكان الهلال قد أشرف على الأفول .

فقال لى « الباشا » : هل أعجبك الحبل ؟

— أعجبنى جداً ...

— يمكن أن نشتريه .

ففكرتُ برهة ، ثم قلت : ولكن أمه ستلتاع لفراقه .

— إذن نشتريه هو وأمّه !

فصحت : كلا ... كلا ... لا نحرّم هذه الأسرة نعمتها !

فسكت وقتاً ، ثم قال : فلندع الحبل إذن حتى تفضطه أمّه .

— خيراً نفعل ...

وسرنا و « الباشا » مطبقٌ بيده على يدى .

ثم وقف هنيهة وهو صامت ... فقلت : ماذا ؟

— يقولون إن الذى ينظر إلى القمر فى مستهله ، ثم ينظر فى وجه

جميل ، يقضى شهراً سعيداً ... فهل تسمحين لى أن أفعل ذلك ؟

فابتسمت وقلت : ولكن أخشى أن يكون طالعى غير حسن !

فأخذ وجهى بين يديه ، وقال :

أحمل هذا الوجه الصبيح غير طالع السعد والهناء ؟ !

ونظر إلى القمر ثم حدّق في وجهي طويلا ، فوجدتني أُرِخِي
جفني ، وأحسست «الباشا» يلف ذراعيه حولي ويمسّ بفتة بفمه
على فمي ، ثم اندفع يَحْتَضِنُنِي وَيَقْبَلُنِي في جموح نائثر ، وهو يهيمهم بكلمات
لم أستبين منها شيئا ... ولست أدري : كيف تركته يصنع ما صنع ؟
وما الذي منعني أن أُرَدّه عن حق لا يتأدى ؟

وتلاقت نظراتنا فطالعتني على الفور وجه «كبير اللصوص البحريين»
بعينه النفاذتين وحاجبيه الغليظين ، فانتظمتني قشعريرة شديدة ،
فاستخلصت جسدي من بين يديه ، وأنا أصبح قائلة :
لا ... لا ...

وما كدت أفلت حتى همت على وجهي في مسالك الحديقة لأعرف
لى وجهة ولا قصداً . وغاب الهلال فاحاولك الليل ، ولم أستطع في
لجّة الظلماء أن أستبين طريق . ولسكنني كنت أجرى ، ولا أقتأ أجرى ،
و «الباشا» يتبعني قائلاً : انتظري . انتظري . ما بك ؟ !

ولسكنني واصلت عدوى وأنا أرتجف ، وعرائي شيء من الذهول ،
فاختلط على الأمر ، وتمثل لي أن من يتبعني ليس إلا كبير اللصوص
البحريين نفسه . كبير اللصوص الذي شاهدته في الصورة يا سر
العداري بلا رحمة ولا إشفاق ! ...

وعثرت قدمي بشيء ، فانكفأت على وجهي ، وأخذت أصبح
وأبكي ، وما هي إلا أن شعرت بـ «الباشا» إلى جانبي يحاول لإجلاسي
على العشب ، وهو يقول في صوت متقطع الأنفاس :
ما هذا يا دسلى ، ؟ أطفلة أنت ؟

— دعني ... بربك دعني !

أدعئك في هذا الظلام ؟ لم كلّ هذا ؟ ... أخشى أن يكون قد أصابك مكروه .

— لا . لم يصبني شيء .

— الحمد لله .

ثم صاح ينادى الخفير ، فجاء على عجل . فبادره بقوله :
علينا بالنور ... أسرع .

وهول الخفير ، قال عليّ ، الباشا ، يقول : حقاً لم اكن أتوقع منك هذا يا د سلوى ، . لقد برهنت على أنك مازلت طفلة !

وعاد الخفير بفانوس أو قدّات فيه شمع ، فجعلت أنفص ثيابي مما علق بها من التراب . وبسّطت منديل أمسح به يدي ، ومضيّنا يتقدمنا الخفير بفانوسه ، وكان د الباشا ، يسير معي جنباً إلى جنب ، ولكنه لا يلبسني ... وسمعته يقول : أواثقة أنت أنك لم تجرحي ؟

ولم ينتظر جوابي ، وإنما أمر الخفير أن يدنّي الفانوس من وجهي .

وتفحصني هنيهة ، ثم قال : الحمد لله ، لا أرى أيّ جرح !

ثم واصلنا سيرنا ، وقطعنا بقية الطريق صامتين . ولما دخلنا المنزل وجدنا د الدادة شيرين ، في البهو جالسة على مقعد ، يترجّح رأسها ترّجّح الثعل ، فما إن أحسّت بنا حتى قامت إلينا وهي تمسح عينيها وتحايل على نفسها ... فقال لها د الباشا ، :

أعدى لـ د سلوى ، كوباً من شراب الليمون !

فقلت له على الأثر : لماذا ؟ ... لا حاجة لي به .

— لتهدئي من روعك ... إنك مازلت مضطربة !

— كلا ...

وقالت « الدادة شيرين » ، تسأل الباشا : أتكون قد خافت من الظلام ؟

— نعم ، خافت من الظلام !

— إن البُوم والخفافيش تُعشش في الحديقة .

والتفت إلى « الباشا » وهو يقول في ابتسامة يلوح عليها الارتباك :

والآن ... أما زلت مضطربة ؟

— كلا ...

— اصْدُقْنِي !

— أوكد لك ذلك .

فوقف صامتا فترة ، وهو يداعب جبات سبحة ، ثم قال :

أنت عصبية جدا « ياسلوى » ! ... يظهر أني أخطأت في الخروج بك من المنزل ليلا ... والآن أرجو لك نوما هائنا .

وربست ظهرى بيده ، ثم تركنى ومضى ، فشيت فاصدة حجرى مع

« الدادة شيرين » ، وسمعتها تقول :

إن من فى رأسه ممسكة من عقل لا يخرج للنزهة فى الظلام الحالكة

— أردت رؤية الحمل الصغير !؟

— الحمل الصغير !؟

وجعلت تتفحصنى هنيئة ، ثم صاحت : لقد توَّحَّل ثوبك !

— توَّحَّل ؟

— أجل ، لقد تناثرت عليه الطين .

— زلت قدمى فسقطت !

— سقطت ؟ ... سبحان الله ! ... كل هذا من أجل الحمل !؟

وتابعنا سيرنا و « الدادة » تغمغم : أصحاب العقول فى راحة ... !

أمضيت ليلة فليقة لم أذق فيها النوم إلا غراراً . كنت أقلب المسألة على شتى الوجوه ، فتتنازعتى مختلف الإحساسات . وبالرغم مما أصابنى من أرق استيقظت مبكرة ، وقد أزمعت أمراً حَزمت عليه رَأْيِي وبنيت عزمي ، وكانت «سنية» قد سبقتنى بالنهوض من الفراش ، فلما إن وقع بصري عليها حتى بادرتها بقولي : اسمعي يا «سنية» .

فهرعت إلى «باسمة مشرقة الحيا» ، فقلت لها على الأثر :

يجب أن أعود اليوم إلى «القاهرة» .

فغمغمت : تعودين إلى «القاهرة» اليوم ؟

— نعم يجب أن أعود !

وأمسكت يدها أضغطها ضغطاً عصبياً ، فقالت : ولكن لماذا ؟

— لأننى ... لأننى رأيت حليماً مفزعاً ... وأخشى أن يكون قد

أصاب أمى مكروه !

ودخلت «الدادة شيرين» ، تدعونا إلى الفطور ، فأسرعت إليهما

«سنية» تقول : اسمعي يا «دادة» ... إن سلوى تريد أن تعود اليوم

إلى «القاهرة» ، لأنها رأَتْ حليماً مفزعاً .

فقالت «الدادة» ، وهى تحدجنى ببصرها : أى حلم ؟

فقلت : أخشى أن تكون أمى قد أصابها مكروه !

— قلت لك أى حلم ؟

— حلم مفزع ... فيه قتل وشنق وعذاب .

— مثل هذا الحلم يدل على الخير ... لا تنزعجى ، اطمئنى . أمك
فى عافية وأمان .

فصاحت « سنية » : أمك فى عافية وأمان ... انتهى الأمر !
فقلت : كلا . كلا ... يجب أن أعود اليوم إلى القاهرة .
فصاحت والدادة شيرين :

ألا تثقين بما أقول ؟ إن تفسيرى للأحلام لا يكذب أبداً .
— إنى واثقة بما تقولين ... ولكنى أريد أن أرى أمى ... لا بد
أن أعود إلى القاهرة .

وخرجنا إلى البهو ، فوجدنا الباشا يدخل ويختبى القهوة . وقد
احتجب وجهه بصحيفة يطالعها ، فلما أحسَّ وجودنا حتى أزاح
الصحيفة عن وجهه وابتسم بحمينا . ولاحظت على الفور أن ابتسامته
تحمّل طابعاً آخر غير الطابع الذى ألفته منه .

وأقبلت عليه « سنية » تقول : إنها تريد أن تعود إلى القاهرة ،
فنظر إلى « الباشا » متسائلاً وقد غاضت ابتسامته على الأثر ، ثم قال
لابنته : تريد أن تعود إلى القاهرة ، ؟

— لأنها رأت حلماً مفزعاً ...

ودنوت من « الباشا » وقد خفضت بصرى وقلت :

أخشى أن تكون أمى قد أصابها مكروه !

فصمت لحظة ، وهو يداعب حبات سبخته ، ثم قال :

أهذا الحلم يجعلك تحسبين أن أمك قد أصابها مكروه ؟

فجملت أتأمل يدي هنيئة ، ثم قلت وأنا مازلت خافضةً بصرى :

لقد تركتها متوعدة ، ليست صحتها على ما يرام .

ثم رفعت عيني إليه أقول: وقد طلبت مني ألا أغيب أكثر من يومين.
فصاحت « سنية » : لم تخبريني بهذا ...
— أفسم لك لأنها أمرتني بالألا أغيب أكثر من يومين ، وشددت
على في هذا الأمر كل التشديد .

فنهض « الباشا » وطفق يروح ويحيى صامتا . ثم وقف قبالي ،
وقال في رقة ولطف : وإذا رجوت أنا منك أن تغيري من عزمك ؟
فلم أجب ، وقد تماكنتي الحيرة ، ووجدتني بعد لحظة أقول :
يوسفى يا عمى ألا أستجيب لهذا الرجاء . إني ...
فقاطعتني بقوله : بل أنت مستجيبة لرجائي .
— كان بودي أن أفعل ، ولكن لا أستطيع .
واقتربت « سنية » منا وهي تقول :
وأنا أيضاً أرجو منك ألا تصرى على السفر اليوم .
فقلت لها وأنا أدعك يدي بشدة :

لا أستطيع ... لا أستطيع ... إن أمي مريضة !
فاستأنف « الباشا » جيئته وذهوبه في البهو لا يتكلم ، ونأت عني
« سنية » قاصدة إلى صينية الفطور ، وأخذت تتلاعب بملعقة بها . أما
أنا فمكثت في مكاني وقد اشتدني الكرب ورجع « الباشا » إلى مقعده
يقول له « سنية » : إذا كانت « سلوى » مصرة على السفر فعليها ألا
نضايقها . فإن مقصدنا أن نبشج نفسها وأن نهيها لها متعة طيبة ، ولكن
يبدو أننا أخفقنا فيما قصدنا إليه .

فبادرت بقولي : أوكد لك يا عمى أني مغتبطة بالإقامة في الضيعة
كل الاغتياب ، وأنى أشكرلك أجزل الشكر ما لقيت من كرم وعطف ،

ولكن موقفي يتطلب .

— أعلم ... أعلم ... !

ثم التفت إلى ابنته قائلاً : اذهبي فأبلغى السائق أن يعدّ السيارة
للسفر ... أظنك ستراقتين و سلوى ، !

فقلت : طبعاً ... لا أستطيع أن أمكث هنا وحدى .

— حسناً ... اطلبي إلى « الدادة بشيرين » ، أن تهيء الحقائب .

للسفر بعد الفطور !

— وأنت معنا ؟

— كلا ... إن عملي بالضيعة يضطرني أن أقيم وقتاً آخر .
سأعود بالقطار

وخرجت « سنية » ، ونهضت « الباشا » يمشى ببطء الخطأ ، واقترب
منى وهو يحاول الابتسام . نخلتته شفتاه . فتابع سيره قليلاً ، ثم عاد إلى
ووقف قبالتى فى صمت . وبعد هنيهة قال فى صوت خافت عليه مسحة
الآلم : أمازلت حافدة على ؟

— كلا . كلا ، أؤكد لك يا عمى أنى ...

وحشى صدرى بغتة بعاطفة مبهمه محتبسة ، رطفت الدموع من
عينى ، فأخفيت وجهى فى يدى ، فأخذ يرتب ظهرى ، ثم سمعته يقول :
كل تصرفاتك تثبت لى أنك مازلت طفلة ... هدئي من روعك .
ثقي بى ... واعلمى أنى حريص دائماً على إسعادك .

فكفكت دمعى ، ثم قصدت على الفور إلى حجرى ...

... كانت رحلتنا فى السيارة من الضيعة إلى « القاهرة » طويلة شاقة ،

لا أنس فيها ولا مسرة . فقد قطعنا معظم المسافة فى صمت لا يشوبه إلا

غيممة ، الدادة شيرين ، وصياحها بضغّ مرات بالسائق دون أن ندرك لصياحها سببا . أما ، سنية ، فكانت منزويةً في ركنها تستبين السكّابة في محيّاسها . وكانت تخالسنى في الفينة بعد الفينة نظراتٍ عابسة .

وضاقت ، الدادة شيرين ، بما يغشانا من صمت ، فقالت دون أن تتمتّع بنظرها إلى : لم هذه العجالة في الاوبة ؟ ألم يكن يحسّن بك أن تفتنظري حتى ترى ، سنية ، الحمل الصغير ؟

فقالت ، سنية : الحمل الصغير ؟

فقلت : لقد نتجت نعيجة البستانى حملا .

وواصلت ، الدادة شيرين ، حديثها :

لم تنتظر ، سلوى ، مطلق الصبح لئراه ، بل خرجت ليلا إلى كوخ البستانى في الحديقة ، والظلام دامس !
فقالت ، سنية ، لى : وحدك ؟

— ... كلا ... بل ذهبت مع ، الباشا ،

وقالت ، الدادة شيرين : وانقضت عليها الخفافيش والبوم
فمنقطت على الأرض وانزلت في الطين !
فقالت ، سنية :

خفافيش ... بوم ... طين ... لا علم لى بشيء من ذلك !

فقالت ، الدادة شيرين ، موجهةً حديثها إلى ، سنية ، :

أنت فتاة عاقلة ، تدخلين الفراش في الوقت المناسب ، ولا تخاطرين بنفسك ليلا من أجل حمّل لا يستأهل كلّ هذا العناء !

فقلت فى شيء من الحدة : لقد حدث أن ذهبت ، وأنا التى انزلت فى الطين لا أنت ، يدادة ، !

فمنظرت إلى بوجهها اللامع ذى الأشداق المهدلة ، وقالت :
ولكننى أنا التى غسلت ثوبك وكويته !
— لم يطلب منك أحد أن تفسله وتكويه !
فحدقت الدادة ، فى برهة وهى صامته ، ثم صاحت بالسائق :
سق جيداً وانتبه ... إني لا أطيق هذه السرعة ... أفسم بالله إني
سأترك لك السيارة فى أثناء الطريق إن لم تسر على مهل .
وعاد الصمت يضرب علينا رواقه ...

ومضت السيارة فى طريقها حتى ألقيتها أمام منزلى ، وكان ذلك
قبيل الظهر ، وأطلق الأسطى جميل « نفيهره يعان قدومى ، ورأيت
بعد قليل « أم يونس » تهرول فى خفة للقائى ، فما كدت أترك السيارة
حتى احتضنتنى طويلاً فى حنان بالغ ، وهى تغرق فى الترحيب بى .
وسمعت « الدادة شيرين » تقول : لقد كانت أياماً ثلاثة ، ثلاثة
فقط يا « أم يونس » ... فإذا تفعلين لو كانت أعواماً ثلاثة ! ؟

فقلت « أم يونس » وهى تحدق فى وجهى والبشر يغمر حياها :
عجباً لك ... أنسييت أنها ابنتى « سلوى » ! ...
فانحنيت عليها أقبلها فى تودد وحنان ، ثم عدت إلى السيارة ثانية .
أودع « سنية » و « الدادة شيرين » ... فقالت لى « سنية » وهى تظل
من نافذة السيارة : متى تحضرين لزيارتى ؟

فأجبت فى ابتسامة سائحة : ألم تضيق بى ؟
— أنا ؟ ... ما هذا الكلام ... ستحضرين غداً ؟
.. غداً ؟ ... كيف يكون هذا ؟
— بعد غد .

— أعدك أنى لن أغيب عنك طويلا ... إلى القاهر يا سنية ، ..
أجزل شكر على ضيافتك الكريمة ...
وصاغت د الدادة شيرين ، أودعها ، خيشتى وهى صامئة ، لم
يفارق العلبوس وجهها .

دخلت المنزل ود أم يونس ، خلقى تحمل الحقيبة ، ولسانها
لا يكف عن الثرثرة ، فقلت لها : أين أمى ؟

— فى حجرتها !

— أمرضة هى ؟

— كلا . ولكنها كسلانة !

— لعلها أطالت نومها اليوم ...

فأشاحت بوجهها عفى وهى تقول : حر هذه الايام لا ميطاق !
وبما باتت ليلتها مؤرقة ، لم تم إلا خَطَطا !
وانتهى الحديث فى هذا الموضوع دون إطالة . فإن د أم يونس ،
انهاالت على تسألنى عن الضيعة وما شهدته فيها .

واستقبلتنى أمى فى الردهة العليا ، إذ أعلمها نفير السيارة بقدومى ،
وبعد أن تبادلنا القبلات ، أخذت بى إلى المتكى بجلسنا .
ثم قالت : أعثدت وحدك ؟

— بل عادت معى د سنية ، و د الدادة شيرين ، .

— هيه . هل أعجبتك الضيعة ؟

— لا بأس بها !

— لا بأس . بها ؟ كيف ؟ ألم يرقك المنزل ؟ أكان الطعام ردينا ؟ !

— كلا ، لقد كانت الحياة هناك غاية فى الدعة . المنزل مرجح ،

و « أم نجم ، العجانة كانت تطهو لنا طعاما شهيا . وقد تنزهنا فى الحديقة ، وطفنا فى الحقل ، ولعبنا فى بيار القمح .

— إذن لماذا لم يسرك المقام هناك ؟

— وهل قلت لك إني لم أكن مسرورة ؟

فحدثت أمى هنية فى وجهى ، ثم ضحكت وهى تقول :

أحدث بينك وبين « سنية » أمر ؟

لا ... لا ...

— ولكن « سنية » كانت معزومة أن تقيم أسبوعا .

— لقد فضلت أن تعود معى .

— ولماذا لم تمكثى معها بقية الأسبوع ؟

— ألم تطلبي لى أن أعود بعد يومين ؟

— أذلك ما حفرك على أن تعودى ؟

فصكت ، وطأطأت رأسى ...

وسمعت أمى تقول بعد لحظة : أخبرينى ماذا جرى ؟

— ماذا جرى ؟ ... لم يجر شيء !

— اسردى لى كل شيء ... كل شيء .

فتوقفت عن الكلام هنية ، ثم قلت : لقد قضيت الأيام الثلاثة على أحسن حال ، لم يكدرها إلا ما كان من صنيع « الباشا » معى البارحة

— « الباشا » ؟ ... البارحة ؟ ... وهل كان « الباشا » هناك ؟

— قضى معنا يومين كاملين ...

— وماذا كان منه معك ؟

— أساء الأدب قليلا ...

— أوضحي ...

— ولكنني أزمته حده. لقد رفعت يدي في وجهه وكدت أصفعته !

— تصفيعه ... لماذا ؟

— لأنه حاول تقبيلي .

— حاول تقبيلك ؟ ... هو ؟ ... ويحك من وكغد ! كان عليّ

أن أأخذ رُك من كل هذا ... ولكن أني لي أن أعلم ؟ !

— لا عليك من شيء ، فقد عرفتَه ماذا يجب أن يكون موقفه

مني ، فأصبح الآن كالقط الذليل !

— ولكن كيف تم ذلك ؟

— كنا ننزه في الحديقة ليلاً ، فانطلق يُشيد بحاسني ، وأنا أحاول

قطع حديثه ، وبغمة طوق خصري ، وهم أن يقبِّلني ، فدفعته عنى فسقط على الأرض . فقصدت المنزل متملة لا أبالي .

— وهو ... ماذا فعل بعد ذلك ؟

— لقد اعتذر لي من هذه الفعلة ، وأقسم إنه لن يعود لمثلها .

ثم جعل يترضاني ويتوسل إليّ أن أعفو عنه

فصمتت أمي ، وقد انسحرت تفكر ، ثم غنمت : حسناً فعلت !

وقامت تسير الهويني إلى حجرتها .. وما كادت تصل إلى الباب

حتى عادت أدراجها إليّ تقول : خذي من هؤلاء الناس حذرك ، ولا

تغترى بما يبدون من زائف الود ... إن « الباشا ، يحبك كما يجب

السيد تابعه ... إن أمثاله يعدوننا دونهم مقاماً وكرامة . ولأنهم

ليسمحون لأنفسهم أن يراودونا على كل شيء تشره إليه شهواتهم ،

لا يقيمون لشرفنا وزنا ... حسناً فعلت !

صحوتُ من نومى صباحَ غد ، وما لبثتُ أن رأيتُ أمَّ يونس ،
تدخل علىَّ فى حجرى ، ووجهها يفيض بشراً وهشاشة ، فأعلمتني بأن
هدايا ثمينه وصلت إلىَّ من ضيعة الزهيري باشا ، فقلت لها على الأثر :
أيّ هدايا ؟ ...

— هدايا نفمة ... أربع صفائح سمن ، وأربع من الجبن والعسل ،
وعشرون زوجاً من الدجاج ... أسمعين ؟ ... لابد أن أدبر على وجه
السرعة كنساً لهذا الدجاج فى ركن من السطح

فغمغمتُ ، وشعرت بقلى يتابع خفوقه : ما معنى هذا ؟
— حقاً إنك غريبة الأطوار يا دساوى ، ا ... أتعجبين من
وصول هدايا أرسلها والد حبيبك وسنية ؟
— وهل أعلمت والدتى ؟

— لقد تركتها تعدّ الدجاج ...
وخرجت من فورى فألفيت أُمى فى المطبخ معنية بهذه الهدايا .
فما إن رأتنى حتى ابتسمت لى وهى تقول : مبارك !
— مبارك ... لماذا ؟

— ألا تريّن هدايا د الزهيري باشا ، ؟
— يجب أن نردّها إليه .

فقلت فى هدوء ، وهى تشير إلى واحدة من الدجاج :
انظرى إلى هذه الدجاجة ... لم أرَ فى حياتى أسمنَ منها !

ثم مالت علىّ تقول : إنه يريد أن يترضّانا !
— قلت لك يا أمى يجب أن نردّ إليه هداياه
— يريد المغفل أن يترضّانا ...

ثم أطلقت ضحكة عالية ، وأتمت قولها :
ولكننا لسنا متخاصمين ... أخاصمته أنت يا د سلوى ؟ !
— وفيه هذا الكلام يا أمى ؟ سأذهب إلى د سنية ، أخبرها بأننا
لسنا فى حاجة إلى هذا السمن والدجاج وما إليه .
— اتركي هذا الأمر أنصرف أنا فيه بحكمى .
— وماذا أنت صانعة ؟ .

— سأقبل الهدايا .
— وماذا بعد ؟
— لا شيء ... إذا لقيته فأحسنى لقياه ... ابتسامة لطيفة ...
كلمة ظريفة ... أهلا وسهلا بسعادة والباشاء !
— ماذا تقصدين ؟

— أقصد أن نلهو به يا غبيّة . . فنستفيد منه دون أن ينال منا
مثالا ، فشرطنا مصون لا يمسّ !
— هذا يقتضى أن أكون ذات وجهين .

— أرجو منك ألا تتفلسفى يا د سلوى ...
— لا أستطيع أن أقوم بتلك المهمة البغيضة !
— إنه يريد أن يخدعك ، فلماذا لا تسبقينه أنت فيكون هو
الخدوع ؟ أتكرين أنه مقيم بك ، متدائمه بحبك ؟ !
— أمى ... ما هذا القول ؟

— لست صغيرة يا «سلوى»... إنك تفهمين ما أعنى... «الباشا» يرضى أن يبذل في سبيلك أئمن ما عنده ، وهو لا يؤثر على مرضانك أى شيء... فلماذا تدعين الفرصة تفتت منك؟ إنك لن تخسرى شيئاً معه حتى قلامة ظفر . يجب أن أن تفهمى الرجال كما هم يا «سلوى» لأنهم خداعون أشرار ، ولكنهم مع ذلك مغفلون مباه .
واندفعت تضحك ، وجاءت «أم يونس» ، فأمرتها والدق أن تتولى وضع الهدايا فى أماكنها .

وفى المساء وردتني رسالة من «إنجلترا» تسلمتها بيدي من ساعى البريد ، فذهبت على الفور أختلئ بها فى حجرى ، وشرعت أقرأ :
«عزيزتى سلوى...»

هل تسمحين لى بأن أدعوك «عزيزتى»؟ إنها جرأة منى فاستميتك قبول المعلقة ...»

ووضعت الرسالة جانباً ، واندفعت أضحك ، ثم عدت إليها أستأنف القراءة : «لنى اليوم جد سعيد . سعيد بحياتى الجديدة . أنظر إلى المستقبل ، فيترأى لى باسمائتاللق . ولم تطويع لى نفسى أن أحبس هذه السعادة بين ضلوعى أستأثر بها ، فأردت أن أكتب إليك لتشاركنى إياها . لئننى أعيش الآن فى إحدى ضواحي «لندن» : بلدة خلوية ، تكتنفها الحدائق من كل جانب ، حدائق كأنها بساط سندسى ممدود لا يدرك له آخر . أما المنازل فوفورة الحظ من حسن الذوق والالاقة والراحة ، لكل منزل حديقة بديعة يتولى أمرها سكان المنزل أنفسهم ، فهم البستانيون ، وقد انضممت إلى أسرة فى أحد هذه المنازل ، أفضى وقت فراغى فى الحديقة أفلح الأرض وأغرس الأزاهير وأمارس

تلك الرياضة المحببة... أما الأسرة التي أسكنها فتتألف من أب وأم وابنتهما الوحيدة ، وهى فتاة خطيبها لنفسه طالب في جامعة لندن ، يتحلى بكمارم الاخلاق ... وإن تلك الأسرة لتمثل الأسر الإنجليزية الصميعة المتحفظة التي لا تمنسبها مسايرتها لروح العصر الحديث أن تستمسك بتقاليد الجدود وطابع الماضى ... »

ودخلت ، أم يونس ، فى هذه اللحظة ، ودنت منى تقول :

أراهن على أن رسالة وردتلك من بلاد الإنجليز !

— لم يخطئ حدسك !

— ولكن كيف لم أنسلها من ساعى البريد ؟ لقد شددت عليه

فى أن ...

فقاطعتها قائلة : لقد أرحتك من هذه المشقة !

فأطالت النظر فى ، ثم قالت مخممة :

وماذا يقول الدكتور ، فى رسالته ؟

— لقد بدأ الرسالة بقوله : « عزيزى ،

... هذه جراءة .

فضحكت وأنا أقول :

إنه يعترف بأنها جراءة ، ويستطيعنى أن أقبل معذرتة .

— حسناً فهل .

ثم التفت إلى الرسالة ، وجعلت أعبر بعينى ما بقى فيها من سطور

يصف بها الطريق من «لندن» إلى الضاحية ، ثم اختتم رسالته بقوله :

« وأن هـل لى أن أسألك عن حالك . كيف تعيشين ؟ وماذا

تعملين ؟ اكتبى لى كل شئ : وبوحى لى بمكنون نفسك . شد ما كنت

أود أن أكون بجانبك .

تقبلي من أعماق قلبي أطيب تمنياتي ؟

المخلص

داود فهميم

حاشية : تجددين عنواني في أعلى الرسالة .

وجعلت : أم يونس ، تكرر على مسمعى قولها :

ماذا يقول ؟ ... ماذا يقول ؟

فجعلت : أهز الرسالة في يدي وقلت :

أما في الختام فهو يبعث إلى بأطيب التمنيات !

وانطلقت : أضحك ، فقالت أم « يونس » .

وماذا كنت تريد أن يبعث إليك ؟

— إن « شريف » يبعث إلى « سنية » ما هو أرق من التمنيات !

— ماذا تعنين ؟ ... لملك تقصدين أنه يبعث إليها بالاشواق

الحارة والقبيلات العطشى !

— لم أقصد شيئاً ...

— إنه خاطبها ... وله أن يبعث إليها ما يشاء .

— حقاً لم أكن أعلم : أنك متضلعة هذا التضلع في أدب الرسائل ،

وما يليق منها لكل مقام !

— مهما يكن من أمر : فأني أرى « الدكتور فهميم » رجلاً متعقلاً

رزينا يزن ما يقول ، ولا يتعدي ما يجب .

— حقاً ... ومن العقل والرزانة أن يخبرني بأنه يفلح الأرض

ويغرس الأزاهير في حديقة منزله الجديد !

— يفلح الأرض ويغرس الأزاهير ؟

— وأن من بين أفراد الأسرة التي يسكنها فتاة في ريعان الشباب !

— يظهر أنك اليوم مهتاجة الأعصاب يا د سلوى ، ا

— أنا ؟ أنا مهتاجة الأعصاب ؟ ا

وانطلقت أتضحك ، وخرجت د أم يونس ، تجرّ نفسها متثاقلة .

ولما جنّ الليل رجعت إلى رسالة د الدكتور فهم ، أبسطها أمامي

على الخوان ، وأعيد تلاوتها ، ثم أخرجت ورقاً واعتزمت الكتابة

إليه . وبعد أن روّيت في الأمر طويلاً مضيت أكتب :

د عزيزي الدكتور فهم ،

ولكنني ما كنت أفرغ من هذه الجملة حتى شطبت عنها فأجريت عليها

خطاً ، وسرعان ما مزّفت الورقة وأنا أغغم : بأى حق أدعوه د عزيزي ؟

وكتبت في ورقة أخرى : د حضرة الدكتور داود فهم ،

ولم ترقني هذه العبارة ، فألحقت هذه الورقة بأختها الأولى ، وأسرعت

أكتب في ورقة ثالثة : د حضرة المحترم الدكتور داود فهم ،

وحذفت برهة في الجملة ثم غفمت : كأنني أكتب التماسا لرئيس محكمة !

فجعلت أمزق الورقة شرمزق ، وألفيتني أكتب في ورقة جديدة :

د عزيزي الدكتور داود فهم ،

لقد دعاني بقوله د عزيزي ، فمن الأدب اللائق أن أدعوه بمثل

مادعائي به . واطمأننت إلى هذا الرأي ، وأخذت أسطر الرسالة ، وكانت

أفكارى مهوشة ، وعباراتي غير طليئة ، فلم أجده بداً من تمزيق الورقة ،

وألقيت بالقلم جانباً ... سيضحك بلا شك من أسلوبى العربى الركيك

وخطي السقيم ، وسيعثر على أغلاط لا حصر لها في الإملاء ...

لماذا يريد مني أن أكتب له ؟ ا ... كان يجمل به أن يصطلي لمودته

ومراسلته آلسة تحسن الكتابة ...

وقت من فوري إلى النافذة أطلع إلى عنان السماء وقد تحجبت
بأستار الدجى ، وبدت نجومها شاحبة النور ... أعلى أن أستعين
شخصاً آخر يدبج لى رسائلى ؟ ... إنه يريدنى أن أصف له بإسهاب
أسلوب حياى . أيريدنى أن أقص عليه ما كان من أمر « الزهيرى باشا »
معى ؟ أية فائدة فى أن أحكى له ما جرى ؟

ولبثت حيناً أحرق فى عرض الأفق ، ثم شعرت أخيراً بدمعة
ترفض من عيني ؛ وتنحدر على خدسى ، فأسرت أكفكفها .

وفى مستهل « الصبح أعلتنى » أم يونس ، بأن « حمدى » قد حضر .
فزلت على الفور أستقبله وأنا أعجب لهذه الزيارة المبكرة . وكانت
أسمى لم تصح من نومها بعد .

ووقعت عليه عيني فى حجرة الزوار يذرعها مضطرب الخطأ ،
وما إن رآنى حتى أقبل على « مهمل الوجه » وقال :
باركى لى يا « سلوى » ... باركى لى ...

— مبارك يا « حمدى » ... ماذا وراءك ؟

لقد عينت فى وزارة المعارف بمرتب قدره عشرة جنيهاً .
مُعهد إلى « فى تدريب الفرق الموسيقية والإشراف على حفلاتها . إن
العناية الإلهية ترعانى .

— مبارك ألف مرة !

وشددت على يده أهنته ...

وراح يمسح وجهه المتفصّد عرقاً . وقال : عشرة جنيهاً ... عشرة
جنيهاً فى الشهر . وهذه فوق الخمسة الأخرى التى أتقاضاها مما ألقبه

من الدروس الخاصة. إن دخلى الآن يبلغ خمسة عشر جنياً. ما رأيك؟

— دكخل طيب !

— إنه يسر لي أن أحيا حياة هادئة ... ولا تنسى أن صديقي
الذى كان له الفضل في إلحاقى بهذه الوظيفة قد وعدنى بالعمل على زيادة
مرتبى ... ما رأيك ؟ ... ما رأيك ؟

واندفع يدعك يديه فقلت له : كل هذا حسن يبشر بمستقبل مزهر .
— أليس كذلك ؟ ... إن مستقبلى مأمون ... ولكن أمراً
واحداً يضايقنى ... تعلين أنى وحيد أعيش عيشة عملة ، فأنا أهفو إلى
أن تكون لى أسرة !

وكسر من عينيه ، وجعل يدعك يديه بشدة .

فقلت له ، وقد لا حظت أننا كنا نتحدث وافقين : ألا تجلس ؟
فجلس صامتاً ، ثم استأنف يقول : لقد جئت لأنهى إليك نبا تعينى
فى الوزارة : لأنى أعلم أنه نبا يسرك كل السرور !
— ليس فى ذلك من شك ...

— ما كان لى وقد أتيت لى هذه المسرة أن استأثر بها وحدى .
وآلا تسكونى شريكى فيما أحس من بهجة .
— حسناً فعلت .

وابتسمت على الأثر ، وقد تذكرت جملة كتبها الدكتور فهم .
فى رسالته تامل هذه الجملة . وسمعت دحمى ، يقول : سأعنى بشأن
الدار التى أسكنها ... أطلّى حجرها بطلاء جميل ، وأجلب لها أثاثاً
منتقى ... سأجدها حتى تكون مقاماً طيباً لأسرة هائلة !
وأمسك يدي يضغطها قائلاً : ألسن فى هذا القول على صواب ؟

- على أنتم صواب ...
- أهذا كل ما عندك من جواب ؟
- وماذا تريد مني أن أزيد ؟
- أنت تفهمين بغيق . تفهمينها حق الفهم . ولكنك لا تصارحين .
- ماذا تقصد ؟
- أنت تعذبتني يا « سلى » ... شدة ما أنت قاسية !
- لا تكن عجولا يا « حمدى » .
- إذأ أنت ترفضين .
- لا أملك الرفض ولا القبول ... إن أمي ...
- فقاطعتي بقوله :
- أنظنين أن أمك تأتي أن تزورك إياي ؟
- هذا مالا أستطيع الجزم به ...
- ولكن عواطفك ... عواطفك أنت !
- أو تجهل عواطفى نحوك ؟
- إن قلبى يؤكد لى أن عواطفنا متلافية ... شكراً لك ...
- شكراً لك ...
- واندفع يقبل يدي ، ثم نهض قائلاً :
- أتركى هذا الأمر لى . سأدبر له خطة موفقة تبلغ بنا الهدف المنشود !
- وحياتى مهتلاً ، وانصرف حيث الخطأ .
- وأحضرت « أم يونس » القهوة ، وهى تقول :
- إن موقد « الغاز » متعطل ، فاضطرت أن أستعير موقد « الست
- فتحية » ... هل تأخرت طويلاً ؟

— لا بأس . أعطيني القدح لأشربه أنا . لقد خرج ، حدى .
وتناولت قدح القهوة ، وجعلت أحسنه على مهل ، ثم قلت
له أم يونس ، :

أتقدين أن خمسة عشر جنيتها تسكفل الحياة السعيدة لأسرة ؟
فتأملتنى المرأة هنيئة ، ثم قالت :

إن « بهجت أفندى » الموظف الذى يسكن غير بعيد منا يتقاضى
مثل هذا المرتب ، وهو يحيا به حياة طيبة .

فناولتها قدح القهوة ، وقلت مبسمة :

أظن أن هذه الجنسيات الخمسة عشر لا تكفى يا « أم يونس » لأن
تشتري بها الزوجة التى تكرم نفسها معطفاً لا نقداً !

تقصّصت أيام ، وجلست يوما في الظهيرة إلى المائدة أتناول الغداء مع أمى . وما إن فرغنا من الأكل حتى هممت بالعودة إلى حجرتى ، فقالت لى : انتظرى قليلا ... أريد أن أسرّ إليك نبأ ...
— أىّ نبأ ؟

— يقولون إن « الباشا » سيزورنا عصر اليوم !
فحدقت فيها وأنا أغغم : « الباشا » يزورنا !
— إنه لحادث عظيم ... يحقّ لك أن تدهشى له ... ألم تكونى على علم به ؟

— ومن أين لى أن أعلم ؟ ... ولكن أخبرينى : فيم هذه الزيارة ؟
— إنه على أية حال لا يقصدنى بزيارته .
— إذّا من يقصد ؟

— هدق من صوتك شيئا .
— أنا هادئة الصوت ... ألا يحق لى أن أسأل : لمن تكون هذه الزيارة ؟

— ألم تزوريه فى منزله ؟ ... وفى ضيعته ؟ ... إنه يرد إليك زيارتك . أفى هذا غرابة ؟

— لقد كنت أزور ابنته .
— وإنه يحضر نائبا عن ابنته لرد الزيارة !
— أمى ... أضرع إليك !

- أنا ألقى أضرع إليك أن تكونى هادئة .
فصحت قائلة : إني هادئة . هادئة . لقد أكدت لك ذلك ...
ولكنى إن ألقى بالبasha .
— شخص له مقام ملحوظ ، يرسل لنا هدايا ثمينة ، ويفضل
علينا بزيارتنا ، أفتأبى أن نلقاه ؟
— أنت صاحبة البيت يا أمى ، فعليك أن تكلفيه أنت !
فأشعلت أمى لفافة تبغ ، وجعلت تنفث دخانها لحظات فى صمت ،
ثم أقبلت علىّ تقول : أهذا رأيك الأخير ؟
— نعم !
— إذأ سألقاه وحدى .
— لا بأس .
— يجب يا دى سوى ، أن يجدك فى المنزل من يرحب به ، ويشكر له
ما خصصنا به من هدايا !
فتضاحكت قائلة : هدايا ... ألم أروك ما وقع منه ؟ !
— شئ لا يستحق الذكر ، كل الرجال تقع منهم أمثال هذه
الهفوات . ولقد أسلفت لك وجهة نظرى فيما جرى ، فلماذا تعاودين
الكلام فى هذا الموضوع ؟
— ووجهة نظرى أنا ؟
— أنت ما زلت صغيرة تفكرين إلى من يهديك السبيل !
ونهضت أريد الانصراف ، فقالت :
لا عليك من شئ ... سألقاه أنا وحدى .
ووقفت أمى تترك المائدة ، فصعدت توجهاً إلى حيجرى .

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر جاءتني أمي ، وكانت مرتديةً أبيي أثوابها ، متخذةً أتم زينتها ، يَضُوع المطر منها . فلم تنظر إليّ بل قصدت إلى المرأة تديم التحديقَ فيها وتللم شهـرها . وما سمعتها تنهس ببنت شفة . وما هي إلا أن دقّ جرس الباب ، فهرولت أمي من فورها إلى النافذة وأظلت منها ، ثم عادت عجلتلي إلى المرأة لتلقى على خيالها آخر نظرة ، وقالت لي دون أن تواجهي :

مرى د أم يونس د أن تحسن عمل القهوة ، وأن تتخير الاقداح الجديدة ... وأن تعني بنظافة الأشياء كل عناية ...

وخرجت تسرع الخطأ ... وظللت لحظة أنظر إليها حتى غيبها الدرج ، ثم قصدت إلى د أم يونس ، وأنهيت إليها ما كلفتني أمي إياه وعدت إلى حجرتي ، وألفيتني بعد هنيئة أفوم إلى صوان ملابسي وأنق منه ثوبا ، وسرعان ما ارتديته ، وجعلت أزين نفسي وأصفّف شعري متمجلة ، ووجدتني أهبط الدرج إلى هو الطبقة الأولى ، وكنت معتزمة أن أضبط نفسي ، وألا يبدو مني شيء يغيّر المظهر الطبيعي ، ولكنني على الرغم مني شعرت باضطراب يفاجئني ، وأحسست قلبي دائب الخفقان .

ودخلت الحجرة ، فألفيت «الباشا» ينهض من فوره يستقبلني بوجه تكسوه البشاشة ، وعلى فـه ابتسامة رقيقة ، وفي عينيه لمعة هادئة ، ومدّ يده إلى مصاحف ، فددت له يدي أبتسم ، واتخذت مقعدى بجوار أمي ، وعاد هو إلى مكانه عن كـشـب من أمي في الناحية الأخرى ، وقال موجها حديثه إليّ : "قدمت لاطمن عليك وعلى صحة والدتك ...

فقات أمي : صحتي ؟

فقال « الباشا » :

كانت « سلوى » قلقةً من أجلك ، فلقد رأت حلماً أزعجها .

والتفت إلى « قانلا » : كنتِ مسرقة في ظنونك ... أليس كذلك ؟

فقالت أمى : إن « سلوى » كثيرة الهواجس ، وهى شديدة التعلق بى

فقال « الباشا » : لأنها تحبُّك أقصى الحب .

فقالت أمى فى صوت رقيق النبرات : وأنا أيضاً أحبها .

— إنها لهذا الحب أهل .

فابتسمت أمى قائلة : « سلوى » فتاة لا بأس بها ...

— لا بأس بها ؟ ... أذلك كل ما تصفينها به ؟ إنها مثل كريم

للأخلاق العالية . أقسم لك إننا لو فتنشنا « مصر » ، كما لما وجسدا

من يعادلها أدباً وخلقاً وجمالاً

فنظرت إلى « أمى » ، ثم قالت « الباشا » : أشكر لك يا « باشا » .

إن لشهادتك عندى أكبر شأن . إنها خير مكافأة لى على ما قمت به

نحوها من واجب الأمومة .

— لم أقل إلا الحق ... وإنى أهتمك بهذه الذرة !

والتفت « الباشا » إلى « أمى » ، وقال مخاطباً أمى :

إنها لا تجاذبنا أطراف الحديث .

— ربما كان ذلك حياءً وخجلاً بما تسبغه عليها من كرم بالغ ،

وعطف موفور .

— أخشى ألا أكون قد أدت ما يجب لها حين شرفتنا

بزيارة الضيعة

— لقد أخبرتنى بأنها لقيت من الرعاية والإكرام ما يفوق الوصف .

وفي هذه اللحظة دخلت « أم يونس » بالقهوة . وأخذ « الباشا » قدحَه ، وجعل يترشّف منه جرعات ، ثم قال : كنت أمس في محل « السكوكب » الخاص ببيع أجهزة « الرّڊيو » فأراني صاحب المحل جهازين من طراز « النجوم الثلاثة » وأكد لي أنه لا نظير لهما في « مصر » كلها . وأطراهما كل الإطراء ، فابتعثما منه ، وقد قدمت واحداً له « سنية » . أما الآخر فيسّرني أن أقدمه له « سلوى » !

فقلت على الأثر : جهاز « رڊيو » ؟ !

وأسرعت والدق تقول :

هذا كرم عظيم يا « باشا » ... لا ندرى بأى لسان نشكره لسعادتك ؟
— لا شكرَ عل الواجب يا « هانم » ... إن له « سلوى » في قلبي
مثل مكانة ابنتي .

وكانت « أم يونس » تحمل صينية القهوة ، وتقف بها عند الباب ،
فالتفت إليها « الباشا » قائلاً :

أذهبي إلى « الأسطى جميل » فاطلي منه أن يأتي بـ « الرّڊيو » .
فانصرفت « أم يونس » لهذا الغرض ، ووجه إلى « الباشا » قوله :
لقد جربته فألفيت صوته واضحاً ، تستطيعين به أن تسمعي كل
مراكز الإذاعة في العالم ... لقد ظلت « سنية » بجانبه هزيماً من الليل
تستمع إليه ولا تريد أن تتركه .

فقال أُمى على الفور :

ألم يكن عند « سنية هانم » جهاز « رڊيو » من قبل ؟
فتلكأ « الباشا » قليلاً ثم قال : لديها جهاز آخر ، واسكنها أظهرت
من الحفاوة بذلك الجهاز الجديد ما لم تكن تظهره بالجهاز القديم ...

لقد أصبح « الرديو » من حاجات العصر الحديث التي لا غنىة لأحد عنها،
أليس كذلك يا « سلوى » ؟

وكان لساني لا يطار عني على الكلام ، ولكنني غالبت نفسي وقلت :
دون شك .

وجاء « الأسطى جميل » بـ « الرديو » وأخذ يخرج به من صندوقه
فيذا به أحجم جهاز وقعت عليه عيني ، فقلت مغممة : ما أجمه !
وسمعت « الباشا » يقول : يسرنى أن يكون قد أعجبك ...
فقلت أمي :

كيف لا يعجبها ؟ ... إنه تحفة رائعة ... ألف شكر يا « باشا » .
فقال الرجل :

سأرسل لكم غداً مهندس « الرديو » ليضع السارية ويتخذ ما يلزم .
وخرج « الأسطى جميل » . أما « أم يونس » فقد وضعت الصينية
جانباً ، وأقبلت على « الرديو » تتفحصه بعين ملؤها التطلع والدهشة ،
فقال « الباشا » لى وهو يضحك : يجب أن تسمعيها الأغانى التي ترونها !
فابتسمت وقلت : سأفعل ... !

وقام « الباشا » مستأذناً فى الانصراف ، فشيّعناه حتى الباب .
وهناك أمسك يدي قائلاً .

إن « سنية » دائمة السؤال عنك . لماذا أبطأت فى زيارتها ؟
فقلت : سأفعل ...

— قريباً ؟ ...

— أرجو أن يكون ذلك قريباً .

وحياً « الباشا » ، والدقى تحية بالغة الرقة ، وانطلق مبسوط
(١٤)

القائمة ، ففى الخطوات ...

وأغلقت والدق الباب ، ثم دنت منى تقول :

ماذا ترين ؟ إنه آية فى الظرف والأدب !

فقلت فى غير تكلف:

لا اعتراض لى على ما ترين .

وفى ضحوة غد جاء مهندس « الرديو » لينصب السارية ويضع

الاسلاك ، فأخبرته أمى بأن الجهاز سيكون فى حجرتها ...

وسمعتها تغمغم أمام « أم يولس » قائلة :

إن مثل هذا الجهاز لا يترك فى أيدي من لا يقدره ، ولا يعرف

كيف يدبّره ! ...

تواصلت أيام أسبوع لم يقع فيها شيء يستحق الذكر . وكانت أمي قد استحوذت على «الريو» واحتكرته لنفسها . ولم تدعني إلا مرة واحدة للاستماع إليه ، ولكنني كنت أغتم فرصة خروجها فأذهب إلى حجرتها مع «أم يونس» ، نزجى الوقت بجوار «الريو» نستمع إلى مختلف الأغاني والاحاديث . وحمل إلى يوماً «الاسطى جميل» رقة من «سنية» تقول لي فيها :

وما كنت أتوقع منك أن تهمليني إلى هذا الحد . أنا مريضة منذ أيام .
هل لك في أن تحضري لنقضى اليوم معاً ؟ السيارة رهن إشارتك .
ورأيت من اللائق أن ألبس دعوتها ، فأخبرت «أم يونس» بالامر لتنبيهه إلى والدتي حين تحضر ، وغادرت المنزل على الفور .

أفلتني السيارة إلى منزل «الزهيري باشا» فصعدت تواء إلى حجرة «سنية» فألفيتها في فراشها ، وعلى مقربة منها أبوها يجلس على طرف السرير ، فدنوت منه وحييته بأدب ، واتجهت نحو «سنية» فألفيتها ممتعة بأدية الهزال ... ومدت إلي يدها في شغف تمسك بيدي ، ثم مسحت عينيها النديتين ، فاحتضنتها وقبلتها ، وسمعت «الباشا» يغمغم :
إنها نائرة الأعصاب ... نائرة الأعصاب !

وهض «الباشا» تاركاً لي مكانه على السرير ، وجلس على مقعد غير بعيد ، وقلت لـ «سنية» وأنا ألاطف يدها : لم أكن أعلم أنك مريضة .
فقال «الباشا» :

لقد لزمت الفراش منذ صباح اليوم الذى زرتك فيه .
وقالت «سنية» وقد لامت عيناها سروراً : هل أعجبك «الرديو» ؟
— كل الإعجاب .

فقال «الباشا» :
هل سمعت الإذاعات الأوربية : (لندن) .. (باريس) ... (روما) ؟
— سمعت بعضها ...

وقالت «سنية» : أليس الصوت واضحاً ؟
— كل الواضح ...

- إنه تسليق فى مرضى . أتريدن أن أدبره لك ؟
ولم أفطن إلى أن جهاز «الرديو» فى الحجرة ، فالتفتُ حيث
أشارت «سنية» ، فوجدته عن كُتب من النافذة ، فقلت لـ «سنية» :
لاستمتع إليه معاً .

وقام «الباشا» يعالج مفاتيحه ، وبعد قليل انطلقت الموسيقى
تعزف ، فأصغيت إليها ، وما لبثتُ «سنية» أن صاحت :
إن هذا اللحن مزعج ... مزعج جداً ...

فأدار «الباشا» أحد المفاتيح ، فسكت الجهاز ، وقالت «سنية» :
خير لنا أن نلعب بالورق ... أليس كذلك ؟
فقلت : كما تشائين .

وأخرجت «سنية» ورق اللعب من تحت وسادتها وبدأت تقلبه
وتقدم «الباشا» من السرير قائلاً : ألسنا محتاجين إلى شريك ؟
فقلت : سنية : تعال يا أبى ...

وأخذنا نلعب ، ورأيت «مدموازيل شاتل» ..

تدخل وفي يدها صحيفة حساء ، فإلن وقع بصر « سنية » عليها حتى صاحت : كلا . كلا . لا أريد .

وزهرت « عينا » مدموازيل شانتل ، دون أن تفوه بكلمة واحدة ، ودأت من السرير تبسط القوطة وتقرّب صحيفة الحساء من « سنية » فدفعتها « سنية » كدفعه كادت تلتقي بالصحفة على السرير ، لولا أن تماكنت « المدموازيل » وضبطت « الصحفة » بيديها ...

وكانت « سنية » لا تفتأ تصيح بقولها : لا أريد الحساء . لا أريده . فأخذت « المدموازيل » تبرطم ، والشرر يتطاير من عينيها قائلة : هذه أعمال أطفال ... يجب أن تشرب الحساء . ووضع « الباشا » ورق اللعب جانباً ، وقام مكفهر الوجه ، فأمسكت بيده « سنية » وجعلت تكرر :

لا أريد أن أشرب هذا الحساء يا أبني ... إن طعمه كريه .
— ولـمـكن يجب يا « سنية » أن تشربه ... إن الطيب يحتم ذلك عليك ...

فقالت « سنية » وهي مازالت تستعطف أباهما وتتضرّع إليه :
سأشربه في وقت آخر . لا أشربه الآن يا أبني . بحقك يا أبني !
فقالت « المدموازيل » : هذا شيء لا يطاق ... سأذهب عنك ، وسأبعث إليك بالحساء مع « الدادة شيرين » ... لها ...
وقاطعها « الباشا » بإشارة من يده ، فخرجت تدمدم ، ونظرت إلينا « سنية » وقد اشتد امتناعها ، وتمصفر وجهها . وقالت :
أريد أن أستريح ... أريد أن أبقى وحدي .
فغمغم « الباشا » : لا بأس ... استريحى .

وأخذ الباشا ، ينادى والداده شيرين ، فأقبلت مهرولة ، فأوصاها
أن تلازم سرير ابنته ، ورأينا دسنية ، تسبيل جفنيها ، فخرجنا في
خطوات ساكنة ، ونزلنا إلى البهو ، وأشعل الباشا ، لفافة تبخ وهو
يَـزِفُ قائلًا : إن حالتها لا تسر .

— أى مرض تشكو ؟

— إنها مصابة بفقر دم شديد مصحوب بشيء من ارتفاع الحرارة .
— هذا أمر هين .

— أرجو أن يكون كذلك ... ولكنه على كل حال مرض قد
يطول أمدّه ... إنه يتطلب صبراً وعناية ، وعلاجه الوحيد هو
التغذية الصحية كما أمر الطبيب . وقد شاهدت بعينيك كيف
تأبى الغذاء ؟

وخيم الصمت فترة كان الباشا يدخن أثنائها ، ثم انفعت إلى يقول :
وأنت ؟ كيف حالك ؟
— بخير .

فقال وقد عبرت فيه ابتسامة ساخنة : لست نائرة الأعصاب ؟

فقلت في هدوء : نائرة الأعصاب ؟ لماذا ؟

فأرسل قهقهة خفيفة ، وقال : الحمد لله !

— أظن أنه قد آن لي أن أستأذن في العودة .

فنظر إلى طويلاً وهو يتسم في ملاطفة ، ثم قال : تعودين الساعة ؟

لقد أثبت الآن أنك مازلت نائرة الأعصاب ! ...

— لا أدري لماذا تريد أن تقنعني بأنى نائرة الأعصاب ؟

— لقد اتفقنا على أنك ستقضين اليوم كله عندنا ... فلماذا

تنقضين الاتفاق ؟

— ولكن ، سنية ، محتاجة إلى الراحة .

— بل إنها في حاجة إليك .

وسمعنا في هذه اللحظة ، الدادة شيرين ، تناديني ، فقال ، الباشا ،

أترين ؟ لا بد أن ، سنية ، تطلبك !

— سأذهب إليها .

وصعدت إليها على عجل ، فألفيتها جالسة في السرير محتاجة .

فما إن رأتني حتى قالت : إنهم مازالوا مصرين على أن أشرب

الحساء ، ولكنني لن أشربه أبداً ...

ووجدت الدادة شيرين ، على مقربة من السرير ، تمسكة بالصينية

عليها صحيفة الحساء ، وفي يدها ملعقة تنظر إليها في اكتئاب وحيرة .

فدنوت من ، سنية ، ولاطقها ، وأنا أقول : أتحببيني ؟

— نعم ، أحبك حباً لا مزيد عليه .

— إذأ ستناولين ملعقة واحدة من أجلى .

— إنه حساء كرية لاصبر على عليه .

— أسمحين لي بمذاقه ؟

— افعلنى ما تريدن !

وتناولت ملعقة من الحساء . وكان في الحق طعاماً فاخراً ، فصحت :

أيجوز أن تحكى على شيء دون أن تختبريه ؟ أفسم بالله إن لم أشرب

في حياتي مثل هذا الحساء !

فصاحت ، الدادة شيرين ، قائلة : ألم أقل لك ذلك يا ، سنية ، ؟

وقربت صحيفة الحساء من ، سنية ، ومالت الملعقة وأدبقتها من فها ،

وأنا أقول : ملققة واحدة ، كجبراً لحاطرى !
فتناولت « سنية » الملققة وهى تمتعضة ، ثم قالت :
من أجل خاطرك أنت وحدك !
فقلت : وخاطر « الدادة » شيرين ، أيضاً ... يسوءها ألا يكون
لخاطرها عندك مقام !
فضحكت « سنية » قائلة :
إن راقها أن تستاء فلتفعل ... لا يهمنى أن تغضب أو ترضى !
فصاحت « الدادة » شيرين ، قائلة :
لا يهمنى غضبى أو رضاي ؟ ... سأترك لك الججرة .
وتهايت للخروج غضبى ، فنادتها « سنية » فقالت « الدادة » :
إن أعود لـألا إذا شربت ملققة حساء من أجل خاطرى !
فوجدت « سنية » تملأ الملققة وتصيبها فيها وجامست على حافة
السريـر ، وصحفة الحساء فى يدي ، ومازلت بـ « سنية » أروضها على أن
تشرب حتى قبلت ذلك بشرط أن أشاركها ، ففعلت ، وأحضرت لـنا
« الدادة » شيرين ، بقية ألوان الغداء ، فأخذنا نأكل ونتحدث ، ورأيت
« سنية » تقبل على الطعام فى شهية ...
ودخل « الباشا فى اللحظة التى كنا نتناول فيها الفاكهة المطبوخة ،
ودار بعينيه فى الصينية فوجد الصحاف فارغة ، فقال :
ما شاء الله ... لقد أتيتما على الطعام كله ... ولم تتركلى شيئاً ... !
فقلت على الأثر : لم نكن نعلم أنك لم تتناول غداك بعد يا عمى .
فقال ووجهه يكسوه البشر :
إن مساحكاً على أية حال ... هذه أول مرة تتناول فيها « سنية »

وجبتها من الطعام كاملة . ولا ريب أن الفضل في ذلك لـ « سلوى » ...
فأجابته « الدادة » شيرين ، على الفور : لولا وجودى لما تناولت
« سنية » هانم ، شيئاً ! .. إنها ما زالت تخشى غضبي !
فصاحت « سنية » تنكر دعواها ، وقهقه « الباشا » طويلاً ،
والتمت إلى قاتلا : ولكن ماذا جنيت أنت حتى يكون غداؤك هذا
الطعام ؟ إن طعامنا ينتظرنا في حجرة المائدة .
فقلت : أؤكد لك يا عمى أنى أفضل هذه الألوان من الأطعمة .
— ولكننا سنحتاج إليك لإطعام هذه الفتاة العنيدة في كل وجبة
من وجبات الأكل .

— لا أتأخر عنها كلما كان ذلك في استطاعى .
— ألف شكر لك يا « سلوى » . ألف شكر !
لم أغادر حجرة « سنية » طول الوقت ، وقد مضينا نلعب بالورق
ونتلعب بأشياء الأحاديث ونستمع إلى « الرديو » ونلاعب « الدادة »
شيرين ، ومكث « الباشا » معنا فترة ، ثم اضطر أن يتركنا ليستقبل
بعض الزوار .

ولما قفلت إلى المنزل بادرتنى أمى بقولها : كيف قضيت اليوم ؟
— على أحسن حال .

— وما حال « سنية » ؟

— مريضة بفقر الدم ، وإن علاجها يستغرق ربما .

— لا ريب أنه يستغرق زمناً طويلاً ... إن فقر الدم مرض قد
لا تحمد عقباه .

— أحقاً يا أماه ؟ أنتِ تبالغين !

— الحق ما قلت ، ولكننا نرجو من الله أن يمن على صديقتك
بالشفاء ... و « الباشا » ؟

— إنه مهموم من أجل ابنته .

— أظنه لم يفارق حجرتها !

— لقد أمضى معنا فترة .

— فترة ؟ !

— أعنى فترة كافية لاحظ فيها ابنته وأشرف على تغذيتها ... إنها
عنيدة تلتصق على الطعام ، مع أن التغذية الصحية هي علاجها الوحيد .

— هذا صحيح ، لقد كانت لى من زمن قديم صديقة مريضة بهذا
الداء ، وقد توفيت لأنها لم تكن تتناول ما تتطلبه الحال من الغذاء .

— أوه يا أمى ... ما هذا الكلام ؟ ولكن ما رأيك فى أننى
أفعلت فى حمل « سنية » على تناول وجبة الغذاء بأكلها !

— حسن ... حسن ... إنها خدمة جليلة تسديتها لى صديقتك
فى مرضها .

— ولما علم « الباشا » بالامر بالغ فى شكره لى وقال : « لنا سنحتاج
إليك لإطعام هذه الفتاة العنيدة فى كل وجبة من وجبات الاكل ...
— وبماذا أجبتنه ؟

— قلت له : « لى لا أتأخر كلما استطعت إلى ذلك سبيلا .

— خير أفأت ... إن جوابك مهذب رقيق !

— وهل كنت تظنين أنى سأجيب بغير هذا .

— لا أدرى ... كنت أخشى أن ينزلق لسانك إلى قول لا يليق
بمخاطبة « الباشا » .

— أنا لست سيئةً الأدب ... !
— ولكن أعصابك تبدو ثائرة في بعض الأحيان .
— لا تثور أعصابي إلا على من يسىء إليّ ... و ، الباشا ،
لم يصدر منه اليوم ما أنكره .
— الحمد لله !

— إن لا أجد حقاً أحد ... لقد كان « الباشا » اليوم بالغ
الأدب ، رائع الظرف .
— هذا هو رأي فيه ...
فابتسمت وقلت :

يظهر أن الدرس الذي ألقيناه عليه في الضيعة أفاده !
— مازلت تذكرين أشياء هي الآن في وادي النسيان ... ما أفرغ
بالك لهذه التوافه !
وابتسمت لي وهي تلاطف خدي .

وفي صبيحة غد لم تمكث تصحو أمي من رقادها ، حتى استدعيتني
وبادرتني بقولها : ماذا اعتزمت اليوم أن تفعلني ؟
— لا شيء !

— لا تفعلين شيئاً ؟ .. و دسنية ، ؟ .
— لقد كنت عندها أمس !
— الواجب يقضى بآنية أن تعود بها اليوم أيضاً .
— اليوم أيضاً ؟

— لقد جاورت لك رأيي ... على أن هذا أمر يخصك ... يجمل
بالصديق أن يكون لصديقه وفياً ، وأن يكون في وقت الشدة

إلى جانبه جهد إمكانه .

فأمسكت عن الكلام هنيهة ، فواصلت أُمى قولها :

لقد حدثتك أمس فى شأن صديقى التى كانت مريضة بذلك المرض
الذى تعانيه د سنية ، ... وأزورك الآن أنى ما كنت أفارقه ،
وقد لزممت فراشها ليلٌ نهار .

— ليل نهار .

— هذا ما فعلته أنا ... وأنت وشأنك ، ليس عليك أن تحذى.

حذوى !

ونَهَضت تخطو بخطو بضع خطوات .

ثم نادى د أم يونس ، تطلب إليها إحضار الفطور .

لم يمضِ طويل وقت على حديث أمي ، حتى سمعت صوت بوق
السيارة يدعوني إلى زيارة صديقتي ، وكنت آنذاك في حجرتي أرتب
أشياء ، فلم أعبأ بصوت البوق ، وتابعت عملي ، وجاءتني «أم يونس»
بعد هنيهة تقول : لقد أرسلت إليك «سنية» ...

فقاطعتها وأنا أعلّق ثوباً على المشجب : السيارة ... أعلم ذلك
لم أكن صمّاً حينما رنّ البوق يعلن قدومها .

فخرجت المرأة وهي تخمغم : يظهر أنك اليوم نائرة الأعصاب !
فأجبتها بضحكة طويلة ، ورأيتني أتباطأ في ترتيب أشياء بلا مسوغ
وأتمهل في ارتداء ثيابي كل التهل . ودخلت على أمي وهي تقول :
ما هذا يا «سلوى» ! ليس من الذوق أن تدعى السيارة واقفة
تنتظر هذا الوقت الطويل !

فأجبتها في إهمال : لدى عمل مهم ... على أن أنجزه قبل خروجي .
— عمل ١٩

وتمصصت شفّتيها ، وتركنتي .

ولبثت السيارة بباب المنزل نحو ساعة ، ثم نزلت أركبها ، فراحت
تنهب بي الطريق إلى دار «سنية» ، فلما بلغت أقصدت على التوسّحجرة
صديقتي ، فألفيت الجميع ينتظرونني بفارغ صبر ، فهشّسوا لمقدمي . وكان
في الحجرة «سنية» و «الباشا» و «الدادة شيرين» . فكان أول ما عملته
أن أقصد «الباشا» أحبيبه في أدب ، ثم هرعت إلى «سنية» فتعانقنا ،

وسمعت الباشا يقول لابنته: أظن أنه قد آن لك أن تتناولى فطورك..

فقلت لـ « سنية » : ألم تفطري بعد ؟ .

وقالت « الدادة شيرين » مغمضة :

لو خلى بينى وبينها لما تأخرت لحظة عن تناول الفطور !

وجاءت بصينية الطعام .

فبدأت « سنية » تطعم « مبتسمة » تبادلى النظرات .

وقضيت الوقت بجانب صديقى ، يختلف لىنا « الباشا » فى الفينة

بعد الفينة . وكان جم الادب بالغ اللطف . وفى العصر رأيت يدخل علينا

فى صحبته الطبيب ، فخرجت من الحجرة وانتظرت فى البهو حتى ينهى

الطبيب مهمته ، وبعد برهة وجدته يغادر الحجرة وهو يتحدث إلى

« الباشا » مشرق الحيا ، وألفيتهما يقصدا مكانى ، وتقدم « فى الطبيب

يقول فى ظرف : أيمك أن تنال صديقتك الشفاء .

— يهنى جداً يا « دكتور » !

— إذن يجب أن تعلب أن الأمر فى يدك !

— كيف !

— إن العقاقير يا آنسة ليست وحدها هى الدواء الناجع ...

هنالك الحالة النفسية ، إن لها أعظم الاثر فى مغالبة المرض .

— هذا صحيح ...

— إن « سنية » تأنس بك غاية الانس ، فلزومك لىاها كفىل أن

يعجل لها الشفاء ... أستطيع أن أقول إنه أنجح دواء .

— سأكون معها يا « دكتور » .

وقال « الباشا » مبتسماً : اتفقنا .

وربت والدكتور، خدى، وانطلق مع الباشا، يستأنفان الحديث .
وقبيل مغيب الشمس وأنا فى حجرة « سنية » أتأهب للفقول إلى
منزلى . دخل « الباشا » يقول :

لقد أمرت أن يعد لك كل شيء . فلتكونى مطمئنة هادئة البال .
— ماذا ؟ .

— طلبت إلى « شيرين » أن تهوى لك حجرة نومك ، وأن توفر
لك فيها كل ما تحتاجين إليه من الثياب ونحوها .

فقلت له وأنا دهشة متعجبة : ولكن يا عمى ...

— ماذا ! ألم تسمعى ما قاله « الدكتور » !

— إنه لم يقل ...

فقاطعتى بقوله : لقد أوضح لى كل شيء .

خففت من بصرى وغنمت : لا ... لا أستطيع .

— لقد أرسلت فى طلب الإذن من والدتك ، فلم تبد امتناعاً ..

— ولكن ...

فالتفت « الباشا » إلى « سنية » قائلاً :

إن صديقتك تأبى أن تمضى معك بضعة أيام .

فأمسكت « سنية » يدى وشدت عليها وهى تنظر إلىّ فى ضراعة .

وخرج « الباشا » وهو يقهقه فى تؤدة قهقهته المألوفة .

... ومرت أيام ثلاثة وأنا بمنزل « سنية » ألقى من أهل الدار

أجمعين تكريماً وحفاوة ولا سيما « الباشا » ، فقد كان متلطفاً فى أقصى تلافيف

وكثيراً ما استبقانى معه بعد الطعام يفاكهنى بنوادره وطرائفه .

وفى أمسية اليوم الثالث ، وأنا على أهبة الروح إلى حجرى

لاستريح وأناام ، رأيت «الباشا» يتقدم منى وفى يده علبة كبيرة ، وقال لى وهو يفك وثاقها :

إن «سنية» تفكر فى تسليتك . . . انظرى ، لقد أوصتنى بأن أحضر لك «رديو» صغيراً يتنقل معك حيث تكونين . وكشف لى عن هذا «الرديو» فإذا به تحفة جميلة .

وسمعت «الباشا» يقول : تستطيعين أن تستمعى إليه فى كل مكان ، دون أن تتخذى له سارية أو تمدى له أسلاكاً .

وأخذ يشرح لى طريقة استخدامه فى إطالة واهتمام ، ثم أداره أمامى ، فأسمعنى لإذاعات من مراكز شتى . . . وأخيراً قال لى هامساً :

إنه يغنيك عن «الرديو» الكبير الذى فى حجرة والدتك .

فنظرت إليه دهشة ، فأرسل قهقهة خفيفة ، وأخذ يربت كتفى ، وقال فى هدوء : لقد سألت مهندس «الرديو» عن كل شيء . لا تقضى با صغيرتى أننى مهمل شأنك ، غير متابع دقائق حياتك !

ودنا منى يواصل قوله :

ما زلت أكرّر على مسمعك أننى أنوحى دائماً سعادتك . . .

ولأطف يدى ، ثم قال لى : طاب مساؤك يا «سلى» !

فقلت مغممة وقد خفضت من بصرى : طاب مساؤك يا عمى !

وانقضى يومان آخران و «الباشا» يغمرنى بهداياه من الحلوى والفطائر المنوعة . وكان يقول لى وهو يقدمها لى : قد لا يروقك ما تجدين من طعام المنزل ، فتستعينين عنه بهذه الحلوى والفطائر .

وفى مساء اليوم الخامس بعد أن تناولنا العشاء ، جلست لى «الباشا» أباسطه فى الحديث ، وإذا بى أشعر بارتفاع الكلفة بينى وبينه ، وطالت

جلستنا من حيث لا أشعر . وعندما أردت الاستئذان منه في الرواح
إلى حجرتي ، أخرج من جيب صدره علبة صغيرة فيها خاتم جميل قدّمه
إليّ ، وهو يقول وعلى فمه ابتسامة حائرة : هذا لك يا «سلوى» !

وتأملت الخاتم وقلبي يهفو إليه ، وغنمت :
لا ... لا يا عمى ... هذا كثير !

فقد يده إليّ بالخاتم ، ثم مضى يضعه في إصبعي ويقول : خذيه على أنه
هدية من «سنية» ، إن كنت لا ترغبين في قبول شيء مني ... !

— لا أقصد ذلك ... إنما ...

— إنما يجب أن تحتفظي به تذكراً لجميلك الذي أسديته
لصديقتك ... إنها مدينة لك بحياتها .

— لم أقم إلا بالواجب يا عمى .

وأمسك بيدي «سنية» ، ثم قال وهو يرفعها إلى فمه : أسمحين ؟ !

فأطرقت في «سكنية» ، وتركت يدي في يده فقبلها قبلّة طويلة ،
وأفيتسه بهم «بقبلّة» أخرى ، فجذبت يدي لطف ، وأنا أقول :

مساء الخير يا عمى ... أشكر لك ! ...

ورأيت شفتيه تحتلجان دون كلام . وقصدت إلى حجرتي ورأسي
يموج بمختلف الأفكار . ووقفت بجوار النافذة ، وجعلت أحرك الخاتم
في إصبعي وأنا أطيل النظر إليه . ثم وقع بصري على «الريوء» غير
بعيد مني ، فذهبت إليه على مهل . وأدركته ، فانطلقت منه رقائق
الأنغام ، فأصغيت لها مغتبطة . وعيني لا تنحرف عن الخاتم في إصبعي .
ومرّ بيالي في هذا الوقت موقف وافته من الأستاذ «رجائي» ، حين
قدم إليّ «خاتماً» فأبليتته في استنكار ، فرفت على فمي ابتسامة ، وذهبت

إلى سررى أتمدّد عليه ... وقضيت وقتاً وأنا على هذه الحال ، يبعث
والرديو ، إلى بشدوه الطروب ... ووجدتني أردد قول أمى :

لماذا لا نتملى بهؤلاء الرجال دون أن ينالوا منا مثلاً ؟ !

... وفى غد قبيل الظهر ، علمت أن أمى قدمت تزور دالباشا ،
وأنها معه فى حجرة الزوار ، فى الطبقة الأولى ، فنزلت على عجل ،
وأردت أن أدخل الحجرة حيث يجلسان ، ولكنى ماكدت أقرب من
الباب حتى تراجع خطاى ... أليس مما يجافى الذوق أن أفتحهم
الحجرة بلا استئذان ؟ ... ولكن لم حضرت والدتى ؟ ... لأنها مفاجأة
غريبة .. ربما كانت قد حضرت لتسأل عنى ... إني أطلت غيبتي عنها
ومكوثى فى هذا المنزل ... ووقفت بجوار الباب أسمع ، فعلمت أن
الزيارة أوشكت أن تنتهى ، وسمعت والدتى تقول : لا أدري كيف
أشكر لك يا سعادة دالباشا ، ما تفضلت به علىّ . لن أنسى جميلك
معى ... سارد إليك النقود حين يصل إلىّ دخلى من الوقف ...
ولولا أنى ضويقت بأمر الحجز وهددتني المحضر مرات متوالية لما
طوعت لى نفسى أن أجاهر بهذا المطلب .

فأجاب دالباشا فى صوته الهادى الرزين : أنا مستعد لأية خدمة
يا دهانم ، لا كلفة بيننا ... يجب أن تعدّينى صديقاً خالصاً للأسرة .
— أشكر لك يا دباشا ، هذا الفضل ... وهيهات أن أنسى
ذلك الجميل !

وصمتت برهة ، ثم واصلت قولها :

أرجو أن تسمح لى بورقة وقلم لاكتب لك سنداً .

— سنداً !

— سنداً بالنقود يا د باشا !
— ولم العجلة ؟ أهكذا يكون الشأن بين الأصدقاء ؟
— مهما يكن من أمر يا د باشا ، فالصداقة لا دخل لها في
المعاملات الرسمية .

— هذا صحيح ... ولكن بيننا ثقة متبادلة .
— أريد كتابة السند ، فإن لم يرقك هذا فأني آسفة إذ أرد
إليك النقود .

ولمحت شبح أمى وهى تمد يدها بشيء إلى والباشا ، فردها عنه يقول :
لا بأس ... لا بأس ... إذا أصررت فأني أرسل إليك السند
غداً لإمضائه ... إن الكاتب غائب عن المنزل الآن ، وما دام
الأمركما تقولين يدخل في نطاق المعاملات الرسمية ، فيجب أن يأخذ
طريقه الرسمي ...

فسمعت والدتي تقول :

إذن سأنتظر الكاتب يأتى إلى بالسند غداً ...
— ذلك ماسيكون !

ونفضت أمى ، وهى تكرر شكرها ، وحيث د الزهيرى باشا ،
فأخليت مكانى وتواريت عن العيون ... وما لبثت أن شعرت بالهموم
تتألب على ، وبالضيق يغزو صدرى ، فقضيت وقتى تتنازعنى شتى
الأفكار ، وقد حاولت أن أكتم هذه النزعات المتضاربة بين ضلوعى ،
والأ يبدو على منها شيء .

وبعد أن تناولنا الغداء ، استأذنت و سنية ، فى الذهاب إلى دارى
لأمر مهم ، ووعدتها أن أعود بعد قليل . فأذنت لى بعد طول ممانعة

واعترض، ودخلت المنزل فلم أجد أمي ، وسألت عنها وأم يونس، فأخبرتني بأنها لم تعد حينئذ خرجت في الصباح ، فقلت لها :

وهل أخبرتك أين ذهبت ؟

— لم تتعود يا بنتي أن تخبرني بما تنوي عمله في يومها ... ولكن ما بك ؟ مضطربة أنت !

— وهل تريدني أن أكون هادئة ، والمحضر يأتي هنا كل يوم لحجز الاثاث ؟

فخلفتني وقتاً ، وقالت منغممة : محضر ؟ ... أي محضر ... !

— إنه كان على وشك أن يبيع الاثاث بالمزاد العلني !

— بالمزاد العلني ؟ ... أبعد الله الشر يا بنتي ... لم يقع شيء من ذلك قط ...

— قلت لك إن المحضر كان يأتي هنا كل يوم لحجز متاعنا وبيعه ! فقالت في هدوء وثقة وهي تنو إلى : لم يحضر أحد .

— تزعمين أن المحضر لم يأت ؟

فقالت وهي على حالها : وأين كنت أنا ؟ .. لأنني لم أفارق البيت ؟

— ألم يأت أحد ... أو أئمة أنت ؟

— لم يحضر إلا حمدي أفندي ، وقد جلس مع والدتك فترة قصيرة .

— وحمدي ، .. مت ؟

— أمس .

— ألا تعرفين لم حضر ؟

فقالت بعد تردد : لم تخبرني والدتك بشيء .

— ولكنك تعرفين ... أخبريني فيم حضر ؟

— أظنّ ... أظنّ ...

— تكلمى .

— إنه حدثها في أمر خطبتك .

— وماذا قالت والدتي ؟

— كان يبدو عليها الامةاض .

— هل رفضت ؟

— لم ترفض رفضاً صريحاً ... ولكن ...

— حسناً ... حسناً .

وتركتُ « أم يونس » وفصدت إلى حجرتي . وقضيت الوقت أنتظر عودة أمي ، وفي صدري كربة لا تريم ... وكانت « أم يونس » تردد عليّ بين حين وحين . تحاول أن تسري عني . وأوشك الليل أن ينتصف قبل أن تعود أمي ، وما إن أحسست أنها تطرق المنزل حتى هرولت إليها على الأثر في ردهة الطبقة الأولى . وإذ رأتني قالت :

ماذا ؟ ... أنت هنا يا « سلوى » ؟ ... لم تركت منزل « الباشا » ؟

— وهل كنت تريدني أن أقيم هناك إلى الأبد ؟

فذهرتُ إلى متفحصة بعين يبين فيها القلق ، وكان وجهها محقناً
ظاهر الذبول تكسوه التجماعيد والغضون ، ثم قالت : ما بك ؟ ...
يظهر أنك غضبي ... هل أساء معاملتك أحدٌ في منزل « الباشا » ؟
— كلا ، كان أهل المنزل جميعاً غايةً في الرقة والظرف .

— إذن من ؟

- وهل شكوت لك أحداً !
- إن كلامك ليبعث على العجب ... أفصحى .
- لا رجعة لي بعد اليوم إلى منزل د الزهيري باشا ، !
- لا ريب أن أحداً أساء معاملتك ... أليس كذلك !
- قلت لك إن أهل المنزل جميعاً كانوا في غاية الرقة والظرف ، ولكننى اعتزمت ألا أعود إليهم أبداً .
- جلست على المقعد في إهمال ، وأشعلت لفافة ، وقالت :
- أحدث من والباشا أمر كالذى كان منه أثناء وجودك في الضيعة !
- فقلت في صوت متهدج :
- لم يحدث شيء ، وإن يحدث من والباشا معى أمر يخدش كرامتى .
- فنفثت دخان لفافتها ، وابتسمت قائلة :
- حسن ... حسن ... لا أرجو شيئاً غير ذلك !
- مهما يبذل د الباشا ، من محاولات فإن جهده ضائع ... لن يستطيع أن يشتري بهذه المنحة التى منحك إياها صباح اليوم !
- فنظرت إلى مدهوشة ، وقالت : منحة ... أية منحة ؟ .
- لقد علمت كل شيء .
- فعادت إلى لفافتها تدخنها ، وقالت وهى تشيح عنى بوجهها :
- تقصدين مسألة القرض !
- ثم واجهتنى بقولها :
- أفى ذلك عيب ؟ إنه قرض سارده إليه فى أقرب فرصة .
- هيه ... قرض ! .
- أجل ... قرض ... وهل أنا من يقترضون ولا يؤدّون

ما عليهم من دين ؟ إن أساسَ معاملتي كلها الشرف والأمانة .

— أئمة سبب يدعوك إلى هذا القرض ؟

— المحضر والحجز الذي يتهددنا !

— ألا تعفيني من سماع هذه الأقاويل ؟

— أتريد أن يُباعَ متاعُنَا بالمزاد ؟ ... أتريد أن نفتضح

أمام الناس ؟ !

— هوّوني على نفسك يا أمي ... أنت تبالغين .

— أبالغ ؟

— أيّ محضر وأيّ حجز ؟ ... إنني لست من الغفلة بحيث أصدق

ما تدّعين !

فعمدت يديها على صدرها ، وقالت تتحدّثني :

إذن أنا كاذبة ... فلم أقرضت هذا المبلغ فيما تظنين ؟

— هذا سؤالٌ أرجّحه إليك .

فنهضت إلىّ وعيشتها تقدح شرراً ، وقالت :

ألا تستحين ؟ من أنت حتى تقاضيني ؟ من أنت حتى تنافسيني في

تصرفاتي ؟ إنني حرة فيما آخذ وما أدع !

— أنا لا أناقشك في تصرفاتك الخاصّة ... ولكن إذا كان في

هذه التصرفات ما يمسني ويغدش كرامتي ، فإن من حقّي أن أسأل

وأن أناقش ...

— يمسك ويغدش كرامتك ... هيه ... هيه ... وهل تدريكين

أنت يا حقا من شأنك ومن كرامتك فوق ما أدركه ؟

وحددتني بنظرة نسكراء ، ثم انصرفت عني .

فما مضت خطوتين حتى لحقت بها ، وقلت :
سأضع حدّا لكل هذا ... سأزوّج دحدي ، ... سأزوجه .
فأمسكت عن السير تبسّم في سخرية ، وقالت :
اختيار موفق ... يشهد بذوق سليم !
— سليم أو غير سليم ... سأزوّج دحدي ،
— حسنّاً تفعلين ... إن أمتنع هذا الزواج !
وهمّمت أن تتابع سيرها ، ولكنّها تعصّدتني بنظرها وهي تقول :
ولكن إذا ندرمت على ما فعلت فيما بعد ، فلا تلقى على لوما ...
ذمتي براء !

نهضت من فراشي صباحَ غدٍ أعرض ما كان من حديثي مع أمي .
 في الليل ، فاستبان لي أنني أسرفت في بعض ما قلت ، وأني تسرعتُ فيما
 كان مني إليها ... لقد كان خليقاً بي أن أتناولَ الأمرَ معها في هدوء ،
 وأن أناقشها في تعقُّل . فانتظرتُ حتى استيقظتُ وتناولتُ فطورَها
 ثم ذهبتُ إليها أحييها تحية الصباح ، وكانت كعادتها على الأريكة
 تدخن لفافتها ، فاقتربت منها رقلت في لهجة وادعة :

جئتُ لاسترشدَ برأيكِ في شأنٍ وحدى . .

فلم تنظر إليَّ ، وأجابتنى وهي تتأمل لفافتها :

لقد قلتُ لك إنني لا أمنع هذا الزواج .

— ولكنك غير راضية عنه !

— حسبكِ أن تكوني أنت راضية كلِّ الرضا !

فأقبلت عليها ، وجلست على طرف الأريكة ، وقلت : إن وحدى .

شابٌّ مهذبٌ ، طيب القلب ، يتجلى بصفات كريمة ... ولكن ...

— ولكن ماذا ؟

— أنظنين أنه سيسعد زوجته ؟

— إنه يحبُّكِ وأنت تحبينه ... أليس في هذا غناء ؟

— حقاً فيه غناء ... ولكن مرتبته ... !

— لقد بلغ خمسة عشر جنياً .

— قدرته لا بأس به !

— قدر طيب لزوجين قنوعين مثلكما ، ليس لهما في الحياة مطامع .
وسيزيد هذا المرتب ...

— قال ذلك لى .

— هذا هو المنتظر .

— ألا اعتراض لك على هذا الزواج ؟

— إن كانت هذه الناحية تشغل بالك فاطمئنى ... ليس لى أى
اعتراض ، إذا رغبتا فى إجسراء العقد فهبّا .

— أى عقد ؟

— عقد الزواج !

— أراك تسخرين منى .

— لم ؟ مادمتما متحابّين ترغبان فى الزواج ، فلماذا لا تبادران
بإجراء العقد ؟

— أجاّد أنت فيما تقولين ؟

فنظرت إلى نظرة مصلبة ، وقالت :

عجبا لك ... لماذا ترتابين فى قولى ؟

— لأنك اعترضت على هذا الزواج قبلا .

— حقاً ، كنت اعترضت عليه لأسباب وجيبة بدت لى ...

وما دمت أنت مقتنعة بأن هذا الزواج سيوفر لك الهناء والسعادة ،

فلم الممانعة ؟ ... لست أما التى ستزوج ... الأمر إليك أنت ... لقد
بلغت من السن ما يؤهلك لأن تبني مستقبلك بنفسك .

— أشكر لك هذا يا أمى .

وأمسكت بيدها ملاطفةً ، وقلت لها بعد صمت لم يطل :

أرجو ألا يكون قد ساء لك ما بدر مني في الليل .
— أنا ؟ ... لم يسؤني شيء ... إنما خالفتُ الأمهات لاحتمال
أعباء الحياة ... وأنت وإن كنت راجحة العقل ، متقدة الذكاء ، فإن
التجربة ما برحتُ تعوزك ... والتجربة يا د سلوى ، أهم مقومات
الحياة ... إن العيب الذي آخذه عليك هو سرعة البت في الأمور .
أراك دائماً مندفعاً ، لا أناة ولا روية ، على أن هذا كله من أخلاق
الشباب ... ولكن أنصح لك أن تتبصرى في الأمر طويلاً قبل أن
تبتسى فيه برأى حاسم ... إن العجلة قد تضررك ، ولكن التأني فيه
الخير والسلامة .

فطاطات رأسي ، وطفقت أعيت بطرف ثوبي .
وظللت وقتاً صامتة ، ثم قلت مهممة :
قد يكون الحق فيما تقولين يا أماء ... أشكر لك نصيحتك !
وتركت أمي ، ومضيت إلى حجرني . ومكثت فترة في حيرة وقلق ،
يتعذر علي أن أجمع ما تشعث من أفكارى ، ثم خطوت إلى الدرج
أفتحه لآخذ المشط أسرح به شعري ، فوقع بصرى على الرسالتين اللتين
بعث بهما إليّ ، الدكتور داود فهم ، فبسطتهما أمامي ، وجعلت أنقل
بصرى بين سطورهما ... ثم ما عتست أن وجدتني أقبل على قراءتهما
في اهتمام ، وما إن فرغت من القراءة حتى اعتزمت أن أكتب والدكتور
فهم ، رداً رقيقاً ... إنه يضمن لي شعوراً كريماً ... ليته الآن في
دمصر ! ... إنني لشديدة الحاجة إلى شخص مثله ، أستمع إلى قوله ،
وأهتدى بنصائحه ، وأعول على رأيه !
وجلست أعدّ العدة لكتابة رسالة إليه ، وما كدت أفعل حتى

أقبلت د أم يونس ، تخبرني بقـدوم د حمدي ، فوضعت القلم جانباً وأنا أـزفر ...

وذهبت إلى د حمدي ، فاستقبلني ببشر فياض ، ثم انطلق من فوره يسألني عما فرَّ عليه عزمي في شأن زواجي به ، فلزمت الصمت وقتاً ، فبدأ عليه القلق ، وأخذ يعبث بيديه ، وهو ينظر إلى خلصة ، فقلت له : لماذا أنت عجول ؟

— المسألة يا دسلوي ، يتوقف عليها هنائي أو شقائي .

— أفكرت في هنائي أو شقائي أنا يا د حمدي ، ؟ .

— ثقي بأنك ستكونين أسعد الزوجات . إن زوجك لن يألوجهداً في توفير المعادة لك .

— أوافقك أنت بما تقول ؟

— كل الثقة ... مرتبي لا بأس به ، وسيزيد ، وأنت فتاة فنوع ، وعواطفنا متلاقية ، والدتك لا تعارض ... ماذا تريدن فوق هذا ؟

— حقاً لا شيء .

— إذن لماذا ترددن ؟

— أعدكم بأنني لن أخيب رجاءك . ولكن أمهلي رويداً .

وأقبلت د أم يونس ، تخبرني بأن الدادة شيرين ، قد أتت ، وأن السيارة بالبـاب ، لأن د سنية تطلبني لأمردى بال .

فنهض د حمدي ، وهو يرئوإلى في استرحام ، فنهضت وأنا ابتسم له ثم قلت : كل شيء سينتهي إلى خير .

وخرج وأنا أشيـعه بنظرة إشفاق ، ولكني لا أدري كيف شعرت حين تركته براحة واطمئنان ...

... أفلستى الميابة إلى منزل د سنية ، فما كادت ترانى حتى هرعت
إلىّ تفضنى بين ذراعيها وتقبلىنى ، ثم أخرجت من صدرها برقية
بالفرنسية ، ومالت على أذنى مهتاجة تهمس :

من د شريف . . سيحضر بعد أيام !

— مباغثة جميلة !

ورنت إلىّ بنظرة ساذجة ، ثم تشبّثت بى وقد أطبقت جفنيها فى
غبطة وأنشوة ، وأخذت تههم : إنى خائفة ... خائفة يا د سلوى ، !
فاحتضنتها وأنا أربت ظهرها فى عطف وتودد ، ولكنى كنت مغمية

ببنى وبين نفسى أستهمجن قولها وأتساءل : مم تخاف ؟

وعدت إلى المنزل وأنا أشعر بالتأفف من د سنية ، ومن نفسيها
التي تبعث على العجب . ثم قلت لنفسى : هل تستطيع فتاة تبلغ هذا
المبلغ من ضعف الشخصية أن تسعد زوجا مثل د شريف ، ! ؟
وما إن دخلت المنزل حتى علمت أن أمى تشكو المأ فى أمعائها ،
فصعدت إليها ، فوجدتها ددة على الأريكة وقد وضعت على بطنها
كيساً مليء بالماء الساخن ، فما إن رأتى حتى قالت : خير ! إن شاء الله ،
ما هو الأمر المهم الذى استدعتك من أجله د سنية ؟

— إن خاطبها د شريف ، أبرق إليها أنه عائد بعد أيام .

فرفعت رأسها قليلا ، وقالت : حقاً لأنه خبر مهم .

— خبر مهم لها بلا شك .

وأخذت والدتى تصلح وضع الكيس على بطنها . ثم قالت وهى
تفحصنى : أسعيدة هى بهذا الزواج ؟

— كل السعادة ... حتى إنها لتصدر عنها أعمال صيانية

غير لائقة .. ا

— يحقّ لها أن تسعد ... أيتها فتى و كشريف ، ؟

— لا ينكر ذلك أحد .

— شاب متعلم و سليل أسرة عريقة ، ميسور الحال ... ماذا تطلب

الفتاة فوق هذه الميزات ؟

— هل تظنين أنها ستكون سعيدة ؟

— بلا شك ...

— وهل تظنين أن الغنى والعلم والأصل العريق يسعد الأزواج ؟

— وماذا يسعد الأزواج فيما ترين ؟

— توافق الأهواء ، وتجانس الميول .

— إن توافق الأهواء وتجانس الميول لا يغنيان فتى ، إذا كان

مرتب الفتى لا يزيد على خمسة عشر جنياً ... أنتظنين أن شخصاً مثل ...

فحاطعتها قائلة : أخبرتنى وأم يونس ، أنك تشكين ألماً في الأمعاء ،

فهل أنت الآن أحسن حالاً ؟

فحدقت في لحظة وهي صامتة ، ثم قالت : بل إنى لأشعر بأن الألم

في ازدياد ، على الرغم من هذا الكيس السخخن .

— ثقي أنها وعكة خفيفة لا تلبث أن تزول .

وقفت مستأذنة ، فاكدت أخطو خطوتين نحو الباب حتى سمعتها

تقول : و و حمدي ، ... ماذا قلت له ؟

فأجبتها وأنا في طريق : لا جديد ... لم أقل له شيئاً .

... وفي الصباح تبين لي أن حالة أمي تزداد سوءاً ؛ فاضطررنا

أن ندعو الطبيب ؛ فنصح لنا بنقلها إلى المستشفى ؛ وأعلننا بأن الحال

قد تقتضى إجراء عملية جراحية ... فاشتد اضطرابى ، وأسقط فى يدى ، وهال والدق الأمر ، فأخذت تصيح وهى تقند رأى الطبيب ونشور عليه ، وأقسمت بأغلظ الأيمان إنها لن تذهب إلى المستشفى . ولكن الطبيب أفهمها فى حزم أن الأمر جد ، وأن كل دقيقة تقضيها فى المنزل هنا تعرض سلامتها للخطر ، وأن واجبه يحتم عليه اتخاذ الإجراءات اللازمة لنقلها إلى المستشفى على الفور .

وكان الطبيب يبدو لى فى هيئته وشارته كأنه شرطى قوى الشكيمة صعب المراس ، لا يعرف إلا إلقاء الأوامر والانقضاء على المجرمين . له نظرات نافذة ، وملاح صلبة ، ولهجة خشنة جافية . ثم أخذ يجمع أشياءه تأهباً للانصراف ، فألفيت والدقة دهنضت تشبهت به ضارعة باكية ، وهى ترجومنه أن يتولى علاجها فى المنزل ، فرمقها الرجل بنظرة شزراء ، وصاح :

يجب أن تلمى الفراش يا هانم . يجب ألا تكثرى من الحركة . لا سبيل إلى غير ما أرى ... يجب أن تقصى إلى المستشفى فى الحال . وخرج بخطا ثقيلة لا يلوى على شئ ، وعادت أمى إلى احتياجها تصيح وتقسم إنها لن تذهب إلى المستشفى ، ولن تبارح البيت مهما يكن من أمر .

وما أمسينا حتى كانت أمى فى المستشفى ... وقد قرر الجراح إجراء عملية لاستئصال الزائدة الدودية فى الحال ، ورأبت أمى قد تزال احتياجها وحل محله استسلام يائس ، فكانت تدور بعينها المخضلتين بالدمع حولها كأنها تبحث عن مقلدها . فدنوت من فراشها وقد امتلأ قلبى حزناً وأمى ، وأخذت يديها لأطفيهما وأقبلهما .

ودعيت لالقي مدير المستشفى ، فقصدت إليه ، وكان الرجل يجلس منتفخاً خلف مكتب نخم في حجرة رحيبة ثمينة الرياش ، كأنه غنمشفر يطل من عرينه ، ومد إلى يده بورقة في حركة تتجلى فيها السيادة والترفع ، وعيناه تعبانان فيما يخطى مكتبه من أوراق . فتناولت الورقة ، ونظرت فيها ، فإذا هي أخلاط أرقام وكلبات تاهت نظراتي في تضاعيفها ، فلم أدرك منها شيئاً . وسمعت الرجل يقول في صوت أجش :

هذا المبلغ يجب أدائه قبل إجراء العملية .

ولم أدر أى قدر يطلب ، ولسكني على أية حال لم يكن لدى مال أوذيه قل أو كثر .

فقلت على الأثر : سنودى ما تطلب ياسيدى ... سنؤديه بلا ريب .
ولكنى الآن لا أستطيع أداء شيء ... فأهلنى إلى غد .

فأخذ المدير يعبت بأفلامه وقد قطب حاجبيه ، ثم قال : يؤسفنى جداً يا آنسة أن أقول لك إن هذه تعليمات المستشفى ... لا دخل لى فيها . وكنت أنظر في الورقة ، فأرى الأرقام تتراقص أمام عيني وتتشابك متزاحمة ، ووقع في روعي أن المطلوب مال جسم يبلغ المئات ، فازددت حيرة وارتاباً ... وهممت : وماذا نصنع يا سيدى ؟ !

وفي هذه اللحظة سمعت خفق خطوات خلقي ، خطوات مترنة أعرف وقها حق المعرفة . وقبل أن ألتمت لاتبين من القادم ألفت الغضنفر ، أمامى ينهض نهضة احترام ، وقد انبسطت أسارير وجهه ، وقال :

وسعادة الباشا ... أهلاً وسهلاً .

وتقدم الزهيرى باشا ، يحسنى المدير ، ولم ينس أن يلاطف كتنى في تودد وهو يبتسم ، ثم تناول الورقة من يدي ، وقال للبدير :

— هذه الأسيرة من معارفى ... آمل أن تجد كل عناية ورعاية .
فانطلق المدير يقول، وقد انهال على يديه يدعكهما :
لاشك أننا سنبدل فى سبيل راحتها جهد المستطاع ... المستشفى
رهن أمرك يا «سعادة الباشا» .

وهمس «الباشا» فى أذنى : اذهبي أنت الآن ، وسألق بك عما قليل
فعدت إلى حجرة أمى والهواجس تملأ رأسى ، فما إن دخلتها حتى
علمت أن أمى نقلت إلى حجرة العمليات ، فاشتد جزعى ، وقضيت وقتاً
محتاجاً الأعصاب ، مضطربة الفكر ... وألفيت «الزهيرى باشا»
يدخل ، فهرعت إليه ، وقلت : لقد نقلوها إلى حجرة العمليات ...
فأمسك يدي يلاطفنى مبتسماً وهو يقول : عملية صغيرة ... ستنتهى
إلى خير . لا تجرعى . اطمئنى . لقد أمرت بأن يُبعدوا لك حجرة
بجوار حجرة والدتك ، حتى تطمئن إليك وتطمئنى إليها .

وكان يرنو إلىّ فى عطف محبب ، وبدى بين يديه لا يفتأ يلاطفها ، ثم
قال فى صوت خففت : لن تطالبك إدارة المستشفى بشيء على الإطلاق .
فرفعت إليه بصرى متسائلة ، وأنا أردد : ولكن يا عمى ...
فأجابنى بصوت رقيق : سنسوّى الأمر بعد خروج والدتك من
المستشفى ... لا يشغل بالك شيء .

فألفيتى أناهم فى الإجابة ...
وبغمة تحدّرت عبراتى ، فأخفيت وجهى فى يدي .
فجعل «الزهيرى باشا» يقول ، وهو يربت كتفى :
ما هذا ؟ ألا تريد أن ترافقنى لأريك الحجرة التى أعدت لك ؟
(١٦)

تمت العملية بنجاح ، وسارت الأمور على ما يرام ، وطابت في المستشفى لإقامتي ، إذ كانت حجرتي نظيفة - أنيقة ، والخدم يعمنون بشأني عناية ممتازة ، والمرضات يحطنني بمودتهن ومؤانستهن .

وكان «الزهيري باشا» يوالينا بزوراته ، حاملا إلينا طاقات الزهر المنتقى وعلب الحلوى الفاخرة ، وقد أمر بتخصيص ممرضتين لوالدتي تتناوبان خدمتها في الليل والنهار . وعلبت أنه يقوم بأداء نفقات المستشفى على اختلاف أبوابها في سماء ملحوظ .

وترادفت الأيام وأنا في بحبوحة من عيش ناعم هنيء ، وكان «الباشا» إذا قدِمَ المستشفى توخى حجرتي أول الأمر . وقضى فترة يناقني الحديث في تلطف ومفاكة ... وياله من محدث لبق ، يخلب اللب بطرافة نوادره ودعاباته ... وكان لا ينسى أن يحمل إليّ تحية ابنه «سنية» ويعتذر عن تخلفها بأنها ما برحت متوقعة لم تستوف بعد راحتها ، ثم يبتسم ابتسامته الرقيقة وهو يقول :

لأنها تنتظر «مقدم» شريف ، فهو في طريقه إلى «مصر» ، وهي حريصة على أن تلقاه موفورة العافية ، قد اكتسبت من البدانة حظاً . وهنا يصمت برهة وهو يحدق في ، والابتسامة ما زالت تضيء على فمه ويقول : إليك يرجع كل الفضل في تقدم صحتها ، هيهات أن ننسى جميلك ! ولا أنكر أنني كنت أرتقب زيارة «الباشا» في غبطة ، وأعني عناية خاصة بزيئتي وملبسي ، وكنت أطرح معه الكلفة ، حتى إنه كان

حين يطرق محاسنى أو يشيد بذوقى فى حسن هندامى وتصفيف شعرى ،
أتقبل لإطراءه وإشادته بقبول حسن ، وأجيبه مؤانسةً مداعبة .
وكثيراً ما تركت له يدى بين يديه يلاطفها ويقبلها ، ويطل الملاحظة
والتقبل .

وحضر « حدى » مرةً لزيارتى ، فدخل الحجرة بحمى المحيّا ،
بادى الشحوب ، وبعد أن حيانى وسألنى عن صحة والدتى هام فى صمت
مضطرب ، وكنت آنثذ أمام منضدة الزيتة أتعطر . فتيسر لى أن
أراقبه فى المرأة أمامى ، فلاحظت أنه قلقٌ زائفٌ النظرات ، يريد أن
يتكلم ، وكأنه لا يدرى كيف يبدأ الكلام ؟ وأخيراً ألقىته ، وقد
غالب قلقه وحيرته ، يقول بمجود الصوت ، راعش الثبرات :

هل يحضر « الباشا » الآن ؟

فتابعت زينتى ، ووضعت لى على الفور علة مايشاه من ضجر ...
وقلت متشاغلةً بشأنى : لا أدرى ... ولم هذا السؤال ؟

— لاشئ ... مجرد سؤال !

ثم عاوده صمته المضطرب ، وجعلت أخالسه النظر ، فإذا به يحفف
جبينه وقد تفصّد عرقاً ، ثم سمعته يقول بعد حين فى لهجة تشوّهها حدّة :

أنت اليوم تبالغين فى زينتك !

فالتفتُ إليه فوراً ، وأنا أحدهج بنظراتى ، وقلت :

ألا تفصح ؟ لم هذه المداورة والمراوغة فى الحديث ؟

ففاجأه من قولى ما لم يكن يتوقعه ، وقال فى لهجة أخف حدّة من

ذى قبل : أنا أداور وأراوغ ؟ !

— سئل نفسك !

ووجدته قد اندفع يحفف عرق جبينه ، ويروّح وجهه ، ويقول :
ربما كنتِ على حقّ ... يجب أن أصارحك بالحقيقة ، وبخاصة
أنى أعدُّك مخطوبةً لى .

ثم انبرى يفرك يديه مهتاجاً ، وقال :
لنى غير مطمئنّ إلى موقف «الباشا» منك .
— غير مطمئنّ ؟ ... ماذا يرجحك من «الباشا» ياسيد «حمى» ؟
فخلق فى بعينه الزائعتين ، وجمجم :
أتخسبىنى أجل قيامه بنفقات المستشفى ؟
فأجبت «محمّدة» : هبّنه فعل ... فما وجه المؤاخذه فى هذا ؟
— «سلوى» ... لم يسرع إليك الغضب ؟
— يجب أن تكون أعصابنا من حديد ، لى نواجه أسئلتك فى
رزانة وهدوء ... !

— إن «الباشا» بالغ الاهتمام بك وبوالدتك هذه الأيام !
— إنه صديق الأسرة .
— وهذه النفقات التى يضطلع بها ؟
— سنسوى حسابها معه بعد خروج والدتى من المستشفى . أظن
أنى أقبل أن يؤدّى «الباشا» تكاليف العلاج ؟ سرّدتّ إليه ما أدسى .
فنهض «حمى» ، وأقبل علىّ فى تحمس يقول :
أجل ... نردّ إليه ما أدى ... سألتس كل حيلة فى هذا السبيل !
— ولم تحشم نفسك هذا العناء ؟
— ألسنتلى مخطوبة ، وعمّا قريب سنصبح زوجين ؟
— سننحدث فى هذا الأمر ، وأما فيما يتعلق بدين «الباشا» فإن

أُمى ستؤديه جميعاً ... أشكر لك شعورك الجميل !
فاقترب منى مضطرب الخطا ، وهو يغمغم : ولكن ... ولكن ...
— ماذا ؟

وتتابعت أنفاسه ، وامتدَّتْ ، وبدأ لى أن عظام وجهه تبرز على
نحو مفزّع ، وقال متلعثماً :
إن عاطفة «الباشا» نحوك معروفة . كلنا نعلم أنه بكٍ شديد الشغف .
— إنه يخبئ كآبته .

— هذا ما يتظاهر به ليخفى وراءه غرضه الأصيل ... يجب أن
تكونى من ذلك على حذر !
— لست غريبة ولا حقاء ... قلت لك إنه يعطف على عطفه
على « سنية » ...

— وأنت ؟ ... أنت ؟ ... ما هو مبلغ شعورك نحوه ؟ !
فرمقته بنظرة شراً ، وقلت : من تظننى يا حدى ؟ !
فرنا إلى فى ضراعة يشوبها غيظ كظيم ... وقال :
إنه غنى واسع الثراء ، وماله قد يهر عينيك !
فنهضت دفعةً واحدة وقلت فى جفوة :
أنا ذاهبة إلى مخدع والدق ... لقد طلبتنى منذ هنية .
فنظر إلى وفى عينيه تخاذل ورجاء ، وقال :
لايسوك قولى ... أتاخذين على شيئاً ؟
.. سل نفسك !

— اغفرى لى .
فقلت فى غلظة : لم تفعل شيئاً حتى أغفر لك ...

— أضرع إليك ...

— لا أحمل لك في نفسي أىّ ضغن !

وغادرته في الحجرة ماضية إلى مخدع أمى .

وبعد فترة عدت إلى الحجرة فرأيت قد بارحها تاركاً لي رسالة
سقيمة الأفكار مبهوشة الخواطر ، فيها حبّ وغيرة ، وفيها عتاب
واسترحام ، فلم ألبث أن مزقتها ورميت بها طعنة لسلة المهملات ... !
وما هى إلا أن سمعت نقرأ على الباب ، ودخل الباشا ، سمح المحيا
في يده طاقة زهر تتألق ، وحياى تحيته اللطيفة ، وكان ظاهر الأناقة
مفتول الشارب فتلا محكماً ، وقدم لى الطاقة وهو يقول :

لقد سألت الطبيب عن والدتك فأخبرنى بأنها أحسن حالا . ولكن قد
تطول فترة النقاهة . لا أخفى عنك أن العملية كانت خطيرة ، ولكن الله سلم !
وتناولت طاقة الزهر ، وأنا أهينم بعبارة الشكر ... ولمحت لفيفة
صغيرة بين الورود ... فتناولتها وفضضتها فإذا هى علبة تحوى مشبكاً
ذهبياً مرصعاً بالماس الثمين ، فرحت أتأمله فى إعجاب ، وقلت فى صوت
خافت : لمن هذا ؟ !

فقال فى ابتسامته الرائعة : لك أنت إذا قبلته هدية متواضعة .

— أهديت متواضعة هذه ؟ ماذا تكون الهدية غير المتواضعة إذن ؟ !

وتابعت قولى وأنا أقلب العلبة بين أصابعى : ولكن يا عمى ...

فقاطعنى قائلاً : ماذا ؟ ... لأنه تذكّر من عمك الذى يهتمّ بشأبك .

فشددت على يده شاكرة ، فدنا منى وقال : دعينى أضعه على صدرك !

فوضعه فى لباسقة ... ورحت أتأمل نفسي فى المرآة وأنا مزهوة

معجبة ... وسمعت الباشا يقول : أنت دائماً حبيسة هذا المستشفى ...

مرضى ... أطباء ... مرضات ... ألا تسرين عن نفسك بنزهة ، قليلا
من الوقت ؟؟

— إلى أين تريد أن أذهب ؟

— نخرج بالسيارة معاً فنطوف طوفة قصيرة ... تشهدين مناظر
مختلفة ووجوهاً جديدة .
— كما تبغى .

وصحبته في السيارة نصف ساعة تنزهه ، وكان «الباشا» كثير التظرف
معى ، متأنقاً في الحفاوة بى ... ثم أبلغنى باب المستشفى وانصرف بسيارته .
دخلت حجرى مقتبلة أرى الدنيا تبتسم لى ، وحضرت الممرضة
بالعشاء ، فاسترعى نظرها على الفور المشبك المرصع يتلألأ على صدرى
فطفت تأمله ، ثم قالت : رائع ... رائع جداً ...

فوجدتني أبادر إلى إجابتها بقولى : لأنه من خاطبى .

— خاطبك ١ ؟ أحسبه الشاب الذى كان هنا منذ ساعة .

— أى شاب ١ ؟

— الشاب النحيف الطويل الـ ...

فقاطعتها مسرعة أقول : لأنه من «الباشا» ...

— «الباشا» خاطبك ١ ؟

فأقبلت عليها وهمست فى أذنها : إن الخطبة ما زالت سرّاً مطويّاً .
فأخذت تهئننى ، وتبارك خطبى .

وتناولت عشائى وحدى ، والأفكار تذهب بى كل مذهب ...

وساءلت نفسى : إذا كان «الباشا» صادق الشعور نبيل العاطفة

نحوى ، فلماذا لا يخاطبني ١ ؟

وفى رونق الصبح هبط «حمدي» الحجره ، على أثر فراغى من تناول فطورى ، وارتداء ثيابه ... دخل فى سرعة ، وبعد أن حيّانى بأدى الارتباك . قال لى : لقد جئت بك بقدر من المال كى تؤدّيه إلى المستشفى ، أو تؤدّيه إلى «الباشا» قسطاً من القرض ... هاهو ذا ... وأخرج ورقة مالية من فئة خمسة الجنيهات ، فنظرت إليه ، وقد بدا فى مظهر خليق بالرّثاء ، وقلت : أشكر لك حسن شعورك يا «حمدي» ... إنك تكلف نفسك ما لا قبل لك به .

فأقبل علىّ فى اهتمام وهو يمد بالورقة يده وقال : لم أكلف نفسى عناء ... ثقي أننى سأستطيع الحصول على قدر آخر فى فرصة قريبة . فرددت يده فى أدب ولباقة وقلت : ليس بى شديد حاجة إلى النقود الآن . — ونفقات المستشفى ؟

فقلت وابتسامة الإشفاق تراءى على شفى : كل شئ سيسوّى بعد مغادرة والدنى المستشفى . فردّ إليه يده فى تباطؤ وهو يغمغم : أنت تزهدين فى قبول شئ منى . — إذا احتجت إلى شئ فسأرغب إليك فيه .

ووقع بصر «حمدي» فى هذه اللحظة على المشبك يتضوأ فى بواكير أشعة الشمس ، وقد بدأت تحيى الحجره تحية الإشراف ... فجعل يتفحص المشبك زائغ النظرات ، ولبث فترة صامتاً ... ثم قال أجش الصوت : إنه منه ... أليس ذلك ؟ ...

فرمقته بنظرة حادة ، ثم قلت : ماذا تعنى بقولك هذا ؟ واحمرت عيناه وأرتعشت شفثاه وانطلق يهمهم :

لقد شرعت تقبلين هداياه الثمينة .

— لا تثريبَ علىَّ في قبول الهدايا .

— أنتِ لا تدركين ما لذلك من سوء العقبى ... يجب أن تعودى

إلى صوابك !

فوقفت أمامه شاحخة الرأس ، وقلت :

لا أسمح لك أن تخاطبني بهذه اللهجة ... ليس لك حقٌ إرشادى .

— علىَّ أن أحافظ عليك ، مادمتِ لا تستطيعين أن تحافظي على

نفسك !

— اهتَمْ بشأنك أنتَ ، أما أنا فأنى حرة فيما أصنع .

وهرعتُ إلى الباب أريد مغادرة الحجرة ، فأإن بلغته حتى ألقيتُ
« حدى ، يلحق بى ، وهو يقول فى لهجة تذلل :

يبدولى أنى أسأت إليك ... المَعذرة ... المَعذرة !

— دعنى أخرج ... إنى تاركة لك الحجرة .

— إن أعصابى ضعيفة يا « سلوى » ، ... إنى شخص محطم ...

أشفق علىَّ .

فوقفتُ أمامه أنظر إليه . وقد تقلصت عضلات وجهه ، وتصبب

العرق من جبينه ، وبدت عينه غائرة عليها غبرة ... وطالت نظرتى

إليه ، فاعتلج فى نفسى شعورٌ غامض لا أدرى : أشعور إشفاق هو ،

أم شعور تأفف ؟

والفيتة يرتبى على يدىَّ ، ويُسَدِّدُهما بدمع هتون .

طالت إقامة والدق بالمستشفى وأنا ملازمة لها ... وقد لاحظت أنها أفادت من البقاء في هذا المكان ، حيث الراحة مستوفاة والحياة منتظمة ليس فيها ما يعكر صفو البال ... وكانت والدق تشغى بزيئها ، ولا سيما حين تستقبل الطبيب ... فكان إذا لاحظ ما يبدو عليها من زينة بالغة ، ابتسم لها ابتسامة بجمالة ، ولاطفها في تكلف .

وكان د الباشا ، يزورها في الفينة بعد الفينة زيارات خاطفة ، لا تخلو من تودده المألوف ... وإذا خلت والدق إلى " انطلقت " تسألني عن جلسات د الباشا ، معي ، وتطالبني بأن أروي لها تفاصيل ما يدور بيني وبينه من حديث ، فكنت أخبرها بما يروفي أن أفضى به وأكتم ما أرى كتبه .

أما المشبك فقد أثار دهشتها ... ولقد انتزعته من صدري وأخذت تنفحصه بعين متفتحة ، فساورني في شأنه قلق ، ومددت يدي أستردّه فنظرت إلى " والدق في ابتسامة شاحبة وقالت : لن أسلبك إياه ... ! ووضعتنه على صدرها برهة وهي ما فتئت تتأمله ، ثم ردتته إلى " على كره ، وهي تقول : شدّ ما هو مشغوف بك !

فوجدتني أندفع قائلة : إذا كان هذا حاله ، فلماذا لا يتقدم لخطبتي ؟ فأرسلت ضحكة شوهاء ، وقالت : والباشا ، يخطبك ؟ ما أعجب أن يصدرَ هذا القول منك يا د سلوى ، !

— ولم لا يخطبني ؟

— إنى أراه أحكم من أن يقدم على هذا الأمر .

فقلت وقد أحسست بعينى " تلتمعان : وماذا يبتغى منى إذن ؟
فراحت تعبت بشرط حريرى معقود برقبتها ، وقالت فى تضاحك
ساخر : سليه !

ثم أردفت تقول : إن الرجال على فرط ذكائهم تعذب عنهم بسائط
الأمور ... يظنوننا طوع بناهم يشترونا بمغريات الهدايا ... ولكن
... علينا أن نضحك منهم كما أسلفت لىك فيما نصحت لك به ، نعم
ما يندقونه علينا من الهدايا ، دون أن ينالوا منا منالا .

— إن هذا السلوك لا يروقى بحال !

— شأنك وما تريدن ... ولكن يجب أن تعلين أن الباشا ،
فضلا علينا ليس من المروءة أن نقابله بالجحود ... يجب أن نكون
أهلا للجميل !

ولم يعال معها حديثى ، فتركها عائدة إلى حجرتى ، والأفكار
تلتطم فى رأسى .

واعترمت أن أفاتح الباشا ، فى الأمر ، وأصارحه بما يعتلج فى
خاطرى ، ولكننى لم آلس من نفسى جرأة على التسكلم . كيف أبدأ
معه الحديث ؟ كيف أستدرجه إلى لب الموضوع ؟ أخشى أن أتورط
فى مزلق من الكلام لا أستطيع منها الخلاص !

وحدث مرة عقب زيارة دحمى ، إياى أن أقبل الباشا ، على
حجرتى ... وما إن حياني واستقرت فى مجلسه ، حتى سألنى قائلا :
أليس هذا دحمى ؟

— هو عينه !

فتشاغل لحظة بقتل شاربه وقال :

شابّ مهذب ... حميد الأخلاق ... أيكثّر من زيارتك ؟

— كلما وافته الفرص ... !

وأخذ الباشاء يسألني عن حاله الآن ، فقصصت عليه بعض شؤنه ،
وأخفيت عنه ضالة مرتبة ، ثم انطلقت أطرى شمائله ؛ فقال مبتسما :

ما أسعد حظه ! ... إنك تغمرينه بالعزير من رضاك !

— هو صديق الطفولة كما تعلم .

— لقد ترامى إلى " أنه يطمع أن يكون أكثر من صديق !

فطأطأت رأسي ، وهممت : هذا صحيح !

— أيرغب في خطبتك ؟

— يلوح لي ذلك .

— حسناً ... أثق أنني مستعد أن أبحث له عن عمل طيب أكثر

دخلا من عمله الذي يزاوله الآن ؛ حتى يستطيع أن يواجه الحياة
الزوجية .

وصمت لحظة ، ثم استأنف حديثه قائلا : ما هي حقيقة ميله نحوك ؟

— يقول إنه يحبني .

لخّدت في " قائلا : وأنت ؟

فحوت عنه بصري وأجبته : إنى لا أكرهه !

— أنت طيبة القلب ، لا تضررين لأحد كثرها .

ووجدت الفرصة سانحة للتوسع في الحديث ، فقلت :

أرغب في نصيحة تسديها لي !

— ما هي ؟

— إذا تقدم وحدى، يخطبنى، فإذا ترى أن يكون جوابي ؟

— ألم تطلقى على نفسك هذا السؤال ؟

فضحكك وأنا أرّدد : مراراً...!

— وبماذا أجابتك نفسك؟ أو بعبارة أصرح : ماذا قال لك قلبك ؟

فخطوت إلى المرأة خطوة ، وجعلتُ أصف شعري هنيهة ، ثم

قلت وأنا أراقب « الباشا » فى المرأة :

رغبتي إليك فى أن تسدى إلى نصيحاً ... !

— نصيحتى إليك أن تتركى الأمر للزمن ... لا تتعجلى ...

ولكن ثقي أنه إذا استقر رأيك على قبول « حمدى » ، فإنى لا أتوانى

كما قلت لك فى أن أعينه على تحسين حاله .

فتركت مكانى من المرأة ، وبنفسى شئ من الضيق ... ثم قلت له

وأنا أخطو فى الحجرة على رسل : أشكر لك نصيحتك الغالية .

فسمعت « الباشا » يقول : الأمر يتطلب منك روية وأناة . قد

يتقدم إليك من هو خير من « حمدى » .

فالتفت إليه مشرقة النظرات وقلت : أتظن ذلك ؟ من يكون ؟

فدنا منى وأخذ يدي بين يديه ، وجعل يلاطفها فترة ، وهو

يتوسمنى ، ثم قال فى ابتسامة غامضة :

ما رأيك فى الخروج إلى السيارة ننزه بها الآن وقتاً ؟

فسللت يدي من يده فى غير عنف ، واستدرت فى وقتى وأنا أغغم :

لا أحسّ ميلاً إلى الخروج .

— كما تشاءين .

ومشيت فى الحجرة خطوتين ، فتبعنى ، وأدار إلي وجهى ، وقال :

أما نعيمين في قبلة من جبينك ؟ قبلة عثم مخلص ا
وقبل أن أجيبه انتهب القبلة في حرارة ، وحياتي تحية رقيقة ، وترك
الحجرة بقامته الفارعة وظهره العريض ، يسير متزن الخطا ...
ولما استخفى شبحة في الممر ألفت نفسي واقفةً وقتاً بلا حراك
وما زالت خطا « الباشا » يرن وقعها في سمعي ، ويزايل رويداً رويداً
وبقيت لحظة تذهب بي الخواطر كل مذهب ، ويحيش بين ضلوعي
اضطراب دفين ...

حقاً إن هذا الرجل لغز يستعصى على فهمه ... إنه بالغ الخنوء ...
ولكنه كذلك بالغ القسوة ... لشد ما يتعبنى ا ...
ليس هو بالرجل التافه على أية حال ... بل إنه لتافه كل التفاهة ؟
أليس هو رجلاً كسائر الرجال ؟ إنه يحسبني صيداً ميسور المنال !
وأطلقت ضحكة ساخرة ، ووجدت أناملى في هذه اللحظة تعبت
بالخيلة الغالية التي أهداها « الباشا » إلى ، فانتزعها ، وجعلت أتأملها
هنيئة ... ولقد هممت أن ألقى بها في عرض الحجرة ... ولكنني لم ألبث
أن ابتسمت ، وأخذت ألهو بها ، أدفنها في الهواء وألقفها مرة بعد مرة
وإذا بي أتضحك !

ما كان أحكم أمي حين نصحت لي بأن نعبث بالرجال دون أن
ننيلهم وطرا ...

ولاح في خاطري طيف « حمدي » متضرعاً متخاذلاً في بؤسه
وهزاله ، نخم على وجهي عبوس وجهامة ...
وألفيتني أطبق يدي على الخلية ، كأنما أخشى أن يغتصبها مني أحد !

رحلنا عن المستشفى أنا والدي ، واستأنفنا حياة المنزل ، تلك الحياة الراقية بأسلوبها العابس المملول... وكان أهمّ حادث وقع في هذه الأثناء هو إياب « شريف » من « فرنسا » فقد تلقيتُ من « سنية » دعوة إلى مأدبة غداء أقامتها احتفاءً بعودته . وقد لبّيتُ الدعوة ، فلقيتُ « سنية » أشد ما تكون اهتماماً : حركاتها ظاهرة الشدوذ ، وحديثها مفكك لا انسجام فيه . على أن ثوبها كان بالغاً من الروعة كل مبلغ ، حريري النسج هفّاف ، فضّصل على أحدث طراز وأطرفه ، ولكن خيّل لي أن هذا الثوب قد فقد كثيراً من بهائه على قوام « سنية » الناحل ، ووجهها المعتق الممزول .

وبينما كنت أنا و« سنية » — وافقتين في الردهة نتحدث ، إذ دخل « شريف » في حجة والباشا ، وعلى بعد خطوات منهما ظهر « حمدي » محني الهامة ، متخاذل المشية ، وبدأ لي من أول نظرة ألقيتها على « شريف » أنه اكتسب مسحة من الرجولة الحقّة ، وراقبتُ خطواته المتزنة التي تفصح عن اعتداد بنفسه ، واقتدار على أمره ، وإشاراته التي تتم عن عزة وترفّع ، وكان يرتدى حلة رمادية أنيقة ، متقنة التفصيل ، جيدة النسج ، ولم يكن متخذاً صداراً ، إذ ترك لقميصه الحريري أن يكشف عن أناقته... وخطرت ببالي على الفور صورة الدكتور داود فهم ، برزاته والتماع عينيه ذكاء وحيوية... ولكن سرعان ما توارت هذه الصورة عن مخيلتي ، وتقدم « شريف » من « سنية » فقبل يدها في رشاقة ، ثم ألقى نظرة

على ، والتفتَ إلى «الباشا ، قائلاً : من ؟ ... أتكون «سلوى» ؟
فقال «الباشا ، ضاحكاً : كلا ، هي صديقة جديدة لـ «سنية» ...
فأطلق «شريف» ضحكة رائعة فيها شيء من التكلف غير البغيض .
وقال : بل إنها هي ... هي بعينها «سلوى» .
وأخذ يبدى يهرزها قائلاً : كيف حالك ؟
— بخير ...

والتفت «شريف» إلى «الباشا ، وقال : شدّ ما تغيرت !
فألقيتني على الفور أعاجله بقولي : وأنت ... ألم تتغير ؟
— الحق أننا جميعاً تغيرنا ، حتى «سنية» . انظروا .. لقد ازدادت
وسامة إلى وسامة ... !

فتضرّج وجه «سنية» وأطرقت على الأثر ... وواصل «شريف»
قوله : حتى «حمدي» تغير ... بعد أن ظننا أنه سيبقى على حاله .
وتلفت قائلاً : أين أنت يا «حمدي» ؟
وتابع «شريف» ، قوله وهو ناظر إليه : إنه استطال ... استطال
كثيراً ... أخشى إذا استمر في طوله ونحافته أن يبلغ السقف !
فقهقه «الباشا» يقول :

سنضطره أن يقف استطالته قبل أن يمس رأسه سقف المنزل !
وأبصرت «حمدي» في هذه اللحظة وهو صامت مرتبك شاحب
الوجه زرى الملبس ، فيدأ لي كأنه صعلوك ، يتطفل على مجالس الأمراء !
وجلسنا في الردمة نتحدث ، وسرعان ما امتلك «شريف» زمام
الحديث في لباقة ولطف ، فجعل يتنقل من موضوع إلى موضوع ،

يروى لنا طرائف من حياته في فرنسا ، ويصف لون العيش بين ربوعها في الأندية والمطاعم والمسارح ومعاهد الدرس .

أما ، حمدي ، فقد ران عليه صمته وانكاشه ، وخيّل إلى أن وجهه قد ازداد استطلاة . وأن عينيه قد غارتا أكثر من ذي قبل ، ولم يكن له من عمل في هذه الفترة إلا تجفيف عرقه المتقاطر في حركات مضطربة . وكان يختلس إلى النظرات ، فكانت أحبيه على البعد بابتسامات عابرة أجامله بها . أما « سنية » فكانت من غبظتها في غمرة ، تنظر إلى خاطبها نظرات مسحور ، وتلتهم حديثه في شغف ملحوظا

وقدم لنا غداء فاخر ، ولم تضمّ المائدة أحداً غيرنا ، وقد استأثرت « سنية » بعناية شريف ، يبادر إلى وضع الطعام في صحفتها ، ويتفقد حاجتها إلى مختلف الألوان والمشهيات ، وعلى فمها دائماً بسات إيناس ، وكلمات ظرف ومداعبة ... فأما أنا و « حمدي » فقد أولانا « الباشا » رعايته ، وقد أراد أن يخرج « حمدي » من صمته . فاعطاه إلى التلازم ، فطفق يقص علينا في مشقة نشئة من شئون حياته وعمله ..

وكنيت أبقاوري « الباشا » على المائدة ، وطالما أحسست يده تلازم يدي . ولا أدري أكان هذا محض اتفاق أم كان وليد عمد ١٩

وبعد انتهاء الغداء أدير « الرديو » فانبعث منه لحن راقص . فقام « شريف » يخاصر « سنية » ويرقص معها رقصة رشيقة ١ .. وبعد انتهاء الرقصة عادت صديقتي إلى مجلسها مضرجة الحدين مشرقة العينين فاترة الأوصال .. وكان ساوك « سنية » على وجه الإجمال لا يروقني ، فلم تكن بقادرة على ضبط عواطفها الشائرة . يتجلى في كل إشارتها وحركاتها تكلف وتميُّح وجمالة ، فكانها طفلة بلهاء ...

شدّ ما كرهت من صديقتي هذه الخصال ، وشد ما رثيت لها ...

أعلنت خطبة « سنية » إلى « شريف » ، وأسند إلى « شريف »
 منصب حكومي مرموق . وأخذت الأسرة تعد لـ « سنية » جهازها ،
 وتتأهب لرفاقها في أقرب وقت ، ولذلك اتفق العروسان على أن يسكنا
 جناحاً في بيت والد « سنية » حتى يتسنى لهما في ووية ومهل أن ينشئا
 مغنى خاصاً بهما للسكنى .

وكنت كلما ذهبت إلى « سنية » راحت ترينى طرائف الجهاز من
 ملابس وفرش ورياش . وكان « الباشا » يهاغتنا بزياراته . ويتحدث
 إلينا في لهجته المحببة . وكنت حين أرجع إلى بيتى فى المساء بعد هذه
 الزيارات أجد فى كثير من الأحيان هدايا تنتظرنى فى حجرى بعث بها
 « الباشا » إلى ، وأغلبها بما كنت أرى مثله فى جهاز « سنية » : فرش
 مزركشة ، ثياب موشاة ، غلائل ، مجموعة كاملة من آنية الشاى . إلى
 شكول من الطرائف والتحف .

حقاً ما أكرم هذا الرجل ! وما أرق قلبه ! ... ووجدتني أنهنض
 إلى المرأة أتلى محاسنها ، يعتلج بين جوانحي شعور زهو ومباهاة !
 وكثيراً ما كدهت « سنية » إلى أن أحجبها مع خاطبها « شريف »
 فى بعض الزهات أو مشاهدة « السينما » أو ارتياد المراقص . فقليل
 ما كنت ألبى هذه الدعوات ، حرصاً على أن أترك العروسين يهنأن
 بخلوتهما . فهما يرفلان فى سعادة وغبطة لا مزيد عليهما .

أما « حمدى » فلم أكن أراه إلا لماماً . وكان يتلقى فى بعض

الآحيان مثل هذه الدعوات من « شريف » ولكنه لا يفتأ يعتذر .
وبين وقت ووقت كانت تردني منه رسائل يقول فيها إنه يعمل جاهداً
ليسمى دخله ويوفر به سعادتي !

وقد لاحظت أنني كلما زرت صديقى « سنية » عمداً « الباشا » إلى
تهمة فرصة يخلو بها مجلسى معه . ومرة بينما كان يقص على « بعض نوادر
ماضيه » وأحداث شبابه ، وجدتني أقول له على الفور :

أكانت فى حياتك مغامرات حب ؟ !

فنظر إلى « متعجباً من جرأتى وقال : إن قلبى لم يهدأ عن الحب لحظة .
فتطانعت لآليه ملياً فى صمت . وقلت :

وما هو آخر حب كان لك ؟ !

فابتسم ابتسامة رحيمة وقال : ألا تعفينى من الإجابة ؟

فقلت له : بل أصرّ على أن تجيب .

— إني الآن فى غمرة هذا الحب !

— ومن هى تلك التى تحبها ؟

— هذا سر بينى وبينها .

— وهى ؟ ... أتبادلك حباً يحب ؟

— من يدرى ؟

— ألا تحبك ؟

— أحسبها لا تكرهنى .

ورأيتنى أندفع قائلة : ولم لا تزوجها ؟

فاسترسلت « ضحكنه هينة رقيقة » وهو يقول : أتزوجها ؟ أنا ؟

فلم أملك إلا أن أكون جادة فى قولى له : أجل ... لم لا تزوجها

مادمت أنت تحبها ، وما دامت هي ليست لك بكارحة ؟
فأرسل في معرض الفضاء نظراته ، وهمهم :
لقد أدبر عن عهد الزواج .
فصمت " خافضة البصر ، وواصل حديثه يقول :
كيف أجنى على فتاة غضة في ريثق الصبا ، فأريدها على الزواج
برجل في أوج السكولة ؟
فهيئمت قائلة : بل أنت في جدّة الرجولة !
فأقبل علىّ يلاطف يدي مبتسما ، وهو يقول :
إني على وشك أن أستقبل عهد الشيخوخة ... أما هي فتستقبل
عهد نضارة وتفتح ونضج ... ثني أني لست للزواج بصالح .
— وماذا تبتغي إذن هذا الحب ؟
— الصداقة ... الالفة اللطيفة ... إن مهملتي وقد بلغ تلك السن
يأتس إلى ذلك اللون من الصداقة ينعم فيها بحسن العشرة ، فتضفي على
بقايا أيامه طمأنينةً وبهجة .
وشاع بيننا الصمت هنيهة .
ونهضت : فوقف أمامي ، ورنأ إلىّ في عطف ، ثم أخذ يدي يلاطفها ،
وقال : ثني أني لك صديق صفي . وأني أكين لك في نفسي مكانة
لا يعزّ معها أيّ مطلب تريدينه . إني في حاجة إلى رضاك !
وقبّل يدي قبلة مديدة .

... وترادفت الأيام على هذا اللقاء ، فلم أغادر منزلي ، واكتنفتني
حيرة وقلق ، وكنت أحيانا أحس إشرافا في نفسي كلما استعاد سمعي
حديث « الباشا » الذي يفيض عدوبة ، وأراني قد تبين لي وجه الحق

فما صار حتى به ، وأحياناً أخرى تضيق بحديثه نفسى ، وتنكر شخصه عيناى ، وأمتلى مغضبا عليه ، وتتمثل لى صورة كبير اللصوص البحرين ، بجوانحه الغزار وملاحجه القاسية الصلبة !

وكانت د أم يونس ، تدرك ما ينتابنى من قلق ، وتلاحظ ما يتجسنى به « الباشا » من غوالى الهدايا والطرف ، فأقابت على ذات مساء ، وكنت فى حيرتى غارقة أفكر ، فابتدرت بسؤالها :

الشاب الذى اسمه حمدى ، لم يزرنا منذ وقت طويل ... ما حاله ياترى ؟
— أحسبه مريضاً .

— شفاه الله .. شاب طيب ... ماذا استقر رأيك فى شأنه ؟
— أى شأن ؟

— شأن الزواج .
فأمسكت برهة وأنا محدقة فى وجه د أم يونس ، ثم قات :

وما رأيك أنت فى هذا الزواج ؟

— وهل يروقك رأيى ؟

— إن مكانتك عندى كمكانة والدق ، ولرأيك فى نفسى كبير مقام .

فأخذت د أم يونس ، ييدى وحملت فى « بجد » ، وقالت :

رأى أن تقبل الزواج به سريعا .

— ولم السرعة يا د أم يونس ؟

— ما أوجب الإصرار بالزواج لمن هى فى سنك وهذا

شاب تنجلى فيه الطيبة ، فضلا عن أنه يحبك .

— لا أرى للسرعة من داع .

فتوهجت عينا ، أم يونس ، ، وقالت :

أما أنا فأرى للسرعة ألف دواع ... !

— ماذا تقصدين بما تقولين ؟

— الأجدد ربك يا « سلوى » أن تلششى لك بيتاً ، ولتتفضى يدك

من بيت « الباشا » . لإنهم أناس أسنا منهم وليسوا منا . ليتركوك

وشأنك ! ... لو كان جدك على قيد الحياة لزوجك « حمدي » وانتهى

الامر ... تزوجيه .. تزوجيه يا بنيتي ... واخلي نفسك من المتاعب .

ثم ربت كتفي في حنو وجعلت تردد :

تزوجيه ... تزوجيه يا بنيتي .. ودعيك من المظاهر التي لا طائل

تحتها ، ولا تؤمن عاقبتها ! ...

ثم قبلت جبيني وانصرفت .

فجعلت أرقب شبحها الضئيل الأعجف يترايل أمامي رويداً

في لجة الظلام ...

تم عقد قران و سنية ، في حفل عائلي كان أكثر من فيه جنس الرجال ، وقد ضم بعض الشخصيات البارزة من أقارب العروسين . وكان وحمدي ، بين المدعوين ، وكنت أنا وأمي بين المدعووات القلائل ، وقد خصصت ردهة الطبقة الاولى من المنزل لحفل الرجال ، فلبثت أنا و سنية ، ننظر اليهم بين آن وآن ، طلباً للفرجة ، وكان الحفل رائماً يملأ النفس إعجاباً وبهجة ، ولقد كنت أنظر إلى النشيد وهم يختلفون إلى المدعوين في حللهم المزركشة وسراويلهم المقصبة حاملين أكواب الاشربة وصواني الحلوى ، فيخيل إلي أنهم سقاة على موائد الملوك في أبهى القصور .

وكان و شريف ، فائن المظفر في حلته السوداء ورباط رقبته الابيض ، وهذا القفاز الناصع الذي يخلعه ويلبسه في المناسبات في أناقة ومهارة .

أما و سنية ، فكانت بادية الاحتياج ، وقد أمضتني بترداد قولها :
أنا خائفة ١٩

وكدت أصبح قائلة : مم تخافين ؟ إلى غول ترفئين ١٩
وكانت تحتضني وتقبلني بعنف ، وشذا العطور التي نضحت بها ثيابها يفنم أنفي ويكاد يسلم رأسي إلى دموع .
ورأيت وحمدي ، وقد أحشروه في زمرة المدعوين ذوى الابهة والمهابة ، فبدا بينهم غريباً تقتحمه العيون ، وبما زاده غرابة ذلك الزم

الذى بدا به ملفقاً من حلل وثياب مختلفة ، ففدا كأنه فى حفل من حفلات التنكر يرتدى لبوسا واضح الشذوذ ... وهذا المنديل المسكين الذى لا يبرح يده ، إنه ليشده تارة ويروّح به وجهه أخرى فى حركات تتجلى فيها ثورة الأعصاب .

أما د الزهيرى باشا ، فكان عظيم المظهر بين السّراة من رفاقه وأخذانه ، يعجبني منه روعة طريقتة وهو يشعل لفافته أو ينفث دخانها أو ينفذ رمادها بين حين وحين

وكانت والدتي معنا فى الردهة العليا ، ولسكنها كانت فى معزل عنا ، ولم يكن فى سلوكها على وجه عام ما تلام عليه . أما زينتها فلم تكن لتروقنى ، وقد أقلت من الكلام واحتفظت بأرستقراطية مصنوعة وتحفظ متكاف ، ولما مرّت بها د مدموازيل شانتل ، جاذبتها أطراف حديث قصير بفرنسية عرّجاء .

وكانت د مدموازيل شانتل ، كالديك الثّائر : وجه محتقن نافر العروق ، ينفى عن اهتياج كمين ، وهى تغدو وتروح فى عجلة دون حاجة داعية ، ومنظارها ذو المستقيض الطويل يعاود ويهبط فى يدها دون انقطاع ، وأحسب أنها ألفت إلى بتهية عابرة ، ونثرت على البسملة سائحة . وبعد أن انقضت مراسم الحفل ، صعد د الباشا ومع د شريف ، قاصدين مكان د سنية ، فدنا منها د شريف ، وقبّل جبينها قبلة عذبة . وانحرف د الباشا ، نحوى ، وكنت قد انتحيت الركن الذى انتحيت والدتي ، فقدم إلينا علبتين من علب الحلوى الفاخرة ، ونزلنا جميعاً إلى ردهة الطبقة الأولى يتقدمنا د شريف ، متأبطاً ذراع د سنية ، ففضيا إلى الباب حيث كانت تنتظرهما السيارة الجديدة التى جعلها د شريف ،

هدية العرس إلى « سنية » ، فتبعناهما نودعهما .
وصعد العروسان في السيارة ، فاسترعت انتباهى على الفور فخامتها
وأبته مظهرها ، وهى تتألق كأنها جوهرة صافية اللآلئ . وما أظن أن
نظرى قد وقع على سيارة تضارعها من قبل . وكان الموقف مشرقاً
بهيجاً تنشرح له النفس ، ولكن « سنية » انخرطت في البكاء دفعة
واحدة على نحو زكري ، ففكرت صفو الموقف ، وطمست بهاءه
ولم تراه . على أن السيارة ما لبثت أن تحركت بين التحيات والتلويحات
نبحث بها تبتاعاً ...

والنفت « الباشا » إلى قائلاً : أترين ذوقى حسناً ؟

— فى أى شىء يا عمى ؟

— أنا الذى اخترت السيارة ... لقد كنت مع « شريف »
حين ابتاعها .

— إنها حقاً رائعة .

— ستقلهما إلى « الاسكندرية »

— رحلة جميلة ... لا ريب أنها أكثر راحة وأوفر متعة من
السفر بالقطار .

فابتسم لى وقال : إذن أنت تُمِطرين ذوقى ؟

فخرجت « أمى » عن صمتها المتكلف ، وقالت : إنها تطرى ذوقك دائماً
وأطلقت ضحكة صارخة مفرجة اهتزت لها أوصالى سخرطاً ومضضاً .
لقد أضاعت والدتى بهذه الضحكة كل ما كسبته من كرامة بتحفظها
وأرستقراطيتها المصنوعة أثناء الحفلة ... وتشاغل « الباشا » لحظة
بإصلاح رباط رقبته ؛ كأنه يتغاضى عما وقع ، ويتظاهر بأنه لم يشعر به

ثم ألفيناه يصيح بسائق سيارته ، فأقبل بالسيارة على عجل ، فطلب إلينا د الباشا ، أن نركبها لتبلغ بنا المنزل ، فأبدينا الاعتذار ، فأصر على أن نركب .

وبدنا نحن في بعض الطريق تمضى بنا السيارة ، إذ قالت لى أمى :
هل تعلمين كم جنيناً دفع د شريف ، مهرأ ؟
— لا أعلم ...

— سمعت أنه دفع ألفين !
— ألفين ؟ ! ... مهر كبير .
— هذا فضلا عن السيارة وغيرها من الهدايا والطرف .
فقلت : « سنية » تستحق أكثر من هذا .

وعادت أمى تقول : أشهدت صاحبك د حمدى ، ؟
— لمحنته من بعيد .
— لو كنت مكانه لرحمتُ نفسى من الحضور ... !
— لم ؟

— ألم تشاهدى حلته العجيبة التى بدا فيها كأنه العبان ؟ !
— يظهر أنه لم يدخر ملبسا لمثل هذه الحفل . كل امرئ وما عنده !
— مادام المرء لا يجد لديه ما يليق فليحفظ كرامته ، وليعتذر رفعا
بنفسه عن أن يكون أضحوكة بين الناس .

وكانت أمى تعلق بهذه الكلمات جزافا ، غافلة عما هى عليه من رداء
مافق ، وزينة بدت فيها كأنها إحدى المهرجات فى دور اللهو الرخيصة
والمسارح المتبدلة !

في صبح غد جاء «حمدى» يزورنى ، وما كاد يفرغ من التحية حتى
قدم لى ظرفا وهو يقول : ألم أخبرك بأنى أعد لك مفاجأة ؟

— أية مفاجأة يا «حمدى» ؟

فقال وعينه ينبعث منها وميض ابتهاج وفرح :

خذى الظرف فانظرى ما فيه ...

ففضضت الظرف فألقت ورقتين من فئة عشرة الجنيهات ،

فقلت له وأنا أقلبهما بين يدى : كيف حصلت على هذا القدر ؟

— لا تسألينى كيف حصلت عليه ... ثقي أنه من خالص كسبى ...

تفكرت بدروس أعطيها ، وهذا مقدّم الأجر

— أخشى أن تكون قد تورطت ،

— لا تورط فى الأمر

وأقبلت أمى فى هذه اللحظة ، فحيّت «حمدى» على البعد تحية فى

ترفع وهممت : أخشى أن أكون ضايقة بما يحضورى ... على أية

حال لا أريد أن أكون فضولية أكشف سرّ كما . ولكن ما هو وجه

التورط الذى كنتم تتحدثان فى شأنه ؟

فقال «حمدى» فى تأناة وقد انهل على يديه يفرك إحداهما بالآخرى :

لقد جئت له «سلوى» بقدر من النقود تؤديانه إلى «الباشا» من

حساب القرض .

ووقعت عين والدتى على الورقتين المائيتين فى يدى ، فشمخت

بأنفها ، وقالت في ازدراء :

إن حساب الباشا ، معى ، وأنا عنه مشغولة . لا تجهد نفسك في هذا الشأن ... سأؤدى له الباشا ، كل ما علينا حتى لا يبقى له شيء .
فأجاب حمدى ، وهو يمسح وجهه بمنديل الملوّن الرخيص :
أعلم ذلك ... ولكنى أقدم هذه النقود يحدوني ما بيننا من صداقة ووداد . وقد وعدت مسأوى ، أن أشارك بنصيب فى أداء هذا الدين .
فقالت والدق وهى على حالها من التنفخ والتشامخ :
شكراً ... شكراً ... ولكن هل تعرف مقدار الدين الذى يجب أن نردّه إلى الباشا ؟

— لا أعلم على وجه التحقيق ... ولكن أعد بتقديم قدر آخر فى فرصة آتية .

وارداد وجه احتفانا ، وسبح على جبينه العرق ، وبدت يدها كأنما قد صبّ عليهما ماء غزير . وأشاحت والدق عنه ببصرها وهى تقول :
وعندى وكيل أعمالى أن يحضر لى قدرأ وافراً من دخلى . وسأؤدى إلى الباشا ، دينه دفعة واحدة ... إذا احتجنا إلى شيء أخبرناك .
نشكرك . لا تمنع نفسك !

وتناولت من يدى الظرف بما حوى ، وقدمته إلى حمدى ، ثم حبسته فى كبرياء ، وانصرفت منتفشة تنهأدى ... أما حمدى ، فقد تناول الظرف ، وجعل يفركه بين كفيه . فأقبلت عليه ، وقد آلمنى ما بدا فيه من حال يثرى لها ، وقلت :

لماذا لا تبقى هذا القدر عندك لشئون الزواج ؟ . أمامك تكاليف كثيرة تقتضيك إنفاقاً .

فغمغم يقول مطأطىء الرأس :

أىّ زواج تعنين ؟

— أأستـمزمعاً للزواج ؟

— كل الإزماع .

— إذن أبقى النقود لهذا الغرض ... إننا فى حاجة إليها !

فرفع بصره بغتة وعيناه تلعبان تطلماً وحيرة ، وقال مردداً :

إننا ؟ ... إننا ؟ ... أجادّة فى قولك أنتِ ؟

— كل الجدّ .

— إذن أنتِ راضية ؟

— لم أرفض مطلبك يوماً !

فنظر إلىّ فى غمرة من الدهشة والذهول ، وبقي على ذلك هنيهة ،

ثم أسرع هابطاً على يديّ يغمرهما بقبلات مضطربة جيّاشة ...

في أصيل اليوم الثاني ، وأنا في حجرتي مقبلةً على ثوب أرتق فيه بعض الفتوق ، بلغ مسمعي بوق سيارة يتردد صوته عالياً كأنه يشعرنا بقدوم زائر . وكان صوت البوق غريباً علىّ ، وماهى إلا لحظة حتى أقبلت والدتي في أتم زينة وزخرف ، وابتدرتني في اهتمام بقولها : « الباشا ، ... حضر « الباشا » لزيارتنا ... سأنزل إليه فاتبعني ومضت مسرعة ، فعجبت لهذه الزيارة ، وقرّ في ذهني من قرآن الاحوال الساعة أن والدتي كانت تتوقع قدوم الزائر ، أو أن الموعد كان مدبراً بينها وبينه !

فطويت ما بين يدي ، ونهضت أرتدى ملابساً آخر متأهبة لاستقبال الضيف ، ثم هبطت إلى ردهة الطابق الأولى ، فبدأ لي أن « الباشا » ووالدتي مشغولان بأمر ذي بال يخوضان في حديثه . وما إن رأياني حتى أمسك كلاهما عن الكلام .

ولذا بد « الباشا » ينهض للقائي باسم المحيّا ، فلما تصافحنا أسرع بتقبيل يدي ، وتطارحنا أحاديث مألوفة في شأن « سنية » وعرسها ثم التفتت إليّ والدتي تقول :

« الباشا » يدعونا اليوم الى الشاي في « مينا هاوس » ، فبادر « الباشا » بقوله : أتقبّلين دعوتي ؟
— لا أستطيع أن أرفض ... الامر إليك .
— إذن هيّا .

وخرجنا . فالفيت أمام المنزل سيارةً ذات أربعة مقاعد تتمثل فيها الفخامة والجمال ، وهى من نوع السيارة التى أهدها «شريف» إلى عروسه ، فقلت على الفور : إنها سيارة جديدة .

فابتسم «الباشا» وأخذ بيدى يدورنى حول السيارة : وهو يقول : وهل كنت تحسبن أنى أقدم لك سيارة مستعملة ؟ فوفقت مبهوتة أنظر إليه وأنا أهمهم : تقدم لى ؟ ... وتدانى أُمى منا قائلة :

إن كرم «الباشا» قد جاوز الحد ... هذه السيارة هدية منه إليك — هدية إلى ؟ ... ولكن يا عمى ..

فقاطعتى «الباشا» قائلاً : أعجبك السيارة أم لا تعجبك ؟

فقلت أُمى متضاحكة : هلبا ... خشية أن يضيع الوقت .

وقال «الباشا» موجهاً حديثه إلى : إن السائق سيكون فى خدمتك ،

وقد وجدنا مأوى للسيارة قريباً من المنزل .

وجعلت أحلق فى السيارة لا أكاد أتمالك من الدهشة والذهول .

ولما تقدمت أركب سارع «الباشا» إلى مساعدتى آخذاً بذراعى

فى رشاقة وحسنى ... حقاً ما أرق هذا الرجل وما أظرفه ... !

وتحركت بنا السيارة إلى «مينهاوس» وانطلق «الباشا» فى حديثه

البهيج ، وأنا أردد النظر حولى فى غبطة فائقة .

ولما بلغنا «مينهاوس» ألقينا المكان عامراً بالوراد ، وسبقتنا

والدق فى مشيتها الأرستقراطية المصنوعة ، و «الباشا» أخذ يبدى

خلفها ... وتخيرنا متضدة بين الخنائل ، ولما قدم أحد الندل مال عليه

«الباشا» وأوضح له ما يريد ، ثم التفت إلى قائلاً :

لقد تطفلت عليك ، فأذنت لنفسى فى أن أختار لك الطلبات .
فهل أخطأت ؟

— معاذ الله يا عمى ... ذوقك مقبول !

وبعد هنيهة قدم أحد النُدماء الشمبانيا . وتولى « الباشا » تراجع
الكشوس ، ولما قدم لى كأسى تيمّنت قائلة : لا أستطيع ... اعذرنى .

فقال « الباشا » من فوره : لماذا لا تستطيعين ؟

والتفت إلى أمى بنظرة خاطفة ، فقالت لى :

يجب يا ابنتى أن نساير المجتمع الذى نعيش فيه ... لكل زمان
حال ! ... أتريدى أن يضحك منا الناس ؟

وخطر ببالى موقف والدتى من قبل أشهر مضت ، حينما كان معنا
الاستاذ « رجائى » . فأصرت على أن تطلب لى شراب الليمون ...

وسمعت « الباشا » يقول : أتظنين أنى أقدم لك شيئاً لا يناسب ؟

— عفواً يا عمى ! ليس هذا قصدى ... إنما ...

فقال « الباشا » وهو يمدنى الكأس من يدى :

اشربى . اشربى ... كلنا سنشرب .

وأخذ هو وأمى يكرعان من الشمبانيا ، فلم أجد بداً من تناول
كأسى . وأحسست أن مذاق الشراب ليس بالكريه . ولستى شعرت
بحرارة تسرى فى أوصالى . واندفع « الباشا » ببسط أحاديثه العذاب .
وتابعنا الشراب جرعة بعد جرعة ، وعزفت الموسيقى ، فنهض
الراقصون إلى مدار الرقص . فرأيت « الباشا » يأخذ بيدى والدتى
فيراقصها فى دور قصير . ثم عاد بها وتقدم إلى من فوره ، فأخذنى
إلى الحلقة . فجعل يراقصنى دوراً كان فيه بالغ الرقة والأدب . وعدنا إلى

المنضدة ، فاستأنف الباشا أحاديثه اللطاف مَرَح الروح ، جذَّاب
الفكاهة ، مَرِيحَ النكتة . وجعلنا نجرَّع من كُثُوس ، الشبانيا ،
والموسيقى تصدح بأنغامها لا تهدأ ... وأحسست بوجهي يلتهب ،
وبالحرارة تشيع في جسدي كله ، وآنست من نفسي جرأة على التبسط
في الكلام ومطارحة النكات . وقام الباشا ، يراقصني مرة ثانية ،
فشعرت بوجهه يكاد يلس خدي ، وبذراعه تلتف على خاصرتي
وتضمنني إليه ضمة اشتياق ... فلم أجد فيما يصنع غضاضة . فهكذا
الناس حولي يراقص بعضهم بعضاً في مؤانسة وملاطفة ، وقد طرحوا
عن كواهلهم شيئاً من قيود التحفظ والكثافة ... وألقيتني أزداد غبطة
وابتهاجاً ، فانطلقت أتضحك مسترسلة في بحبوحة من المرح .

وفي الدور الثالث من الرقص سمعت الباشا ، يهمس في أذني :

شدّ ما أنت جذابة يا دسلوى ، !

فراقني ما يطربني به ، وقلت : أتراني كذلك حقاً ؟ !

— أنت فوق ما أصف ... بديعة أنت ... درّة هذا الحفل .

وكان المرقص يزخر بالغيد الملاح ، فلت على الباشا ، أداعبه ،

وأتحدث إليه في تدلل ، وعدنا إلى المنضدة ، فألقيت أُمي تفرغ في فيها

جرعة وافية من الكأس ، فصحت بها :

ألا تخشين على نفسك أن كُتِمَ لي ؟

فأجابتن متضحكة :

يا لك من غريرة ... أنا أتمل ؟ لو شربت نهر النيل وشبانياً ، ماثلت .

ووجدتن أواصل الضحكات ، و الباشا ، مبتهج بجدلان .

ولاحظت أنه يبادل أُمي نظرات تنطوي على شيء ، فقالت على الأثر :

لقد كان «الباشا» ظريفاً في دعوته إيانا اليوم... إننا نطمح أن يتفضل
بقبول دعوتنا إياه إلى تناول الغداء بعد غد .
فأجاب «الباشا» :

إني أقدر عواطفك الكريمة وعواطف «سلوى» أيضاً ... ولكن
لم هذه الكلفة ؟

فقلت له : أيّ كلفة ؟ أمت منا ، بيتنا بيتك !

— سأحضر نزولا على هذه الرغبة .

ومال علىّ يقول : أيّ ألوان من الطعام تختارين لي ؟

— ما تريده يا عمي !

— لا بد أن تتولى أنت نفسك إعداد لون من ألوان الطعام ...

— ولكنني أخشى أن أفسد عليك الغداء بهذا اللون الذي أعدّه .

— لن يعجبني لونٌ سواه ... ذلك ما أؤكدّه ... !

— أنت المسئول إذن .

وصحت متضحكة ، وصاح «الباشا» وأمي يتضحكان ...

وقضينا وقتاً نقصف ونسمر ونرقص ، وكان حقاً من أطيب

الأوقات ، وأحفلها بالبهجة والإمتاع .

وقفلنا بالسيارة إلى المنزل ، فما إن وافيناه حتى قال لي «الباشا» :

أسمحين لي بأن تقلني سيارتك إلى منزلي ؟

فقلت له مبتسمة والنشوة تهزني : لا ... لا أسمح لك !

فانثني على يدي يقبلها في حرارة ، وقال :

يسعني في سبيل إنفاذ أوامرك أن أمشي راجلاً ليلة كاملة !

فقال أمى وهى تنظر إلى الباشا، مشعثة الشعر ، محتفنة الوجه ،
تحاول أن تسوى من هندامها :

اركب ... اركب ... لو تركتكم تتحدثان على هذا النحو لبقينا
أمام الباب حتى الصباح !

ثم التفتت إلى السائق ، وصاحت بلهجة الأمر :
لا تنس أن تحضر فى التاسعة صباحاً ... التاسعة بالضبط ...
لا تبطله ...

وما كادت حجرتى تحتوينى حتى أحسست ثاقلاً يقعدنى .
فرميت على السرير جسدى ، لم أطلع شيئاً من ملابسى ...
وسرعان ما أخذ الكرى بمعاقدة أجفانى .

لم أصبح من نومي صباحاً إلا بعد العاشرة ، وما كدت أستيقظ حتى
هرعت إلى النافذة أتبين : أ جاءت السيارة ؟ فلبستها بالباب .

وخرجت بها أمى قبيل الظهر ، ولم تعد إلا فى منتصف الليل .
وقد ضايقتنى ذلك منها كل المضايقة ، كيف سمحت لنفسها أن
تستخدم سيارتى على هذا النحو ؟

وفى صبح اليوم التالى ، يوم غداء « الباشا » ، قلت لأمى :

ماذا أعددت لضيفنا من طعام ؟

— أعددت ألواناً كثيرة ... لا عليك من هذا !

— ولكن ليس لدينا أدوات المائدة... الصحف معظمها لا يليق .

— لا تلقى لذلك بالا ... لقد أعددت كل شيء .

— ومن الذى يطهو الطعام ؟

— طلبت الألوان من «جروبى» . سيكون غداء فاخراً ، اطمئنى .

والآن على أن أخرج لأتفقد ما سيحضره «جروبى» ... سأعود
قبل الموعد .

— وأين « أم يونس » ... إنى لم أرها اليوم ؟

— خرجت تزور ضريح « الست أم هاشم » ، ...

— لم تخبرنى بذلك .

— لقد أخبرتنى أنا ، وقد أذنتُ لها فى الذهاب .

وتدانت منى وهمست قائلة : يجب ألا تظهر هذه الشوهار المهدمة في دعوة كهذه . إنها تقضينا بلاريب . لقد طلبت من خادم ألا نقام ، جروبي ، وارتديت ثوباً أنيقاً ، واتخذت زيني مهمة أشد اهتمام ... ثم لبثت أنتظر .

وساورتني الحيرة والقلق حين دقت الساعة الثانية عشرة ، ولم يحىء من جروبي ، شيء ، ولم تكد تدق الساعة دقة انتصاف الواحدة حتى أقبلت على باب المنزل سيارة ، وإذا به الباشا ، ينزل منها ، فدخل البهو وخلفه خادم حسن البزّة يحمل عدة لفائف . وقال الباشا ، وهو يحيدني : لقد أعطيتي والدتك هذه اللفائف ، وطلبت إليّ أن أسبقها إلى المنزل ...

وأمر الخادم بأن يعدّ مائدة الطعام في حجرة الزوار ، وأخذنا نحن الثلاثة نفصّ اللفائف ، ونرتب محتوياتها في الصّحون والصّحاف ... وكانت حقاً مائدة حافلة بشقّ الألوان الطريفة المغرية ... وقاربت الساعة منتصف الثانية ، فالتفت إلى الباشا ، أقول : لم تحضر والدتي بعد . إني متأسفة . فلاطف ذقني ، وقال :

ننتظر ربع ساعة فقط ، وإلا فليس لغائب نصيب . ما رأيك ؟
وانطلق يدور حول المائدة ، وهو ينتق لي ولنفسه بعض المشروبات ، ويقول : يمكننا أن نقسّي هذه الطرائف .
ووجدت الخادم يصف قنانيّ الشمبانيا ، فلاذ الباشا ، قدحا وقدمه إليّ ، فلم أرفضه ...
وجلسنا إلى المائدة ، وشرعنا تناول من الطعام ومن الشراب .

وأشار « الباشا » إلى الخادم ، فانصرف عنا دون رجعة . وانقضى
ربع الساعة دون أن يظهر لوالدتي من أثر ، فقلت :
يا عجبا ... ماذا أبطأ بها ؟
فصاح « الباشا » قائلا : عقابها ألا ننظر لها !
ثم ربت يدي ، وقال في صوت لين المكسر :
هيه يا « سلوى » ... ألا تأنسين بوجودي ؟
وكننا قد أصبنا من الطعام نصيباً غير قليل ، وبدأ الشراب ينعشني ،
ويبعث في نزعة المرح والتبسط ، وقلت :
إذا تأخرت والدتي فلن تجد شيئاً تأكله ... كذلك أرادت لنفسها .
فأغرق « الباشا » في الضحك وهو يقول :
لن تبقى لها شيئاً ... هيهات ... !
وأخذ يمتلخ من صدر الديك الرومي قطعة بعد قطعة ، وهو يقدمها
إليّ قائلا : كلي ... لا تبقى لها شيئاً .
وقام إلى المدياع فأدار مفتاحه ، فانطلقت أنغامه شجية تبعث الطرب
والإيناس ، وما هي إلا أن أخذ « الباشا » يراقصني ، فاستجبت له ...
وامتدّ بنا الوقت نطعم تارة ، ونشرب تارة ، ونرقص أخرى .
وأخذت أحس بما للشراب من نشوة ، وكدت لا أعسى ما أصنع ،
ولكنني أذكر أني كنت شديدة الإبتهاج ، أكثر من الضحك ، وأفسح
المجال لـ « للباشا » يداعبني مداعبات لا تخلو من جرأة ، حتى إنه حين
انتهب قبلة حافلة من في لم أجدني بقادرة على التمتع ...
وأحسست بأنني أفقد السيطرة على مشاعري .

عسير على أن أعترف شعورى نحو دالباشا ، وأن أتبينه على وجه الدقة . لقد انقضى الآن نحو شهر وأنا أحيا حياة غريبة ، حياة تبدو جديدة ، كأنها طفرة من حال إلى حال . أتراها حقاً طفرة ، أم هى فى الواقع نتيجة محتومة للملابسات مرتبى شيئاً بعد شيء ؟ ... وعلى الرغم من أن علاقتى بدالباشا ، قد توثقت جوانبها وتوضحت معالمها ، وأضحى الأمر يبنى وبينه لا غموض فيه ولا خفاء ، فإنى كنت أحس بأنى أضرب فى عباب جياش يجذبنى تياره قسراً إلى حيث لا أدرى ... أحس بأن ضباباً يكتنف حياتى فلا أستطيع أن أرى وسط هذا الضباب المتراكم إلا اليوم الذى أعيش فيه . أما الغد فليس إلى استشفافه أو التفكير فيه من سبيل .. وأيقنت أن ثمة حافزاً خفياً يدفعنى إلى أن أمضى قدماً فى هذه الحياة الجديدة لا حيلة لى فى تغيير أو تبديل ...

إنه قدّر مكتوب على الجبين !

وأكاد أقرر أن عواطفى قد صبغت مسحة من التبلد ، وكأنى أعيش متأثرة بمخدر لا إفاقة منه ، فما كنت أحس فى حياتى الجديدة تدمراً أو استنكاراً يثير فى روح المقاومة . ولم أكن لأضيق إلا بما تبديه دأم يونس ، نحوى ... فقد كانت كلما رأتى رمقتى فى صمت مفزع ، ووجهها مربد عبوس ، ولم تكن تطارحنى الحديث إلا حين تدعو الحاجة القصوى ... فكنت أحرص دائماً على تجنب مرآها . وأذكر أنها اقتحمت على حجرتى مرة ، وأنا أمام المرأة أنعطر ، فوقفت

تحدجنى بعين حامية وهى صامئة لا تنبس ، وجهها هو هو ذلك الوجه
العبوس المنطوى على التأفف والاستنكاف . ولما طالت وقفتها على
هذه الحال قلت لها ، وأنا أتشأغل بزيتى : خيراً يا « أم يونس » ! ...
فتدانت منى بقوامها الأعجف الناحل ، وكأنما ازداد وجهها طولاً
وبرزت عظامه أكثر من ذى قبل ، وإذا قاربتنى هممت بجاء الصوت :
نصيحى إليك يا « سلوى » أن تسارعى إلى الزواج ... تزوجى ...
تزوجى أى شخص ... حتماً أن تزوجى ... الله ستار !

فشعرت يديّ ترتجفان وأنا أصف شعرى ، ووجدتنى كأن حراباً
من الإذلال تغتالنى ، وانهقد لسانى فلم تنفرج شفتاى عن جواب .
وزايلت المرأة حجرتى فى مشيتها الوئيدة الزاحفة ، فما إن استيقنت أن
ظلمها قد انقشع عن الحجرة ، حتى هرعت إلى الباب فأغلقتة بالمفتاح .
وقصدت من فورى إلى النافذة أفتحها وأستروح منها نسيماً يلفظ
ما أنا فيه من وقدة الألم والضيق .

أما أمى فلم يكن لها من مشغلة إلا ركوب السيارة الجديدة . ولطالما
نشبت بينى وبينها المنازعات فى شأن هذه السيارة واستخدامها إياها
صباح مساء ... ولما انتهى إلى « الباشا » أمر هذه المنازعات اتفق مع
والدى على أن تستخدم فى تنقلاتها إحدى سياراته القديمة فأصبحت
سيارتى لى وحدى ، لا يركبها سوى .

وشهد بيتنا عهداً جديداً من اليسر والرخاء ، ففصت الأصونة
بالملابس على اختلاف ألوانها وأزيائها ، ولا سيما سوانى الذى زخرت
فيه المشاجب بفآخر الأثواب . أما البيت فى بنائه المنقض وأثاثه البالى
فلم يجد فيه جديد . وكذلك لم تتبدل حياتنا التى كنا عليها من قبل .

حياة مهووسة لانظام فيه ولا تنسيق ، فكثيراً ماطلبت الفطور ، فلم أجد شيئاً يستساغ !

وكذلك أصبحت «أم يونس» لا يعينها من أمر المنزل كثير ولا قليل . وقد حدثت أمى فى الانتقال إلى مسكن آخر يلائم مانحن فيه من عهد جديد . فزرنا عدة منازل نستطلع ونتفرج ، ولكننا انتهينا إلى البقاء فى ذلك الجحر الحارب نحيا حياة الفوضى والإهمال .

ويوما وردتني من «لندن» صورة الدكتور «فهم» بعث بها تحية إلى ، فلبثت أتوسمها ملياً وقد حوّمت فى خاطرى أسراب من الذكريات ، وأحسست حينئذ يذبع من قلبى نحو الصورة . وجعلت أردد الكلمات التى كان يلتق بها «الدكتور فهم» إلى يطلب فيها أن أعوّل عليه وأن أعده ظهراً لى فيما يكون من أمرى . وأطلت النظر إلى الصورة . وقد لمحت لى تلك المشابه الواضحة بين «شريف» و«الدكتور فهم» : نظراتهما ... قسما وجهيهما ... بسماتهما ... وحانت منى نظرة إلى ظهر الصورة ، فقرأت كلمات يخبرنى فيها «الدكتور فهم» بأن إقامته فى «انجلترا» ستطول شهوراً أخرى ، وقد تمتد عاماً ...

فألفيت يدى تقذف بالصورة فى درج مكتبى !

أما «حمدي» فقد أقل من زرواته ، إذ كان يستنفد وقته أجمع عاملاً على التكبسب ليوفر لى النقود . فإذا لقينى ألقى على نظرات قلق وحيرة ، كأنما يحيش صدره بعمان يخشى أن يفصح عنها لسانه . ومرة قدم المنزل فطفاً يحفف عرقه كمادته وقتاً ، ولاحظت أن حديثه مهمل غير متساق ، وأنه يوجز فى القول ماوسعه الإيجاز ، وأن يده راعشة لا يستقر لها قرار . وبغته قطع مجرى الحديث ، وقال متهدج التبرات :

لا أستطيع الإغضاء فوق ما أغضيت ... دعيني أفصح ... لقد
ترامت إلى أنباء شاع ذكرها واستفاض ... لست لها بمستيقن ...
ولكنني أريد منك أن تصدقني القول .
فقلت وأنا متبالكة هادئة لنفس :
في أي قول أصدقك ؟
— برأيك فيما يتناقله الناس عنك ...
— لا أفهم ما تعنيه .
فنكس رأسه ، وهمهم في تلثم :
« الباشا ، ... « الباشا » .
فقطبت جبيني ، وقلت في شيء من الخشونة :
أوضح ... « الباشا » .. ماله ؟
فأخذ يعبت بأزرار حلته وقتاً ، ثم وجدته قد رفع بصره إلى ،
وقال في نبرة تشوبها حدة :
يجب أن تؤثرى أحداً على الآخر .
فاندفعت مني قهقهة توضحت فيها الزاوية والترفيع ، وقلت :
لا وجه للمفاضلة بينكما !
— إذن أنت تؤثرينه .. أنت تحبينه ...
— زن كلامك يا وحدي ، قبل أن تنفوه به .
فأبرى يقول في حمية :
حقاً .. لا وجه للمفاضلة بيني وبينه في نظرك . ولكن قيمتي في نظر
العقلاء أكبر من قيمته ، حسبك مني أن قلبي يفيض لك محبة وإخلاصاً ووفاء .
وأخذ يقرع صدره بيده ، ويقول :

أنا أفضل من «الباشا» مائة مرة... إنى لا أخادع النساء ، ولا
أشترى قلوبهن بالمال ... إنى رجل شريف ... أما «الباشا» فهو
رجل خدّاع أثيم !

وتقلصت عضلات وجهه ، وتشنجت يده ، فارتعت لمرآة وخشيت
أن يتبادى فى ثورته ، فأقبلت عليه أهدى من روعه متلطفة فى لباقة .
فقال وقد سكت عنه الغضب شيئاً :

«ثقى أنى لا أغار من «الباشا» ولا سواء... ليست شخصيته بذات
شأن ... ولكن يسومنى ويحزّ فى قلبى أن أراك مسوقة فى هذا التيار !
— أى تيار يا دحمى ، ١٩ اسمح لى أن أعاقبك على هذه الظنون .
أنستبيح لنفسك مهاجتي ظالماً لى ؟

— إن الناس يتقولون عليك كثيراً من الأقاويل .
— إنها ألسنة السوء والإفك .

— إن هبّات «الباشا» لا ينقطع لها ورود !

— «الباشا» يا دحمى ، فى منزلة أبى ... وهو يعدنى ابنته ...
لا تحسبنيّه أكثر من رجل بنا عطوف ... يا الله ! ... كيف يؤوّل
الناس مشاعر الشفقة والحنان ؟ ... ولسكنى إن ألقى لهذه الظنون
بالاً ... حسى أنى مطمئنة الضمير .

ولاحظت أن دحمى ، قد تأثر بما قلته ، فاستأنفت متحمسة أقول :
حقاً ما كان يقع فى وهمى أنك أنت تسمّى الظن بى ... أنت الذى
أعدك لى أخاً صفيهاً ، ألقى منك هذه الإهانة ؟
— إهانة ... معاذ الله !

— إذن أنا فى نظرك فتاة وضيعة ... فلماذا لا تقطع صلتك بى ؟

— وهل قلت شيئاً من ذلك يا دسلوى ، ؟ ... إن كان قد سبق
إلى وهمك ذلك فساحجني ا
وظللت غضبيَ أمسح عينيَّ ، فرأيتَه يقترب مني متذللاً يقول :
إن حبي إياك يغطي على بصري ، فلا أتبين الحق من الباطل .
— لم يكن يقع في وهمي يا دحمدي ، أن يجيء يوم أكون فيه
موضع اتهامك ا ...
— عفوا ... عفوا ...

وانتهت هذه المهزلة ، أو بالجرى هذه المأساة ، بأن عادت فسحة
الآمل تفتح أبوابها لقلب دحمدي ، فانهال على يدي بقبلات حرّى ،
وانصرف مشرق الجبين ، مثلح الفؤاد ا

رجل « شريف » و « سنية » بعد العرس إلى « سويسرا » يقضيان هناك ثلاثة أشهر ، وكانت تصل إلى من « سنية » تباعاً بطاقات تغدق على « فيها القبلات والتحيات ، وهى بطاقات مصورة تمثل الزوجين السعيدين فى أوضاع مختلفة وملابس شتى : فى الفندق ... فى الجبل ... فى الغابة ... بجوار النبع ... فى الحدائق العامة ...

وكانت ملاح « سنية » فى الصورة تنطق بأقوى الحب لعروسها الشاب ، أراها دائماً متعلقة بـ « شريف » ، ترنو إليه فى هيام ، وابتسامتها ترف على حياها وضئمة بهيجة ، يشد أنها كانت فى هذا كله تبالغ وتغلو . أما هو فكان عظيماً رائعاً فى رجولته ورجافته ، وكانت نظراته إليها نظرة إلى طفل مدلل !

ولأنى أصارح بأن هذه البطاقات كانت تثير فى مشاعر متشابهة غامضة ، وتسلبنى إلى سهوم وانقباض . كلتانا لها رجل تعيش فى كنفه . ولكن أى رجل هذا الذى هو لى ؟ وأية حياة تلك التى أحياها معه ؟ وذات صباح ركبت السيارة مع « الباشا » قاصدين « الفيوم » نستمتع بنزهة خلوية ... وعلى الرغم من أن كل شئ كان يبعث على البهجة ويغرى بالمسرة ، فإنى كنت أجدنى يملكنى الضيق ويسرع إلى « الاغتمام . وكان « يتراعى لى فى الفينة بعد الفينة طيف « سنية » و « شريف » وهما يتنزهان معاً فى ربوع « سويسرا » .. وقد قضيت اليوم مهتاجة الأعصاب ، لا أحسن متعة فى شئ مما يدور حولى . أما « الباشا » فقد

كان كثير الاحتمال صبوراً يلاطفني ويحاول عبثاً أن يرفه عني . وطالما سألتني ماعلة ضجري ، فلم يظفر مني بصريح من الجواب . ولما أبت ، إلى المنزل علمت من والدتي أن . أم يونس ، قد نقلوها إلى المستشفى ؛ إذ أصيبت بالفالج وأصبحت في أسوأ حال . فكانت مفاجأة ارتاعت لها نفسي وزادتني همساً إلى هم .

وفي الغداة اعتزمت أن أذهب لعيادتها في المستشفى ، ولكن دافعاً خفياً عاقني ، وقضيت اليوم قلقه حيرى ، وما كاد النهار يدبر حتى جاءنا نعي « أم يونس » ... فانفطر قلبي لهذا الخبر ، وانتابني بكاء وعويل ... وكانت ليلى مضطربة جيّاشة بالآلام والذكريات ، لا يكاد يغمض لي جفن ، حتى أستيقظ متفرجة يترأى لي شبح هذه المرأة في مختلف أدوار حياتها معي ، وكان يخيل إليّ أن صوتها مازال يردد على سمعي جملتها المعهودة : تزوجى . تزوجى أى شخص . حتم أن تتزوجى . الله ستار ! وتتابعت أيام ، وثاب إليّ هدوئى ، وأحسست أن عبثاً قد انزاح عن كاهلي ، وأن الدنيا قد انفسحت أمامي ، حتى لئنني حين لقيت بالبشارة أبدت حفاوة بالغة بقدومه ، ولم أحجم أن أتى بنفسى في صدره ، وأنا أقول : قبلنى ... قبلنى .

فنظر إليّ جذلان ، قائلاً : إن شيطانك اليوم غائب . ليت هذه الحال تدوم وضمني إليه ، وطبع على خدي قبلة حافلة !

أذكر أني لم أقصد إلى الجبانة لأزور قبر « أم يونس » ، ولكنني لم أغفل عن واجبي نحوها ، فأوصيت بعض مشاهير القراء بتلاوة ختمة كريمة توهب لروحها ، ولهذا الغرض أمرت كذلك بتوزيع الفطائر والفاكهة على الفقراء والمعوزين ، وشملتني الطمأنينة والسكينة بهذا الصنيع ... !

تزوجت « حمدي »... وإذا سألت نفسي على أى وجه تم ذلك ؟ لم أستطع أن أجيب . ثم الزواج في مفاجأة غريبة أذهلتني أنا نفسي . إن الضباب الحالك ما زال يعقد طبقاته حولي ، فلا ترى عيني من حياتي إلا اللحظات التي أحيها ... إنها تلك اليد الخفية تدفع بي في الطريق الذي تختاره هي لي ، لا الطريق الذي أختاره أنا لنفسي . كل ما أذكره من الأحداث المتساوقة التي انتهت بي إلى الزواج ، هو أن « حمدي » زارني يوما ، ففاتحني عرضا في شأن زواجنا ، فوجدتني أقول له على الفور:

إذا كانت رغبتك في الزواج صادقة فلا مانع عندي على الإطلاق .
 — لم تكن رغبتى لإصادقة ... ولكنك كنت تماطلين !
 — كانت هناك أسباب تدعو إلى التسويف والتأجيل ، ولم يبق منها اليوم شيء .

— أجادة أنت فيما تقولين ؟
 — إذا رغبتَ في أن نبرم عقد الزواج بعد يوم أو يومين فلا معارضة مني .

لخُذْتُ في وجهي برهة ، وقال ، وقد حنى رأسه ، وأخذ يعبث ببعض أنامله : ولكن المال ... لم أجمع بعدما يكفى من المال لنفقات العرس وما إليه .

— هذا لا يهم ... إنى لا أتزوجك لمال ... ما عندك اليوم كاف !

— ووالدتك ؟

— أرايت أنك أنت الذى تتصيد أسباب التأجيل ؟

فصاح : أنا ؟ أنا ؟ ... إذن أنت تجددى فيها تقواين !

— إنك بطفولتك هذه تهيج أعصابى .

فهنض ، لم يدر مايفعل ... وجعل يدور فى الحجرة مضطرم النفس
يفرك يديه ، ويحفف عرقه ، ثم وقف قبالتى قائلاً :

انتهى الأمر ... غداً يحضر المأذون ليكتب عقد الزواج .

ثم أمسك ييدى يهزها معتبطاً أبلغ الاختباط ، وخرج مهرولاً يثب
على الدرج بقوامه الطويل الهزيل على نحو أثار فى نفسى شيئاً من الضيق .

ولما لقيت « الباشا » فى « مينا هاوس » أنهيت إليه الخبر كأنى
أحدثه حديثاً لا يدعو إلى الاهتمام ، فاستمع إلى « ظاهر الهدوء » وأجابنى

وهو يصب الشاى فى قدحى : لقد أحسنت صنعاً . « حدى » شاب طيب !
وعرضت على فه ابتسامة ، ثم ألقىته يستغرق فى صمت ... ولما

صدحت الموسيقى نهض يراقصنى ، وأمضيتا الوقت على مألوف العادة :
نشر و نرقص ونسمر ... وقد خاض معى فى أحاديث شتى ، ولكن

لم يجر لسانه بكلمة حول نبال الزواج ، حتى حان افتراقنا ، فودعنى بقبلة
شعرت بأنها أشد حرارة وأحفل بالعاطفة العميقة من كل قبلاته السوالف ،

واستبقانى على صدره وقتاً ، كأنه لا يريد أن يدعنى ... ثم قال لى فى لهجة
ودیعة : بمناسبة حديثك فى شأن زواجك يسرنى أن تعلمى أنى على استعداد

لتلبية مطالبك التى تقتضيها الحال ... ثقى أنى فى خدمتك دائماً ...
سأكون لك الصديق الوفى أبداً !

وتلاقت نظراتنا طويلاً ونحن صامتان وكأننا اتفقنا فى عالم الصمت

على كل شيء ! ...

أما والدتي فلم تعارض في زواجي، أولعل حقيقة أمرها أن الموضوع لم يشغل لها بالاً !

وبعد أسبوع من ذلك الحديث الذي دار بيني وبين « حمدي » ،
أقمنا حفلة العرس ساذجة المظهر ، وبمحضر من « الباشا » تمت مراسم
الزواج ، وهيئات أن أنسى ما كان من سماحة مخطئته ، إذ أشرف بنفسه
على إعداد هذه المراسم ، فهو الذي استدعى المأذون ، ونثر العطايا
والمنح ، وهو الذي وقف يتفقد « حمدي » أثناء ارتدائه حلة العرس
الجديدة ، حتى لقد عقد له بنفسه رباط الرقبة ، ولا أخفي أن الحلة على
جذتها وبهائها لم تكن لائقة بـ « حمدي » ولا موافقة له ، فبدا فيها كأنه
أحد النشيد في المشارب والنوادي ، أو أحد ممثلي المسارح الهزلية !
فأقبلت عليه مبتسمة ، وقلت له : رائع أنت يا « حمدي » ، في هذه الحلة .
فابتسم المسكين في غبطة ، وهو مهمم : حسبي رضاك عني !

وانهال على يدي يزحمها بالقبلات .

وتحين خلوة بي ، فقال لي متحدثاً عن « الباشا » :

لقد أسأت ظني بهذا الرجل ظالماً لقد تكشف لي اليوم عن نبل عظيم !
ولم يكن لوالدتي هم إلا أن تتعجلنا ، وما أحسبها إلا كانت على موعد
تخشى عليه الفوات ... وقبل أن تختم الحفلة دنت منا بسرعة وهي تقول :
لا أريد أن أعطل العروسين ... مبارك .. ألف مبارك !

وقبلتني قبلة خاطفة ، ومالت على « حمدي » تهم بتقبيله ، ولكن
ما أسرع أن ارتدت تمديدها إليه تصاخفه وتهز يده ، ثم خرجت صائحة :
على بالسيارة ... على بالسيارة ...

انتقلت إلى منزل «حمدي» ، أحيا معه حياة الزوجية ، فقضيت الأسبوع الأول في عيشة راضية، يرفرف عليها الهدوء والسلام، وكان «حمدي» قد تخلف عن عمله بإجازة ، فلم يكن يفارق البيت إلا في الضرورة ، وكان فيض العاطفة يغمرني بحبه، ويتوسخى مرضاتي في كل شيء ، حتى إنه كان يقول مقام الخادم في أداء بعض الأشياء الخاصة بي وما كان أطرفه منظر آحين كنت أجلس إليه أطارحه الحديث ، وبين يديه طشت يغسل فيه متاديلى وهو يصفر مبتهجا طلق الأسارير... ولم يكن بالمنزل إلا خادمة حبشية أحضرها «حمدي» لتقوم بطهو الطعام وإنجاز الشئون المنزلية، وهى نحيفة غائرة الخدين بائلة الطول كأنما كانت تضيق بقامتها المنبسطة؛ فإذا مشت حنت هامتها بعض انحناء، وهى امرأة صموت جبهة الوجه منصرفه دائما إلى شأنها ، فكانت إذا مرت بنا فى تجهمها وصمتها ، مال على «حمدي» يقول هامساً فى لهجة الطروب :

سعادة سفير نيام نيام !

فتضاحك معاً ، والخادمة فى طريقها ماضية لا تبعاً بشيء .
وكان لهذه المرأة عينان ثاقبتان لم أكن آنس بنظراتهما على الرغم من أنها كانت حجة الأدب معى ، بالغة الاحترام لى .

وفى صليحة كل يوم تقف أمامى وقفة مهذبة تقول :

ماذا تريد «الهائم» أن يعد لها اليوم من الطعام ؟

فكنت أقدم فكرى دون أن أنتهى إلى شيء ، فأبتسم لها مجيبة :

إني بحسن ذوقك واثقة ... تخيري ما ترين .
وعلى الرغم من تكرار هذا الموقف بحملته وتفصيله أياماً متوالية،
فإن الخادمة لم تكن تعفيني منه يوماً
ولما انقضت إجازة « حمدي » استأنف عمله ؛ فكان يغادر المنزل
بكراً ويعود إليه في العشية . وكنت أزوّد في منصرفه صباحاً ببعض
الشرائط يطعمها عند الظهر . كما كنت ألزم نفسي أن أعقد له يدي رباط
الرفبة ، فيبدو على وجهه سيماء الارتياح . وقد شرعت بعد أيام أحس
أن الوقت يمر بي ثقیل الخطأ . ولا أكنم أني كنت أجدني مستوحشة
لبقائي منفردة في ذلك المنزل مع هذه الحبشية العجفاء ذات النظرات
الثاقبة ، وكانت تأتي ظهراً بصينية الفداء ، فتضعها أمامي بوجهها الجهم
وتقول لي في لهجتها المهدبة :

أليست « الهانم » في حاجة إلى شيء ؟
فأصطنع ابتسامة مغتصبة ، وأقول : لا شيء ... أشكر لك .
فتزول عني في خطواتها الوئيدة ، كأنها في خشونة منظرها ، وما
تبعثه في نفسي من رهبة ، شرطي " أقيم على " رقيباً في محبسي ...
فإذا اشتدت بي السأمة والوحشة خرجت إلى حديقة المنزل الساذجة
فلا أجد فيها متعة ولا أنساً ، فلا ألبث أن أعود لأتلبس السلوة بتصفح
بعض المجلات ، ولكن سرعان ما أمل التصفح . فأقوم بأداء بعض
شئون المنزل ، بيد أن هذا العمل لم يكن يروقني ، إذ كان عهدى به بعيد
المدى ... وكان « حمدي » يشوب في الآمالي مكدوداً ظاهر الإعياء ،
وأول ما يلفت نظري رباط رقبته الذي « عنيت منذ الصباح بتنسيق
عقدته ، فإذا هو كأنه ثعبان ملتو يزحف على رقبته آخذاً بمخنتقه .

فكنت أصيح : « حمدى ، يا للعجب ! ماذا فعلت برباط رقبتك ؟

فيجيبني بسام الثغر وهو يطبع على جبيني قبلة :

لا أستطيع أن أغير ما مسته يدك !

فأربت خده قائلة : لا بد أن تكون رشيقياً مهنماً يا حمدى ، !

وحين يأخذ في خلع حلته وارتداء منامته أراه يتوقف ، ليضئ في

حديث مستفيض عن مشروعاته الطوال العراض التي ستدر عليه وافر

المال . ثم يصيح مهتاجاً : إن مقامك في هذا المنزل المنعزل يبعث في

الحجل ... مشرّكة حتماً ... وسنحل مسكناً لائقاً في قلب المدينة .

فأطيب خاطره وأبادله تمنياته ، وأنبهه إلى أن يتم ارتداء المنامة .. !

وأذكر أنه خرج معي مرتين إلى بعض المرافص . وقدرضى بذلك

متوخياً مسرقى ، وليخرجنى وقتاً من أسر تلك الحياة الراتبة التي أحيائها

في منزلى الموحش ... وكان هو الذى يرافصنى ، ولكن سرعان ما يدركه

التعب ، فيشحب وجهه ويتفصد جبينه عرقاً ، فلا ألبث أن أخرج

به من الحلقة إلى حيث نجلس ، فكان يشكر ذلك على ، ويريدنى على أن

نتابع الرقص .

تواصلت الايام على هذا النحو ... وقد أخذت أضيق ذرعاً بحياتى ،

وأفقد السلوى في كل شيء حولى ، حتى إن نكات « حمدى » ومعايباته كانت

تثير غضبى بدلاً من أن تسرى عنى . وكان يتخذ من جملة « سعادة » سفير

نيام نيام ، دعاية يكررها على مسمعى كلما مرت بنا الخادمة الحشيشية ،

فلها ضجرت بهذه الجملة أفلع عنها ، فلم يعد يذكرها مرة أخرى .

وفى محيط هذه الحياة التي أحيائها ، كان يلج في خاطرى أحياناً طيف

« الباشا » فأجدنى وقد ثارت في نفسى أشتات من المشاعر السكائمة .

وبدأت ألقى على نفسى هذا السؤال : أحسنت بهذا الزواج صنعاً ؟ !

في ضحوة يوم ، وقد انصرف ه حدى ، إلى عمله ، وانتهت الخادمة الحبشية من مهمتها الرسمية اليومية ، مهمة إلقاء سؤالها على : ماذا أريد أن تعدّ لنا من الطعام ، ألفتيتنى وقد عصّف الضيق بنفسى كل عصف ، فإذا بي أرتدى ثياب الخروج وأتخذ زينق وأغادر المنزل قاصدة بيت « الباشا » . وما إن دخلت الهوى حتى طالعتى شبحٌ مدموازيل شانتل ، فأقبلت عليها أحيتها ، فردت تحيى فى اقتضاب ، وعلى فيها تتخايل ابتسامة متكلفة . ووقفت قبالتى وقتاً وهى ترفع منظارها ذا المقبض المفضّض إلى عينها وتزله عنها تنفحصنى ، كأنى حيوان غريب لم يقع عليه بصرها من قبل !

وانزعّت ه المدموازيل ، من بين شفقتها كلبة التنهئة لى بزواجى ، ألفتها إلى كأنها تجود على بمنحة سامية ...

ثم شعرت ه بأن منظارها يسائلنى فى فضول : لم جئت ؟
فقلت على الأثر :

لقد أتيت ه لأسأل هل جاءت رسائل من ه سنية ، إلى ؟
فهممت ه مفضنة الجبين : إنها تبعث برسائلها إليك بعنوانك ...
— لقد تغير عنوانى .

— ألم تسأل أحداً فى منزل والدتك ؟

— لم يصل إلينا هناك شىء !

— ونحن أيضاً لم يصل إلينا باسمك شىء !

وصاغت سمعى فى هذه اللحظة سَعلة والباشا ذات الغُنة المعروفة
لى ، فعلت أنه فى حجرة مكتبه ، فقلت : المَعذرة ... لقد أفلقتك .
أشكر لك ... تحياتى لأهل المنزل . لقد انتهت مهمتى !

وتظاهرت بالاتجاه إلى الباب أنصرف ، واسترقت النظر إلى
« مدموازيل شانتل » ، وهى تغادر البهو بقامتها الصلبة كأنها فلقة من
خشب ، وما برح المنظار فى يدها يهبط ويعلو ... وما إن رأيت شبحها
قد تزايد حتى أخذت سمعى إلى حجرة « الباشا » فافتحمتها عليه ، وكان
جالساً فى مقعده الجلدى الفسيح يقرأ إحدى الصحف ، وبجواره قدح
القهوة يترسّفه . فلما رأيت نهض مقبلاً على مشرق الوجه يقول :
أهلاً بالعروس ...

وأخذ يبدى يمينى ويلاطفنى ، ثم دعانى إلى الجلوس ، فقلت وما زلت
واقفة : حضرت أسأل عن رسائل « سنية » ، ألم يصل منها شئ باسمى ؟
— كلا ... ولكنى أستطيع أن أحدثك عن « سنية » وأخبرها
كثيراً إذا شئت ... ألا تجلسين ؟
وأشار إلى متسكاً بجانبه ، فقلت :

كلا ... أشكر لك ... لقد جئت لأسأل عن الرسائل .
فأمسك يدي يقول : تعالى تعالى نجلس وقتاً أقص عليك نبأ
« سنية » ، وتقصين على أبناء زواجك .
فقلت ، وما بارحت موقفى ، فى لهجة يشوبها جفاء :
ليس لدى ما أقصه عليك .

وما أسرع أن انحرفت عنه ببصرى ... فندت منه ضحكة خفيفة
وقال وهو آخذ يدي : أراهن على أنك غضبي !

وحاولت أن أجذب منه يدي ، وأنا أقول :
دع يدي .

— لماذا أنت مغضبة ؟
واقترب مني . يطوق بذراعه خصرى ، فقلت وأنا أتفك منه :
اتركنى ... اتركنى ...
فضمنى إليه ضمة احتياج ، فهاهى إلا أن تهاكت على صدره
أنتحب ، وتملكتنى نوبة من النشيج ...
فجعل يلاطفنى ، وأدنانى من المتكلم ، فأجلسنى عليه ، وقال حنون
الصوت :

هلا أفضيت إلى بما يضايقك ؟
فمنظرت إليه وعيني بالدمع شرقه ، وهممت :
أتجهل ما يضايقنى ؟
وحدقت فى وجهه وقتاً ، ثم قلت له فى لهجة ثائرة :
ة بلى ... ة بلى يا قاسى القلب !
ولسكننى لم أمهله ، فرأيت نفسى أرتمنى بين ذراعيه ، وقد وصلت
بيننا قبلة عطشى بعيدة المدى ...

وصلت من علاقتي السابقة بـ « الباشا » ما كان قد انقطع ، وعادت حياتنا أوثق عراً مما كانت قبل ! ...

وشعرت بأن كلني به يزداد على مرّ الأيام ...
أما « حمدي » فم ينكر على « أمراً » ، ولم يربه من سلوكي شيء ...
ييارح المنزل غدوة ، وقد عقدت له رباط رقبته ، وأعددت له شطائر الظهر على مألوف العادة ، ثم يوافي المنزل مساء فيجذني في انتظاره ، وما إن تقع عيني على صدره وأرى رباط رقبته قد انحل وتلوى كالشعبان زاحفاً يأخذ بمخنقه ، حتى أقول له في دعاة رفيقة :

ويحك ... ألا تفكر يوماً في إصلاح هذا الرباط ؟
فيجيبني بإبتسامة هزيلة ، محاولاً أن يطارحنى الدعاة ، ولكن سرعان ما يتخاذل ويلج عليه الضعف ، فيسادر إلى الفراش ... وقد لاحظت أنه يفقد شهيتته للطعام يوماً بعد يوم ، فكنت أستزيده من الأكل ، وأعني به أشد عناية ، وأغمره بعطف لم يكن ينتظره مني ، فكان ينظر إليّ بعين يتجلى فيها الاعتراف بالجميل .

وبأن عليه الإعياء ، واستبد به السعال ، واضطر أن يتخلف عن عمله ، وشعرت بأنه يعاني الضائقة في موارده ... ولم يكن يقلقني من أمره إلا سمعته ، تلك السعلة التي يبدو أنها ليست مأمونة ... ولكنه كان يطمئنتني بقوله : إنه تعب عارض ... سأ تغلب عليه !
وكثيراً ما كان يتحدث إليّ عن مشروعاته الطوال العراض ،

ويمتدني بافتراب تحقيقها ، ويكرر على مسمعى قوله : ثقي أن حالتى المالية فى تحسن ... لقد تم التعاقد على أن أعطى دروساً خصوصية ، وأن أؤلف أغاني وألحنها ... لاني فى عملى بجد ... سوف يزدهر المستقبل !

على أن سعلته كانت تعترض حديثه فتقطعه عليه ، فيظل فى سعاله . والعرق يتحلب منه ، ثم أرى وجهه قد امتشق وانتابه شبه إغماء . ولما وجدت موارد حمدى ، قد شحنت ، اضطررت أن أقدم له من عندى مبلغاً من المال يستعين به على مآرب المنزل ، كذلك اشتريت له حلةً جديدة دعت إليها الحاجة . وكنت أخبره بأن والدتى تمنحنى بعض المال من دخلها الخاص . فلم يكن ميسدى أى اعتراض أو استفسار ، بل كان ينظر إلىّ ساهم الوجه كأنه يفكر فى شئون أخرى . وازداد حمدى ، همزاً ، وخيلاً إلى أنه يزداد طولاً ... وكأنا هو يبارى تلك الخادمة الزنجية فى الطول والنحافة !

وتلاحق تخلفه عن عمله ، ولزومه الفراش ، فكنت أقول له :

لماذا لا تعرض أمرك على الطبيب يا حمدى ؟

فببتسم ويحاول أن يظهر بمظهر الجسور الذى لا يعبا بشيء ، وهو يقول :

من أجل وعكة خفيفة تعرض الأمر على الطبيب ؟ ثقي أن هذا عارض لن يكون له بقاء . راحة أيام تعيد صحتى أحسن مما كانت من قبل . ولكن حان الوقت الذى لم يستطع معه حمدى ، مفارقة المخدع . لقد بلغ به الضعف أقصاه ... وغارت عيناه كأنهما فجوتان مرهوبتان . وتلظى وجهه من وقدة الحمى ... ولاحظت أنه يخفى عنى مناديله

ولكنى استطعت أن أرى واحداً منها فإذا فى طبيّاته نُفائات دامية...
فاغتنمت فرصة نعاسه مرة وهرعت إلى «الباشا» من فورى ، وأفضيت
إليه بجليّة الأمر ، فاهتم لذلك أكبر اهتمام ، واستدعى طبيباً رافقنى
إلى المنزل ...

ولم يطيب « حمدى » نفساً برؤية الطبيب بادى بدء ، وعانينى
بنظراته فى صمت ... ولما وجد الطبيب يتفحصه مدققاً ، ويلقى
وابلاً من الأسئلة ، تغيرت نفسيّته ، وصار كأنه طفل مهيض على وجهه
سياً البكاء ... ورأيتُه يمسك بيد الطبيب ويندفع قائلاً :

إنها وعكة خفيفة ... أليس كذلك ؟ ... راحة أيام تعيد لى صحتى كما
كانت ... أليس كذلك ؟ ... لئى أعمال كثيرة تتطلب الإنجاز !

ثم رنا إلى الطبيب متضرّعاً وهو يضغط يده ، ويقول :

ليس عندك شبهة فى شىء غير عادى ... أليس كذلك ؟

ثم إذا به ينخرط فى بكاء يستدر الإشفاق ... فجعل الطبيب يرفه
عنه ، ويؤكد له أن ليس فى الأمر ما يسوء ، وأن أياماً قلّالا كفيّلة
بالشفاء ... ثم ربّث خده ولاطفه بقرصة خفيفة ، وهو يقول :

أمثالك يا أستاذ « حمدى » يخشاهم المرضى !

فوجدت « حمدى » يكفكف مداً معه ، ثم افتر ثغره ، قائلاً لى :

أأسمعين يا « سلى » ... إن المرضى يخشائى !

وخرج الطبيب ، فصحبته إلى الباب ، فقال لى فى جدّ :

يجب نقل المريض إلى مصحة « حلوان » دون إبطاء .

فشددت على يده قائلة : هل الحالة سيّئة ؟

— لا تخلو من خطر ... علينا أن نؤمّل ، والمستقبل غيب ، لا بدّ

على أية حال من نقله إلى المصححة ... ا

— أيمكث هنالك طويلا ؟

— أشهراً... أشهراً قد تطول وقد تقصر

ثم أخبرني بأنه سيمتصل بالمصححة للاتفاق على إعداد مايلزم .

وما كدت أسأله عن النفقات والمطالب التي تقتضيها المصححة ، حتى

قال لي :

لا يشغل بالك شيء... لقد فوض لي « الباشا » أن أتخذ كل مايلزم .

ولم ألاق صعوبة في إقناع « حمدي » بأن ينتقل إلى مصححة

« حلوان » ، وأكدت له أنه لن يمكث فيها أكثر من أسابيع ، وأنتي

آثرت نقله إليها حتى يبتعد عن منطقة هذا المنزل الرطبة التي تطيل أمد

المرض ، فأمسك بيدي في استسلام وذهول ، وهو يقول :

وأنت ؟ أتفارقيني ؟ ...

— كلا ... سألازمك .

— أنت كزى الثمين يا د سلوى ، ... الدنيا لا تساوى

بدونك شيئاً !

استقر دحمدي ، في مصحة د حلوان ، فأقبلت عليه في رفق وحنو
 أنهى إليه أسنى ، إذ أبت المصحة ، ووفقاً لأنظمتها ، أن تأذن لي في
 البقاء معه ، فلم تنفجر شفاته عن لفظ ، وكان الإعياء يرتسم على سماته .
 حتى إنه عند ما شد على يدي يودعني ، لمحتنه يسبل جفنيه في فتور .
 ولما رجعت إلى منزلي لأقضي ليلتي وحيدة لا شريك لي إلا هذه
 الحبشية الصموت الجهمة الوجه ، تعاصى على النوم ، فسهرت الليل
 كله تكتنفي المواجه المفزعة . وخيل لي أن هذه الحبشية ستقتحم
 عليّ حجرتي فتخنقني بيديها المعروقتين الصلبيتين في جنح الظلام !
 وفي الصباح هرعت إلى بيت د الباشا ، ودخلت عليه مضطربة
 أقص عليه حالي . فقال : أرغبين في العودة إلى بيت أمك ؟ !
 فأجبت على الفور : هذا لا يكون .

فطفق يفكر فترة ، وهو يذرع الحجرة ذهاباً وأوبة ، ثم قال :
 لا سبيل إلى راحتك إلا بوسيلة واحدة .
 — ما هي ؟ .

— أن تقيمي هنا ...

— هنا ؟ ... كيف ؟ !

— أنت ستقيمين في دار صديقتك د سنية ، ... أنت في ضيافتها .
 وهل نحن إلا أسرة واحدة ؟ ! هذا جناح د سنية ، معداً ، ففي وسعك
 أن تحليه ... ولا حاجة لأحد به .

— ولكنَّ الناس لن يعفونا من قالة السوء .

— إذا خشينا ما يقوله الناس لم نستطع العيش ... أية مشائبة في
أن تحيَّه معنا ... ألسنا أسرة واحدة .. ١٩
وتركت منزل د حدى ، فى عهدة الحبشية ، ولا أدرى بعد اليوم
على من أتلقى سؤالها الرسمى المعبود :
ماذا تريد أن أعد من الطعام ؟

ونزلت مجنَّح ، سنية ، من بيت الباشا ، وأنا مغمورة بمعطفه
وتعمَّده ، فبدأت الحياة التى طالما صبت لى نفسى من زمن قديم :
هذا السرير الفاخر سرير صديقى ، لى أنقلب فى أعطافه تسرى
فى أوصالى الراحة والرضا ... هذه الأصوات التى يزخر كل عوان منها
بغوالى الثياب ... هؤلاء الخدم بأمرى يأتمرون ... تلك السيارات
رهن لإشارتى صباح مساء ... هاته الشرفة الرحبة المطلة على بستان
الدار ، تلك الشرفة التى طالما جلست فيها لى د سنية ، لقد أصبحت
الآن لى عئش الغرام ... أقضى فيها مع د الباشا ، أطيب الأوقات ،
وأعذب السهرات ؛ ناعب بالورق ، ونقتادر ونتضاحك ، وحولنا مالد
وطاب من طعام وشراب !

كان كل شىء وفق مرامى ، إلا أمراً واحداً يثير حفيظتى . هذه
الغمزات والإيحاءات الخفيفة التى كنت ألحظها فىمن يحيطون بى من
خدم الدار ، وتلك الهمزات واللمزات التى كنت أفطن لىها فيما يتخاطفونه
من حديث ... أما د الدادة شيرين ، فقد لزمت حجرتها فى الطبقة
الدنيا من المنزل ، وقيل لى لىها مصابة بمرض المفاصل ، ولا أدرى
مبلغ هذا القول من الصدق . أمام مدموازيل شانتل ، فلم أكن أراها

إلا في السُدرة ، وهي على حالتها : منظارها ذو المقبض المفضض تعلو به على عيناها وتبسط في الفينة بعد الفينة ، مشيتها الصُّلْبة كأنها دمبة تندفع بلولُب ، ابتسامتها المختصة تحمل في تضاعفها الزراية والامتهان ... وكنت إذا جرت بحجرتها لمحتها عددة على مقعدها الفسيح ، وأمامها كتاب تقرأ فيه ، وقد أمر بها بعد ساعات فإذا هي كما تركتها لم تغير جلستها ، ولم تدع كتابها .

ولقد كانت والدتي تزورني في بيت « الباشا » كلما أعوزها المال . تتظاهر بالسؤال عما وصلت إليه حالة « حمدي » ، وتتصنع الاهتمام بأخباري ، ثم لا تكاد تنال مآربها من النقود حتى تدعني مهرولة إلى الطريق ...

فأما « حمدي » فكنت في بادئ الأمر أواصل زيارته كل يوم ، لكن بعدت عليَّ الشُّغْقة . فاقترصت على زيارته يوماً بعد يوم ، ثم شغلني شأني فلم أستطع أن أزوره إلا يوماً أو يومين في كل أسبوع ... وكنت أدخل عليه متلاثة في أتم زينة وزخرف ، فيلقاني باديء بدم في شغف وابتهاج ، ويحيم عليَّ أن أجلس عن كשב منه على السرير ، ثم يتوسمني مليّاً ويده تضغط يدي ، ثم أراه يتحسس ثوبي مسترسلاً في صمت وكآبة ، فلا يفوتني أن أحزر ما يعتلج في نفسه من مشاعر ، وما يدور في رأسه من خواطر ، فأخذ في ملاحظته ثم أقدم له هداياي : علب حلوى ، فطائر ، كتباً ، مجلات ، صوراً ... وأحياناً أنار له بيدي بعض الفطائر أو الحلوى فيطعمها وقد بدأت اسأريه تتطلق ، وثره يلوح عليه الابتسام ، ثم تنحلّ عقدة لسانه فيندفع في السؤال عن البيت وشؤنه ، وعن عيشي فيه ، فأقول له :

كل شيء على ما يرام ، وإني أبشرك بأن الصداقة قد توثقت بيني
وبين «سفير نيام نيام» ...

فتتضحك ... ثم أجده قد انبرى يتحدث عن حاله وما يشعر به
من تحسُّن ، ولكنه كان يشكو إلى سوء الطعام ، ويرغب إلى أن
أذهب إلى المطبخ بنفسى أرجو من القائمين عليه أن يقدموا له طعاماً
جيداً الطهو مختلف الألوان ...

وكان يختم حديثه بقوله : لن يمضى وقت طويل حتى نرجع إلى
عشتا الحبيب . وأستأنف العمل لإنجاز مشروعات المعطلة .. سيتدفق
علينا للكسب ، فأجعلك فى رغبة من العيش .

وكنتم أجده وقد أجده الحديث ، تدركه نوبة سعال ، فأريده
على أن يستريح ، فلا يلبث أن يستجيب آخذاً بيدي فى تشبث ،
وتنقضى فترة طويلة دون أن أستطيع منه الخلاص ، فأنهض قائلة :
يجب أن تنام يا د حدى ،

فينظر إلى بعينه المسكودتين ، وينزع الالفاظ من بين شفثيه
الجافنين انزعاً ، قائلاً : أ كذلك تركينى مبكّرة ؟

فأميل عليه حانية ، وأهمس : لقد أوف موعد انصراف الزوّار .
إن أنظمة المصحّة لاتأذن للزائر أن يمكث كما يهوى .
فيقول هزيل الصوت أبح :

حتى بين الأزواج ؟ ... إن هذا لظلم عظيم !
ثم يطبق جفنيه ، ويقول بمجماً فى نبرات متقطعة :

يجب أن تعرضى شكواى على الطبيب ليأذن لك فى البقاء .
أطول وقت ممكن ...

— سأفعل !

ثم أحاول أن أجذب منه يدي بلطف ، فإذا به يصر على إبقائها
في يده ، وأسمعه يهمس :

و للباشا ، ... أترينه ؟

— منذ زمن طويل لم أره .

— إنه رجل عطوف كريم ... أعترف بذلك ... ثقي أني سأجزيه

على جميله معنا ... ثقي ... ثقي ...

وأراه قد بدأت بوادر النعاس تبدو عليه ، وقد بان وجهه كأنه
هيكل ، خدّ غائر تمتقع ، فم منفرج بشع المنظر ، يبدان عجاوا كأنّ
عظامهما هشة توشك أن تتداعى ...

فأخرج حشيشة الخطأ إلى الطريق ، كأنني مفلتة من محبس خائق ،
أو منبعثة من قبر عشت فيه ساعةً مع رميم عظام !

في إحدى الليالي بينما أنا في الشرفة جالسة إلى دالباشا ، نتفاكه
ونتجاذب أطراف الحديث ، إذ رأيتـه قد نهض بغتة إلى سور
الشرفة وقد تحسس قلبه بيده ، وهو مبهور الأنفاس كأنه يحتق ،
فقفزت إليه أسأله : ما بك ؟

— لا شيء ... لا شيء ... !

— ماذا ؟

وكان يشرئب ليستنشق الهواء ... ثم سمعته يهمهم :
قليلًا من الكولونيا ، ...

فأسرعت أحضر ما طلب ، فلما عدت إليه وجدته قد تهاوى
على الأرض ، فصرخت مرتاعة ، وانحنيت عليه أتفحصه ، فوجدته
جاحظ العينين ، يتنفس في عسر ، ويحاول الكلام فتضطرب شفتاه
ولا يبين ، فتناديت بعض الخادومات أستغيث . فأقبلن على متفرعات ،
ثم لبنا دالباشا ، إلى حجرتي ، ومددناه على المقعد الفسيح ، وكنت شديدة
الارتباك والذهول ، لا أملك موقفي ، وظهرت دمدماويل شانتل ،
بقميص النوم السابغ وعلى رأسها قلنسوة بيضاء ، وفي يدها المنظار
تهبط به وتعلو ، وما إن تبيأت الأمر ، حتى قالت في حزم :
يجب استدعاء الطبيب !

فصحت : علينا بالطبيب ... فوراً ... !

وانصرفت دمدماويل شانتل ، مسرعة تستدعي الطبيب ، وأخذت
(٢٠)

أنا والخدم نجرى مانحسسته من إسعاف ، ففككنا عن «الباشا»
رباط رقبته ، وأنشقنا بعض المنعشات ، وأخذنا ندلك يديه ورجليه .
وبعد لحظات آنست منه تنبهاً ، وبدأت «وجنتاه» تلوح فيهما
صبغة الحياة ، فابتسم لي ابتسامة عارضة ، وهو يهمهم :

لا تزعجى ... إلى بخير ...

ثم أشار إلى الخدم أن ينصرفوا ... ولما انفرد بي ، دنوت منه ،
فقبلت جبينه ، وأنا أقول : سلت ... سلت !

فأمسك يدي يلاطفها وقتاً ، ثم همس قائلاً : شربة ماء !
فذهبت أملاً له قدحاً ، ولما تقدمت أناوله إياه لم يتحرك لأخذه ،
وكانت عيناه لا تطرفان ، وهما تحدقان في الفضاء .

فلأطقت يده ، فلم أجد لها من حس ، وراعتني مقلتاوهما ترميان
بنظرهما الثابت ... فشعرت بالكوب يسقط من يدي ، ورأيتني
أطلق صرخة ، وقد تغشّت عيني غمامة كثيفة ، وتراءى لي من خلاله
تلك الغمامة شبح «دموازيل شانتل» منحنية على وجه «الباشا» ،
ثم سمعت صوتها يقول : لقد حضر الطبيب .

ثم أمسكت يدي ، وخرجت بي من الحجرة ، وإذا بالطبيب
مقبل يحمل حقيبتة في سرعة واهتمام ، ولما دخل الحجرة أفلها خلفه ،
فوقفت عن كئيب من الباب ، وقد بدأ يشوب إلى وعي ، ولكن
أعصابي كانت مرهفة أشد الإرهاق ، حتى إن أهون حركة كانت
تزعجني كل إزعاج .

وخرج الطبيب بحقيبتة جهم الملاح كاني النظرات ، وبعد أن ألقى
في أذن «دموازيل شانتل» كلمات عاجلة ، هبط الدرج يطأطئ

رأسه ، ويجرّ قدميه ...

علا صراخُ الخادِماَتِ ينعين سيدهم ويكيّنه ، فأحسست
دواراً يفجّؤني ، وخررت على الأرض مغشياً عليّ .

ولما أفقت من غشيّ ألفيتني مددّةً على متكا في حجرة الزينة
المجاورة لحجرة النوم ، ورأيت شبّاحاً يتحامل في سيره على عصاً وهو
يروح ويحي . في تناقل ، يجمع متاعاً من هنا وهناك . ورأيتني أصبح :
« دادة شيرين ... دادة شيرين » .

فنظرت إلى « الدادة » نظرات عابسةً دون إجابة ، ولم أكن قد
التقيت بها منذ أشهر ، وتدنأت مني قليلاً ، فلاحظت أن سمعتها قد نالها
كثير من التغير ، فتهدلت أشداقها ، وأمالون بشرتها الذي كان يلسع
سواده كأنه مجلّسٌ بطلاء ، فقد انقلب إلى صفرة دكناء... وسمعتها تقول
بحسّاء الصوت : يحسن بك أن تتركي المنزل ، أن تركيه في الحال .
فلم أحر جواباً ، وظللت أصعّد فيها البصر مأخوذة متسائلة ،
وأخذ بعض الخادِماَتِ يتعاقبن على الحجرة لشئون شتى ، ولاحظت أنه
كلما انصرفت إحداهن كرمقتى بنظرة شزراء ...

واقتربت مني « الدادة شيرين » ، وهمست في أذني شديدة اللهجة :
« ألم تسمعي نصحي بعد ؟ ... غادري المنزل من فورك ... »
وأخذت يدي تجذبني ، وخرجت بي من الحجرة ، فكنت لها طيّعة
صاغرة ، ودخلنا حجرة النوم التي قضى بها « الباشا » نجهه ، فإذا به قد نقل
إلى حجّره الخاصة ، وتركني « الدادة شيرين » فترة ، ثم عادت بحقيقية
كبيرة تعاني حملها في إعياء ، وانطلقت تجمع أمتعتي وحلي وحللي ، وترحم
بها الحقيقية كيما اتفق ... ثم قالت منهمكة في عملها كأنما تتخاطب نفسها :

سيحضر «الباشكاتب» بعد قليل ليحضر أشياء المنزل ، ويضع
الاختام على الأبواب .

ولاحظت أن العرق يتحلب على جبينها ، ولكن ملاحظتها كانت
جامدة صلبة ... وتركت أنا و«الدادة شيرين» الحجرة ، ومعنا الحقيبة ،
سائرتين في مسطرة ومحاذرة وتلصص ...

وانحدرنا إلى سلم الخدم فهبطنا فيه ، فإذا اعترضنا أحد ، جبهة
«الدادة» بنظرة صلبة ، فلا يلبث أن يفسح لنا الطريق .
ووجدت أمام الباب الخلفي لقصر «الباشا» سيارتي الخاصة تنظرني ،
فأقبلت على «الدادة شيرين» أرتمى في صدرها ، وأخفى في حضنها
وجهي المخضل بالدموع . فرأيتها تنحني عنها وهي تهمهم :
ليس هذا وقتك ...

وانطلقت في السيارة إلى بيت والدتي ، فدخلت ردهة البيت ،
وألقيت بنفسي على أول مقعد صادفني ، والحقيبة أمامي ...
وعليت من الغلام الخادم أن والدتي في الخارج ، فلم ألق لذلك بالا ...
وظللت في جلستى وقتاً طويلاً لا أعرف مداه ، وكنت أنظر في
الفضاء نظرات شوارد ..

وأخيراً شعرت برأسي يترج ، وحواسي يملسها على نعاس .

عاودت حياتى بجانب أمى فى ذلك المنزل العتيق ... وانبعثت من قبرها معيشتى السالفة بين جوانب ذلك الوكر الموحش البغيض ... حرقى هى هى تلك الحجرة العارية من الأثاث يحتلها هذا الصّوّان المتداعى ... وأمى كما هى ، أراها فى غلالة نومها البالية التى تكشف عن صدر أعجف ، وقد تكاثرت فى وجهها الغضون ، وبانت بشرته صدئة كأمدة أتلفتها وطأة الدهان والمساحيق . ومازالت على فيها تلك الجملة ، تلقىها على مسمعى فى لهجتها المبطوطة وهى تبتخر شائعة الأنف ، ولغاظة التبغ بين أناملها المصفرة : لو كان كلامى لقى منك أذنا صاغية فزوجت رجلا ثريا لما أصبحت كما أنت الآن ضائعة ... ! أضائعة أنا حقّا ؟ ...

وهى ، ماذا ترى نفسها ؟ أربحت معركة الحياة ، وكسبت الدنيا ؟ ودارت بنا عجلة الأيام ... واضطرت إلى بيع السيارة بالرغم من احتجاج أمى التى أوهمتني أنها ترغب فى شرائها ، وراعى أن ثمن السيارة قد جمل يتناقص ، حتى لم تبق منه باقية ...

لقد ابتلعت معظمه مصحة و حلوان ، من أجل وحمدي ، ! وأغلقتنا منزل الهرم ، وجلبنا الخادمة الحبشية المجفأة لتقيم معنا فى منزل أمى ، بدلا من الغلام الذى كان قليل الغناء ... وكانت الخادم على حالها مهذبة السلوك غارقة فى صمتها وتجهمها ، لا تنسى جملة الخالدة تفرع بها سمعى كل صبح : ماذا تريد و الهانم ، أن يعد لها من الطعام ؟

ومن العجيب أنها كانت لا تنتهي عن هذا السؤال ، وإن خلا المنزل من شيء نطووه !

أما د حدى ، فقد كانت صحته تنقل على مهل من سيئ إلى أسوأ ، وقد أنهى إلى الطبيب أن العلة قد تطول أشراً بعد أشهر ، فكان ذلك يرمى في ثورة مكظومة ، إذ أرى ثروق تتداعى ، ولا أعرف لى باباً لكسب جديد !

رباه ! ... تعالت حكمتك ، أردت أن يطول عمر هذا العليل الذى يمتد احتضاره ، فيزداد ألماً إلى ألم ، ويزداد من حوله متاعب إلى متاعب ، وحسرات تتبعها حسرات !

هأنذا أعرض حياقي الماضية وما كان لـ د حدى ، من دور فيها ، وبخاصة عهد الطفولة الهنيء حين كنا نقضى أوقات الصفاء أنا وهو و د سنية ، و د شريف ، جميعاً ، وكيف كان د حدى ، يشجعينا بصفائره ، ويشير فينا المرح بالاعية ونكاته ومداعباته... إني لأحس الآن بوخز الضمير ، إذ أستكثر عليه الحياة وامتداد الأجل ...

إنه لعقوق وغدر أن أفرّ من الميدان الذى يتطلب منى احتمال د حدى ، ورعايته فى أخرج ساعات حياته !

وعادت د سنية ، مع د شريف ، بعد أن تلقينا نعتى د الباشا ...
يا لله ! شد ما كانت د سنية ، سخيقة فى حدادها على أبيها... كنت أقصد إليها أواسيها فينالني فى جلستى معها ضيق شديد ، ولكنى أعترف بأن لقائى لـ د شريف ، كان فيه خير العوض من ذلك الضيق ، لقد كان د شريف ، يعلو فى عيني برجولته واكتمال عقله ورزاقته ، وكنت أحس أنه يبرم بحزن د سنية ، الذى يشبه حزن الاطفال المدللين !

إنها تنشيج ولا تفنأ تنشيج ، المنديل في يدها لاتدعه ، وعينها محتقنة
مرها ، وأنفها متورم ملتهب ، وصوتها متسلخ أبحج ، وقصات وجهها
متقلصة عليها غبرة ...

وأحسست بأن « شريف » يخفضى بنظرات تطلع واهتمام ، وإذا
اتفق لنا أن نخلى رأيت قد خرج من تحفظه المعهود ، وتلفف بي ،
وجلس إلى « نتنادر » .

وكانت « سنية » تحل « جناحا خصص لها هي و « شريف » ،
أما حجرتها القديمة فقد أغلقت إثر وفاة « الباشا » وظلت على حالها
لايفتحها أحد .

وقد علمت « سنية » بما كان من إقامتي مع « الباشا » أثناء سفرها ،
ولكنها علمت ذلك على وجه حسن ، إذ تطوعت « الدادة شيرين »
فأخبرتني بأنه على أثر اشتداد المرض على « حمدي » وما صرت إليه
من وحدة ووحشة ، استدعاني « الباشا » لقضاء أيام .

ويوما وأنا مع « سنية » راحت ترنو إلى « متلطفة » ، ومنديلها في
يدها تمسح به عينيها المخضلتين ، وقالت :

لقد تركت وفاة والدي فراغاً كبيراً في حياتي ، فلم يبق لي من أمل
في الدنيا إلا أنت و « شريف » .

فأجبت : لا يحق لك يا أختي أن تشركي أحداً مع زوجك في
قلبك ... حسبك « شريف » ... حشم أن يملا وحده ذلك الفراغ !
— هذا حق ... ولكن « شريف » مشغول بعمله في الوزارة ...

وأنا وحيدة أشعر بوحشة !

واندفعت في نشيجها الطفلي « المعهود » ، وهي تحك أنفها فيزداد من

تورم واحمرار ، فطفقت^١ أواسيها بألقيه على سمعها من عبارات
شعرت بابتذالها ، فلكت تكرارها !

فضنطت^٢ يدي ، وحدقت في وجهي قائلة :

لماذا لا تستقيمين معي بضعة أيام ؟

فكانت مباغتة لم أملك معها الجواب ، وهممت أن أعتذر ،
فأقبلت عليّ تقبلني في رجاء حارّ ، وهي مازالت في نشيجها مسترسلة !
لم يمض يومان حتى كنت قد انتقلت إلى منزل « سنية » ، وأقمت فيه .
وقد تركت لي حرية اختيار المسكن ، فتخيرت على الفور هجرتها
القديمة ، أو بالحري حجرتي التي كانت سكنى قبيل أن يقضى « الباشا »
نحبه ، تلك الحجرة التي سعدت فيها بفترات رفاة وصفاء . وقرّ في
هذا المسكن قراري ، استعيد فيه ذكرياتي مع الراحل المأسوف عليه
كلما خلوت إلى نفسي ... في هذا الركن كان يجلس فأخلد إلى صدره .
ما برحت تصافح أذني دقات قلبه المنتظمة ... أرفع رأسي إلى وجهه
فتطالعني عيناه النافذتان ترنوان إلى في حبة وحنان ... في تلك الشرفة
طالما جلست معه نلعب بالورق بين تنادر وتضاحك ومعاينة .

وتوالت الأيام ، فأحسست أن إقامتي بالمنزل تسبغ عليه لونا جديدا
من الحياة . لقد سلت « سنية » بمض السلو^٣ ، وفارقتها كآبتها المفضّة ،
وشرعت تعود إلى شيء من المرح والتفكه .

ولقد لاحظت أن العمل الكثير الذي كان يخرج « شريف »
لإنجازه بعد الظهر في الوزارة قد تضائل ، حتى لم يعد له بقاء ...
فها هو ذا يروقه أن يقضى معنا جلّ وقته ، نقصد نحن الثلاثة إلى
مشارب الشاي تقضى بها وقتاً ...

وتطورت الحال ، فأصبحنا نذهب ليلاً إلى المطاعم فنقضى سهرات
لا تخلو من لطف وإيناس .

وعلى أن أعترف بأنى كنت أستطيع حياى الجديدة ، لولا ما كان
يشوبها من تيمسّع « سنية » وطفولتها ، وما تبديه لزوجها من دلال
مسيخ ...

على أن « شريف » كان يحتفظ برباطة جأشه ورزانة موقفه ، وكان
يحسن تصريف الأمور فى لباقة وكياسة .

ولبثت أبذل جهدى فى أن أظلّ الصديقة الوفية المخلصة لهذين
الزوجين ، أتوخى لهما الهناءة والوفاق .

ولم أنس « حمدى » فى مصحته ، فكنت أزوره فى الفينة بعد الفينة ،
وألزم نفسى سماع حديثه المملول يعيده فى كل زورة ... ذلك الحديث
الذى يصف به مشروعاته الضخام ، وآماله الجسام !

حل يوم مرضت فيه ، سنية ، راجعتهما علتها الأولى : فقر الدم . والهزال ، فازمت فراشها ، واستأنفت نشيجها ... وظهر المنديل في يدها لا يبرح . وبدت هاتان العينان حراوين محتقتين ، وهذا الأنف متورما ملتهباً ... وذلك التدلل الطفلي يتمثل في إباء الطعام والتمتع على الدواء .. فكنت أنا و « شريف » نتعاون على تمريرها وإطعامها وإشرابها العقاقير ... على حين تقف « مدموازيل شانتل » عن كشّب من الباب وقفها الجمادة ، والمنظار ذو المقبض المفقّض في يمينها صاعدة به هابطة ، وهى تصدر الأوامر إلى الخدم ، دون أن تبأشر عملاً أبداً كان !

وجرت العادة بأن أتناول الغداء والعشاء مع « شريف » على مائدة واحدة ، وكثيراً ما كنّا نمكث وقتاً إثر الغداء أو العشاء في هو الضيافة الصغير ، ندخن ونحتسى القهوة ونتطارح بعض الأحاديث ... فإذا كانت « سنية » نائمة أطلنا جلستنا ، وأخذ « شريف » يتبسط فيما يتحدث به إلىّ ، مفيضاً في ذكريات إقامته فى « فرساء » ... غير متحرّج من الخوض فى وصف ما كان له من مغامرات غرامية ؛ ولسكنه لاتفوته اللبابة والأدب فيما يخوض فيه من حديث .

وكان « شريف » دائماً أتيقاً فى برّته ، رشيقياً فى حركاته ، عظيمياً فى رجولته ، يشير مرآه فى نفسى ذكرى « الباشا » وما كان له من شخصية أئيرة عندى ، محبة إلىّ .

وعلى تواصل الأيام ارتفعت الكلفة ببقى وبين « شريف » ، وبدأ يروقه أن يترشف قليلا من « الويسكي » فى جلسات المساء ، فتتجلى ذلاقة لسانه ، ويزداد تبسطه فى المحاوره والسمير .

وفى إحدى الاماسى عرض على " ان أتناول كأساً من « الويسكي » ، وكنا ساعتئذ مختليين فى بهو الضيافة الصغير ، فتمنعت " بادية بدء ، ولسكنه ألح " على " فلم أستطع " له رتدا .. وبدأ عليه فى هذه الجلسة طارىء من سُهوم وشروء . بيد أنه كان مع ذلك شديد الرنو " إلى " والتفرس فى " ... وبدأنا ندخن ، فوضعت لفاقى على طرف المنفضة وقتاً ، وغشيتنا الصمت " ، فالفيت « شريف » يمد إلى اللفاقة يده فى هدوء ، وما هى إلا أن اندفع يجتذب أنفاسها .

فنظرت إليه نظرة تساؤل ، فابتسم ابتسامة رقيقة ، ولم يلفظه من قول . ومرت لحظات صمت وجدتنى على أثرها أتناول لفاقته ، وأدنيا من فى ، فأدخن فى استرسال .

وأرحت على ظهر المقعد رأسى ، متبسطاً أنفث الدخان ، وأرقب سحائبه وهى تتزائل فى أرجاء المكان .

وأحسست « بشريف » ينهض دانياً منى ... ولمس يدي فى رفق ، ففشخت ببصرى إليه ، وأنا على حال فى جلستى متراخية .

وتلاقت نظر اتنا هنيهة ، ثم وجدتنى أسبل جفنى .

وشعرت بأنفاسه تسبح على وجهى .

وفى لمح البصر تماسست شفتانا .

ونفضت عجلة أهمهم : لا ... لا ... أرجوك !

وغادرت الردهة أحث خطاى ، وانطلقت إلى غرفتى لشوق

وهرعت إلى الشرفة ، وكان الليل ساجياً وادع الأنسام ، وقد اكتست الآفاق بسجف من الظلام ، فطففت أحقد في السماء كأنما أحاول أن أخترق ذلك السجف الخالك فأناشد للنجوم البعيدة أن تكشف لي خبايا نفسي ، وأن تظهرني على طوايا الغيب المستور !

وفي غد لقيت « شريف » فلم نعرض في حديثنا لما وقع بيننا أمس ولكن نظراتنا وابتساماتنا كانت من الكلام أقوى تعبيراً وأفصح دلالة وبعد العشاء ضمنتنا الردهة على مألوف العادة ، لشرب القهوة وتدخن ، فالفيتة يهمس إلى :

هل لك في أن نخرج للزمة ساعة ... هذا مساء جميل !

فظللت صامتة لا أجيب ... وما إن تبين لنا أن « سنية » قد وافاها نعاسها ، حتى رأيته يستأنف مكاشفته إياي برغبته إلى في الخروج معه وخرجنا في سيارته يسوقها بنفسه ، وقصدنا أحد المرافق ...

وغمرتنا موجة المرح ، فشربنا ورقصنا ، وأرخينا لأنفسيينا عنان اللهو فلم نتخرج من شيء . ولعلني أسرفت في الشراب ، فإني لا أعرب كل ما كان مني في تلك السهرة الصاخبة ، ولكنني أستطيع أن أذكر أن « شريف » كان مفرطاً في مداعباته إياي ، وأنه انتهب مني قبلات حافلة دون أن أتمنع ...

وبلغنا المنزل عند السحور وإذا بمد موازيل شاتل ، تلقانا بالباب ، واستطعت أن أقسم من حديثها أن « سنية » أرقة قلقة ، لم يغمض لها جفن ، وسمعت « شريف » يقول للربية :

حسناً ... حسناً ... سأذهب إليها الآن !

وقصدت حجرتي على الفور ، وارتيمت على السرير بملابس الخروج .

وأنا أحس بهمود شديد يستولى عليّ فلا أستطيع معه الحراك ، ولكنني قضيت الليل في نوم مضطرب تعتادني أضغاث أحلام .

وصحوتُ من نومي ضحاً ، فشرعتُ أعرض في تخيلتي ما حدث البارحة ... فهاجمتني الهواجس ، وخشيتُ العقبى .

وجاءني « شريف » عليه حفاوة وبشاشة ، فقبّل يدي ملاطفاً ، وما إن لاحظتُ القلق يترأى في قسباتي حتى همس في أذني :

كل شيء قد تمهّد ... لقد كنا البارحة عند « حمدي » ، إذ تلقينا إشارة تليفونية بأن نوبةً أصابته ، وقضينا أطول الليل بجانبه ، ولم نستطع مفارقتة حتى هدأت عنه نوبته .

وابتسم لي ، ثم استطردّ يقول :

هذا كل شيء .. وقد علمت به « سنية » ،

وربت يدي ملاطفاً ، وهو يقول :

لا تؤاخذيني ... لقد أبطأت عن الوزارة .

وأذكر أنني لم أنبس بقول ، ولكنني كنت أحاول الابتسام .

واستغرقني فيضٌ من الشواغل والأفكار ، لقد اطمأن قلبي حقاً في

شأن غيبة الليل ، وسؤال « سنية » عنها ، ولكن شيئاً يشير في القلق .

إذا تكرر مثل هذا فكيف يكون أمري ؟ وماذا تدبر من هلات ؟

أيطول حبل الأكاذيب ؟ ... وصلى « بشريف » ؟ أأدعها في تيارها

بلا تفكير ولا تدبير ؟ أوصديقتي ؟

وأخفيت بين يدي وجهي ، ومكثت حيناً على تلك الحال

وسمعت طرقاتاً على الباب ، وإذا بهمهوازيل شاتل ، تدخل بسحقها

الصلبة النكداء ، وأنهت إليّ وهي تحرك منظارها أن « سنية » تطلبني ،

وما لبثت أن خرجت دون أن تعلم متى الجواب ، فانتظمتى رعشة ،
ولكنى تما لكنت وقت إلى « سنية » .

دخلت وأنا أنكف هدوء البال ، والظهور بما هو مألوف .

وما إن رفعت إلى « سنية » عيني ، حتى لاحظت في عينيها شيئاً لم
أعهده منها ، وتقدمت إليّ أحييا ، وأردت أن أجلسَ منها عن كسب .
فطلبت منى في نبرات يشوبها اختلاج أن أتخذَ مجلسى على طرف
السريّر ، وكانت قسماك وجهها يبدو عليها الامتقاع ، فتصنعت الهشاشة
والابتسام ، وجلست حيث أرادت ، فأطالت التحديق فيّ ، وغشيتنا
صمت برهة ، وبدأ علىّ شيء من الخسيفة ، ثم رأيتها وقد راجعتها
طماً ليتتها تمسك يدي بغتة ، وتقول صريحة اللفجة :

لأنهم يريدون الإيقاع بك عندي ا

— من ؟

— الأشرار ... ولكنى لا أصدق عما يقولون شيئاً ... يا لله من .

الوشايات ا

وظلت ترنو إلىّ ، ثم استأنفت تقول في صراحة لهجتها :

أيمكن أن أصدق أن ثمة علاقة بينك وبين زوجى ١ ؟

فصحت على الأثر مهتاجة : علاقة ؟ بينى وبين زوجك ١ ؟

ففضاحت قائلة :

اسمعى ما هو أعجب ... علاقة كالللاقة التى كانت بينك وبين أبى ا

فوجدتنى أعطى وجهى ييدى مهمة : أبهذه اللهم يرموننى ؟

— لا أصدق من هذا حرفاً .

فاندفعت ألشج نشيجاً حاراً ... ولا أدرى كيف بكيتُ ؟ ...

ولا أدري لماذا بكيت ؟ .. ولكننى بكيت حقاً بكاء انهمرت فيه .
دموعى ... ورأيت « سنية » تحتضنى حانية ، وهى تقول :
قلت لك لا أصدق ... ولن أصدق .

فأجبتها على الفور :

مهما يكن من أمر فقد أصبحت أشعر بحرج فى المقام بهذا البيت ..
— ماذا تقصدين بهذا القول ؟

فربت يدها وأنا أقول : يجب أن أرحل ... يجب ... يجب !
— أتركينى ؟

— « سنية » ... لا تنسى أن المسألة تتعلق بشرفى ؟

— كأنك تريدان أن تقيمى لمكايد الأشرار وزناً ...

— اسمحى لى بأن أرحل .

— بل امكثى ... امكثى ... يجب أن نردّ مكاييد الأشرار بأن .

نهملها ، فلا تلقى لها أذنأ صاغية .

وأقبل الخدم بطعام « سنية » ، وكانت بينهم « الدادة شيرين » ، ..

وأحسست بها تنحسّ عينها عفى ، ولكنى لاحظت أنها تخالسنى نظرات
نفثاذة مفسّرة .

وآثرت أن أشرك « سنية » فى طعامها ، حتى لا تجمعمنى « بشرى » .

مائدة الغداء ، واجتهدت أن أجاذبها أشتات الحديث ، وأن أبادلها

المرح على مألوف العادة ، ولكن « سنية » كانت تغلو فى عاطفتها نحوى .

ففهرتني بحجة جيّاشة ، كأنها تريد أن تشعر من حولنا أنها لا تستمع

لشائعات السوء ! ...

مر "يومان حَرَصْتُ فيهما على أن تكون علاقتي بـ" شريف ،
علاقة عابرة لا شيء فيها .

وعدت إلى تناول الطعام معه ، بيد أننا لم نكن نطيل جلسائنا
لشرب القهوة والتدخين .

وفي عشيّة اليوم الثالث كنت في شرفة حجرتي جالسة ، وقد
أحسست وطأة هم ثقيل عليّ ، وعادت بي الذاكرة إلى أيام "الباشا" ،
ومجالسه الطيبة في تلك الشرفة معي .

وطوّحت بي الذكريات هنا وهناك . فأسلمتني إلى نشوة ،
فأطبقت جفني أسبح في دنيا من الأحلام ...

وخيل لي أنني بين ذراعيه القويّين تهصران خصرى ، وكلمات
الحب والهيام يطرب بها سمعي ، وكأنني أسمع صوته الحنون يقول :

أحبك يا "سلوى" !

وانتابتني رجفة ارتجت لها أوصالي ، وفتحت جفني ، فإذا بي بين
ذراعي "شريف" ، يحضنني في شفق واشتياق ...

ونظرت إليه مأخوذة ذاهلة ، وحاولت أن أتخلص منه ، ولكن
ذراعيه لم تدعاني أفلت ، فوجدتني أترأخي وأطبق جفني ، وعاد يطرب
سمعي ذلك الصوت بترنيمته :

أحبك يا "سلوى" ... أحبك ! ...

فاختلطت على المشاعر ، فلم أعد أتبين حقاً : أنى يقظة أنا أم فى منام ؟
وما استيقظت فى غدى ، وفكرت فيما طواه الليل بينى وبين « شريف » ،
اعترتنى همزة شديدة ، ونهضت فزعنة من الفراش
أستكر زللتى ...

أحدث ذلك منى على قيد خطوات من مخدع صديقى ؟
اورتديت ملابسى بسرعة ، وما إن أثمت ارتداءها حتى قصدت
إلى « مدموازيل شانتل » ، وأخبرتها بأنى منصرفة لزيارة « حمدى » ،
وقد أغيب عن المنزل يوماً أو بعض يوم .

رجعت إلى بيت والدق ، فاستقبلتني الحبشية ، وأعلبتني أن والدق على سفر ... فأويثت إلى حجرقي مكدودة ، وارتيمت على السرير حائرة القموى . ولما رجعت والدق من سفرها المزعوم لم أجد بشداً من أن أفضى إليها بسوالمح بما كان من أمرى مع « شريف » ، فأصغت إلى في اهتمام ، وجعلت تستزيد منى وتستوضحنى ، وفي خاتمة الحديث ، قالتلى وهى تنفث دخان لفافتها كأنها تستعرنى بأنها ذات فطنة وبصيرة تدرك بهما كل شئ :

لقد قلت لك يا د سلوى ، ومازلت أردد : إننا نستطيع أن نتهلى بالرجال دون أن ينالوا منا سمناً ...

فابتسمت فى تحسّر ، وقلت لنفسى أناجيبها : أيتنا الذى ينهلى بالآخر ؟ ... وظللت سجيئة البيت أياماً لا أرى به ، يضيق صدرى بكل شئ :
بوالدق ، « بسنية » ، « بشريف » ، « بحمدى » أيضاً ... وكان قد مضى أكثر من عشرة أيام لم أزره ، وكلما نطرت لى زيارته أحسست عبثاً يشاقل على كتفى ، فأوجل الزيارة من يوم إلى يوم . وكلما امتدّنى الوقت ازددت ضيقاً وتبرّماً بحياتى جميعاً .

ورأيت « شريف » يدخل على فى ساعة بلغ فيها احتياج نفسى أشدّه ، ففهمت أن أصبح به أن اخرج ، ولكنه تدانى منى فى ترفق ، وظل يعاتبنى فى لهجة لسيئة ناعمة . ويسائلنى : كيف انقطعت عن زيارة « سنية » هذه الفترة ، وهى دائبة السوالى عنى ؟ وانطلق يتحدث إلى

أشتاتاً من الأحاديث في مودّة ومصافاة أشعرتني بطمأنينة وارتياح ،
فسرعان ماسرّني عني ، حتى لأنه لم يكذب يعرض عليّ الخروج معه للزهوة
حتى وافقتّه بلا تردد . وانصرف بي في سيارته إلى مصر الجديدة ،
تنزه ... ثم تركنا السيارة إلى مشرب ، فتناولنا الشاي ، وقضينا وقتاً
بهيجاً أضفى عليّ الألس والانشراح .

وداخلني إحساس غريب يدفعني إلى أن أحفظه بـ « شريف » فلا
أفرض فيه ، فنحنه كثيراً من تودّدي له ، وليناسي إياه ، وراح هو
يغنى عليّ عواطف الحب والهيام .

ولقد نمت هذه الليلة نوما هادئاً ناعم الأحلام ، وفي الغداة ألفت
نفسى يقظة مرحلة مدفوعة بجمرة وأثرة إلى حب الحياة والتطلع إلى
مبايهاها ، والرغبة في العبّ من متعها جهد الإمكان .
وانصرفت الأيام ...

وتوثقت علاقتي « بشريف » ، توثقاً أذكرني علاقتي بـ « الباشا »
المرحوم ، وخيل إليّ أن هذه الحياة التي أحيّاها مع « شريف » ليست
إلا امتداداً لتلك الحياة السالفة !

وكان بيت والدتي دائماً عش الغرام بيني وبين « شريف » ، ولم يعد
خافياً عليّ أن والدتي تمهد لجلساتي معه وتفسح لها المجال ، وكثيراً
ما امتدحت لي « شريف » وأطرت خصاله ... وقد تعددت حفلات
الغداء التي كنا نقيمها له ، أو التي كان يتولاها هو في بيتنا ، على الأصح !
وعاد الرخاء القديم يرف على البيت ... واستطعت أن أوّدي نفقات
المصحة دون تعسر ... وأقبلت على زيارة « حمدي » في اهتمام ، أحمل له
ألواناً من الطعام والفواكه والهدايا ... واستأنفت زيارة « سنية »

وأنا لا أحس من نفسى أية غضاضة ، بل لقد كنت وأنا أقف أمامها
أحس فى دخیلة نفسى بشىء من الزهو والاعتزاز ، فأطیل لىها النظر
أحاول الاستمتاع بذلك الشعور الذى یحیا بین جوانحى ...

وكانت « سنية » قد نعتت من مرضها ، واسترجعت صحتها ،
فكنا نخرج - ومعنا « شریف » - إلى المشارب والمراقص ، نقضى
سهرات ملؤها الصفاء

وتبین لى أن عاطفة « شریف » نحوى تزداد على الأيام وتتوهج ،
ولم أعد أحس معه الهیبة والتحرز اللذین كنت أحسهما مع « الباشا » ،
قبله ، فارتفعت بیننا الکلفة ، وأصبحت جرئته علیه فى مطالبى إلیه ،
فما كان یأبى علیّ من شىء ، وكلما أوغلت بنا الأيام ازدادت جسارة ،
وازداد هو استسلاماً وطاعة .

وكانت « سنية » تشهد ما أنا فیه من رفاهیة فى الثیاب والخلی
فتتفحصنى بعین لا تخلو من تساؤل ، وبدا لى أنها تلاحظ زوجها ملاحظة
أشبه بالرقابة حین یکون معى ، فأراها قد اعتراها سهوم وانقباض ،
ولسكن موجة الأحادیث التى أثیرها معها ، كانت ترد عنها سهوكمها
وانقباضها .

وكنت أعنى فى بعض الاحیان بأن أحدثها عرضاً فى شأن السر
الذى شعلنا بعد أن فرغنا من أداء الديون ، فأجدها قد عادت إلى
طمأنینتها ، آخذة بیدى ملاطفة ، كأنما هى تستغفرنى بما رمتنى به من
أسواء الظنون .

تفرغتُ والدتي لحياتها الخاصة لا يعنينا من أمرى إلا أن تسليق
 ما تستطيع سلبى إياه من مال ومتاع... ولاحظتُ عليها أخيراً إفراطها
 في الشراب ، حتى إنها ما كانت تطيق الصبر عن الكأس وهى فى الدار .
 وازدادت فى عيني بشاعةً وابتذالا ، ولطالما وقفتُ أمامى فى
 حلتها الزريرة وبين أناملها لفافة التبغ تلوح بها بئس ويسرة ، وأنفاسها
 المخمورة تهبُّ على كريمة فتتمثل فى خاطرى صور الغايات
 المتبدلات فى أحط دركاتهن وأرذل مراحلهن !
 لقد كانت تقف تجامى قائلة :

حمد الله ... إلى أديت نوكى واجبى على أتم وجه ... إن ضميرى
 من هذه الناحية مرتاح كل ارتياح ... اعترف لى بهذا الفضل ...
 وساءت حالتها الصحية ، فأزمتها الدار ، وشاع فيها الشحوب
 والهزال . وكانت فى هذيانها المخمور تردد :

يقول الطبيب إلى مريضة بالسكر ... قاتله الله ... أريد أن يحرم
 على تناول بعض المقويات التى لا بد منها ؟ ...

ثم ترفع بيدها الراحشة الكأس إلى فمها فتفرغها صائحة :
 أى ضرر فى أن يقوى الإنسان جسمه بهذه الجرعات الخفاف ؟ ...
 أحس بأن صحى تتقدم ... سأعيش أعواما بعد أعوام ... سبرى ذلك
 الطبيب الأبله كيف أدفنه بنفسى ؟ !

وفى هذا اليوم أصيبت بإغماء شديد ، وحينما أفاقت لومت مخدعها

وبقيت فيه أياماً لا تقرب الشراب ... وعند ما أحست بعض التماثل
أزمنت الخروج ، فقلت لها : إنك مازلت متوعدة .

فأجابتنى وهى على أهبة الانصراف :

إنى ذاهبة إلى وكيل الأعمال . الحياة يا بنية تتطلب الكفاح ...
ماذا تريدن منى أن أصنع ؟ ... لولا هذا الكفاح لما استطعت أن
أريبك ، وأن أنشك هذه التنشئة التى بها تعزين ... !

ومضت لا تأبه لشيء ...

وعلى الرغم من أنها كانت تردد على مسمعى صلتها بوكيل الأعمال
فإنى لم يكن لى شرف معرفته أو التحقق من وجوده على الإطلاق .

وفى ذلك اليوم لقيت « شريف » ، وقضينا معاً خارج المنزل وقتاً
هنيئاً ، وعند عودتى بعد انتصاف الليل وجدت الحبشية تنظرنى فى
الردهة ، فلما دخلت اعترضتنى بوجهها الجهم الصامت الملاح .

فقلت ، وقد أوجست خيفة من انتظارها إياها على غير العرف : خير ؟

فأجابتنى وهى فى جمودها المعبود :

كله خير ... لقد نقلت الست والدتك إلى القصر .

— القصر ؟ ... مستشفى قصر العيني ؟ ...

واستطعت أن أعلم أن والدتى سقطت فاقدة الرشد فى إحدى
الحانات ، ورأيت الحبشية تزايل الردهة تاركة إياى فى عباب من الحيرة
والاضطراب ، كأنها أدت واجبها ، وأصبحت لا يعينها بعد ذلك شيء !
وألقيتنى أهرع إلى « شريف » ، فأنهيت إليه الحادث ، فأسرع معى
إلى مستشفى قصر العيني ، ولما وصلنا إليه علمنا أن أمى قد فاضت
روحها منذ قليل . فبادلت « شريف » النظرات ، ثم وجدتني أنخرط

في البكاء ، وهو بجاني يواسيني .
وعلى " أن أعترف بأن هذا البكاء لم يمتد وقته ، فسرعان ما انضب
الدمع في عيني ، وخرجت مع " شريف " في السيارة عائدين إلى منزلي
قلبا دنونا منه أحسست بدافع كثيب يخيم على " . ولم أستطع النزول
من السيارة حين وقفت بالباب ، وهممت :

إني خائفة !

— لا عليك... تعالى فاقضى الليلة عندنا .

فلم أجد إلى الممانعة من سبيل .

وفي الصباح شملتني " سنية " ، بعطف بالغ ومواساة كريمة ،
وأرادتني على أن أبيت معها في حجرتها الخاصة .

ومكثت على ذلك بضعة ليال ، كانت " سنية " فيها مثلاً نبيلاً
للرقة ولين الجانب ، حتى إنني في بعض فترات وحدتي كان يعطيني
طائف من توبيخ الضمير ...

وفي اليوم الذى رجعت فيه إلى دارى ، لحق بى « شريف » قائلا :
ماذا أنت معتزلة أن تفعل ؟

— لاشئ ...

كيف...أتحيين معتزلة فى هذا الوكر الموحش ؟

— سأروض على ذلك نفسى ...

— لن يكون هذا . لقد دبرت الأمر منذ قضت والدتك نحبها .

— أى تدبير ؟

فأخذ يبدى قائلا : تعالى معى .

وانصرف بى إلى ميدان « سليمان باشا » وصعدنا أحد صروحه ،
ووقفنا أمام شقة ، فقال لى وهو يضغط الجرس :
ألا تروك هذه المنطقة ؟

وانفتح الباب ، فخرج منه غلام يلبس البياض ، ويلف على خصره
مطافا أحمر ، وهو يمشى لمقدمنا بوجهه السطح ، ويقول مرحباً :
تفضلا ... أهلا وسهلا ...

ووجدتنى أحجب « شريف » داخل الشقة نجوز بحجرها .
وسمته يقول فى لهجة حانية : ماذا ترين فى مسكنك الجديد ؟
فتلفت حولى مغتبط بما أجد ، ورنوت إليه رنوا شكر ، وماهى
إلا أن ألفتى أرتبى فى حضنه ، فطوقنى بذراعيه .
وتولى « شريف » بيع دارنا العتيقة ، وتصفية ديون والدق ،

وبدأت في مسكني الجديد حياة جديدة طيبة . وكانت الحبشية مع الغلام ينهضان بالخدمة على اختلاف ضروبها خير نهوض .

وتنالت الأيام وأنا أستمري تلك السعادة الشاملة ... ولكن أكانت حقاً سعادةً خالصة من الشوائب والمنغصات ؟ أية سعادة هذه التي أبقي صرخبها على أنقاض سعادة أخرى لشخص من أكرم الناس عندي ، وأعزهم عليّ ، لم يسلف إليّ إلا كل جميل ، ولم يكن لي منه إلا محض إخلاص ؟

كان د شريف ، يقدم عليّ بعض الأحيان ، وأنا ساهمة تعتلج بين جنبتي هذه الحشرات ، فكنت أرفع إليه بصرى قائلة :

لن تطول بنا هذه الحال !

فيجلس قبائي ، وعلى وجهه سمات الطمأنينة ، ويقول في ثقة ويقين :

أنت شديدة الوسواس !

— يخيل إليّ أني أسمع أفواه الناس تنفث حوالى "سموم الكراهة

والمقت ، وأرى عيونهم ترمقني بنظرات الزاوية والامتهان !

— أي مقت وأي امتهان ؟ أو هام وخيالات ليس لها من وجود !

— ليس في مستطاعني أن أمدّ هذه العلاقة التي ألمح فيها شبح

الجريمة والعدوان ...

— ليس ثمة من عدوان ولا من إجرام ...

ثم ينظر إليّ بعين الوالد المتيسّم ، ويحدّق في مشغوفاً ، ويقول :

لأنه الحب ... الحب يا د سلاوى ، ! ... كل شيء في سبيله مباح .

وكل ذنب من أجله مغفور ! ...

ثم يأخذ بيدي وينهال عليّ تقييلاً ، وهو يتابع قوله :

أحبك ... أحبك يا د سلوى ، ... ولن أفترط فيك أبداً .

— ولكن يا د شريف ، .

— أترضين أن تتخلى عني ؟ أمطاولك على ذلك قلبك ؟ أتقضين

على سعادتي وتهدمين أملى كله في الحياة والوجود ؟

ولا يطول بنا الحديث حتى أجدني قد اندججت معه في نسيان عاطفة

تذهلني عن كل شيء .

وكان يعاودني أحياناً هذا الزهو الأليم ، وتلك العاطفة الخاطئة التي

أحسها نحو «سنية» ... زهو انتصار الخلية على الزوجة ، وعاطفة تبرم

المرأة بمن تراحها في قلب رجلها !

ولأنه لينحلي أن أصرح بأنى كنت أقف أمام صورة «سنية» ،

أحدجها طويلاً ، وكأني أخطب نفسي :

ألا تستقرى الحال ، وتصفو لى السماء ، إذا رحلت صاحبة هذه

الصورة إلى عالم آخر ؟

أليست هذه الآدمية هى العقبة التى تحول دون أن يعلن «شريف»

حبنا ، فنعيش فى وضخ النهار زوجين ، بدلا من أن نعيش فى مسارب

الظلمات ، نخفى وجهينا عن مساقط النور ؟ !

لم لا تدعنا هذه الآدمية النكداء ؟

لم لا تنفس لنا الطريق ؟

إن «شريف» لا يضر لها ذرة من الحب ، وإنما يخلصنى بخاص

حبه ، وكامل قلبه !

لم أَدعُ ، حمدى ، فريسة النسيان ...

فقد كنت أزوره في فترات متباعدة . وكنت أحلُ هم زيارته عبثاً
ثقيلاً ، ولكنى مع ذلك لم أكن أجِدُ عنه حبصاً على أية حال . فأذهب
إليه محمّلة بالهدايا من الحلوى والطرف ، ولا أمكث معه إلا قليلاً
من الوقت .

وقد أخفيتُ عنه نبأ وفاة الباشا ، ولكنى أعلمته بنبأ وفاة أمى
فى أول لقاء ، فاضطرب اضطراباً بالغاً ، واندفع ينشجج كالأطفال ،
ثم أخذ يهيمهم :

يرحمها الله ... يرحمها الله ... ويسامحها ... إن ضميرى مرتاح ...

لم أسمى ، إليها قط !

وكان حمدى ، لا ينمى فى كل زورة أن يتفحص حلى وزينتى ،
ملقياً عليها نظرات قلقة حيرى ، ثم لا يلبث أن يسألنى عن الباشا ،
ومبلغ اتصالى به . فكنت فى بعض الأحيان أجده حافزاً يحدونى أن ألق له
أقاصيصَ عن دعوة الباشا ، إياى إلى الغداء أو الشاي ، وأرائى أقول
له فى استقزاز :

وهل فى ذلك بأس ؟ ألا يحمل بى أن ألبى دعوة صديق كريم
يتعهدنا بيرة وحنانه ؟

فيعبث حمدى ، صامتاً بملاءة السرير عبثاً يكشف عن احتياجه
ثم يهيمهم فى اختلاط :

وهل أنكرت عليك شيئاً ؟

وقد يحاول أن أزيد في استفزازه ، فأمضى في وصف مجالس
« الباشا » الطيبة ، وأمتدح شخصه ، وأتغنى بأفضاله ...
ثم أتركه لشأنه ...

يا للعجب ...

لم أردت إثارته ؟ إثارة ذلك الهيكل المحطم الذى لا حول له
ولا طول ؟

لأنها بواعث بجهولة تدفعنى إلى هذه الحماقة ، أجد لها في نفسى لذة
واستجابة ، ثم أنقلب ساخطة غضبى يشيع بين جوانبى وخز وتبكييت ،
فأفكر في العودة سريعاً لاسترضائه وملاطفته بالهدايا والطرف !

على أن زيارات « شريف » المحببة كانت تطير من رأسى هذه
الافكار ، فلا أعود أشغل نفسى بـ « حمدى » وبما كان منى إليه ، حتى
لقد يطلب إلى بعض الأعوان في المصححة الاتصال بـ ، يدعونى إلى
زيارته ، فأسوف وأكرر التسويف ...

تقضت أشهر ...

إنها لأقدار عجيبية تلك التي ترمى بي إلى هذا المصير ...
حقاً إننا لا قبل لنا بمقاومة تلك الأقدار ، ولكن ألسنا نحن
مسؤولين عما نقترف من ذنوب ؟ أليس في اتهامنا الأقدار تملص من
محكمة للضمير ؟

عشت هذه الأشهر في أمواج متلاطمة، أرى نفسي أرسب وأطفو
طوعاً لتدفع هذه الأمواج ، لا أملك من أمرى شيئاً ... كنت أحس
أنى في مهب عاصفة عاتية تطوح بي ، حتى تسلم رأسى إلى دوار عنيف.
لست خاطئة بالقدر الذي يبدو ، أو لست على الأصح خاطئة
وحدى ... أليس « شريف » شريكى ؟ أليس هو الذى كان يدفع بي في
تلك الغمرات ؟ ... ولكن لم ألوم المسكين ، وقد كان في ذلك محدوا
بعاطفته المشبوبة وحب الفوار ؟
لا خاطيء سوى ...

يا الله ... شد ما أنا بغيضة كريمة !

لست أدرى كيف تمت هذه الأحداث الجسام في هذه الأشهر ؟
وعلى أى وجه رتبتي ؟ وهل كان في المكنة تلافيها ؟
إنى إذ أعرض الآن في خاطرى هذه الأحداث ، تعرفون هزة
كهزة للمقروور ...

رباه ... غفرانك ، غفرانك ... فقد عظمت خطاياى ، وليس لى

من عاصم سواك ..
قدرت يارب على أن أكون هدفاً لهذه الخطايا ، وأنا الضعيفة .
المهيضة الجناح التي لاحول لها ولا قوة !
فيم يارب هذا العذاب الذي أصب عليه ؟
أيكون تكفيرى عن تلك الخطايا هو حكمتك السامية فيها قدرته
على من غواية وبغى ؟ ...
إنى لأحس وأنا أجاهد فى سبيل التكفير براحة نفس وطمانينة
خاطر تعينى على أن أحتمل تعاسة الحياة وثقلها غير ضجرة .
ولا ملولة ...
إنه حقاً لشعور جديد على ، ذلك الشعور الذى أجده وأنا أحاول
أن أخرج من الهوة التى تردت فيها ، أن أغسل عن ضميرى تلك
الأوسار التى رامت عليه !
إن هذا لمجهود شاق ، ولكن اضطلاعى به عمل عظيم !
قضاء يارب قضيته على ، غذى يدي ، واحمى من نفسى ، واجعلنى
أستطيع أن أنهض من كبوتى ، وأن أرفع هامتى . وأن أكون من
الزلال بمنجاة ...
هأنذى أروى ما كان من تلك الأحداث الجسام :

... كانت علاقتي و بشريف ، تتوثق وتتوطد ، وكلما طالت هذه
العلاقة وامتدت بها الايام ازداد بي تعلقاً و هيأما ...
و كنت أحس في دخيلتي ميلاً إلى استغلال هذه العلاقة ، فأثقل و شريف ،
بالوان المطالب ، ولكنه لم يتقاعس ولم يقصر ، وكلما أوغلت في
الطلب انصاع واستسلم غير حاسب حساباً لشيء .
لم تكن مطالبتي تقف عند حد ، بل لقد تحولت شهوة الطلب
عندى إدماناً و شرها لا أهلك عنه نكوصاً . فكان مثلي كمثل السكير ،
كلما عبّ ازداد إلى الخمر ظمؤه ، غير عابئ بشيء .
وتبين لي أن و شريف ، تذوق المائدة الخضراء ، ولذت له المقامرة
طلباً للبال ...

ولقد ظفّر باديء بدء ببعض الكسب ، فتملكته شهوة اللعب ،
وفقد سلطانه على نفسه ، وانبرى يقامر ويقامر ، فتورط في خسارة
فادحة ، ومالبث أن بدت عليه متاعب وآلام .
وبدأت صلتى « بسنية » يدركها شيء من الجفوة والفتور ، فكثيراً
ما أبت أن تخرج معنا إلى المشارب والمراقص ، وإذا رضيت أن تصحبنا
فضت وقتها صموتا متجهمة ، تنقل بصرها بين زوجها و بيني .
وحدث مرة أن كات و سنية ، معنا وقد كرّر و شريف ، رقصته
معي ، فلما عدنا إلى المائدة وجدت و سنية ، بمتعة شاحبة الوجه ، تحتلج
شفتاها ، وتضطرب أوصالها .

وما إن بدأنا نأخذ في الحديث حتى رأيتها تهبّ واقفة ، وتضرب بالمنضدة قائلة :

لن أحتمل فوق هذا .

ثم أجهشت بالبكاء دفعة واحدة ، وهي تدمدم موجهة إلى القول :

ما أنت إلا أفعى ! ما أنت إلا أفعى !

وهبّ شريف ، يتدارك الموقف ، ويهدئ من روع « سنية » .
ولكنها اندفعت تصخب وتسب وتبكي ...

وترامت حولنا أنظار الجميع ، وأخذوا يستدانون منا ، ورأينا غلبان المرقص يتسابقون ليتبينوا الأمر .

وراحت « سنية » تصيح بي :

اخرجى ... اخرجى ... لا ترينى وجهك !

ثم اشتدت بها النوبة ، وما كادت تسقط مغشياً عليها حتى تلقاها « شريف » بين ذراعيه ، وأخذ يعالج شأنها .

وشعرت بأن موقتي بلغ غاية الحرج ، ففسلت والاعين تنتهينى ، واستطعت أن أستأجر سيارة إلى دارى .

سهرت هزيعاً من الليل ذاهبة آية كالحبىس فى قفص يتردد فيه
ويتلدد ملتصقاً بالخلاص . وكنت مرهفة سمعى لكل خفقة أو حركة
حولى ، أتوقع مَقدم وشريف .
وانصرم الليل ولم يظهر له أثر .

وانقضى النهار بعده دون أن يحضر ، فجنّ جنونى ، ولكن لم أجد
بدأً من ملازمة مخدعى ، فتمدّدت على المقعد الفسيح ، أنفث دخان
اللقائف واحدة إثر الأخرى .

وبينا أنا على هذه الحال ، وقد أظلنى الليل ، إذ بدا شبحه يتخايل
فى القاعة ... دخل صامتاً كاسف الوجه ، واتخذ مجلسه عن كُتب منى ،
لا يتفوّه بلفظ ، فرمقته بنظرة غضبيّ ، وقلت :

لماذا جشمت نفسك متاعب الحضور ؟ كان عليك أن تتم فصول
الرواية ، فلا تعرف الطريق إلى ببقى !

والفيتها ينهض صامتاً فيأخذ زجاجة البراندى ، ويضعها أمامه ،
ثم يملأ منها كأساً بعد كأس . وسمعته يهمهم :

لم أكن أتوقع أن يحدث ما يحدث ... إني لأسف على أية حال !
فازددت اضطجاعاً على مقعدى ، وجعلت أهرق دمي ، وقلت وأنا

ألهو بلفافة التبغ بين إصبعي : فيم أسفك ؟

— إن « سنية » مختلة الأعصاب ... يجب أن نعذرهما مهما يكن
من أمر ...

— أحسبك تريد أن تقول إن عليّ أن أعفر وجهي بالتراب عند موطئ قدميها...!

— ما هذا التفكير يا «سلى»؟
— أليس لي أن أفهم من قولك أني أنا المخطئة في حقها؟ ...
فتاه نظره لحظة في أفق الحجرة، ثم قال:
كان يجب أن نتفادى بما حدث ...
— أكان عليّ أن أتفادى منه؟

— إن الذنب ذنبى... وإنى معترف... إلى الألفى عناء في سبيل إصلاح ما حدث... وأرجو أن أوفق في مسعاه... مرادى ألا تسمى «سنية»، الظن بنا...

فرفعت إليه هامتي، وحدجته بنظرة قائلة: أنت بهذه المخلوقة جد مهم، وأنا في رأيك لا أستحق منك قليل اهتمام. لقد أشقاني تمثيل هذا الدور الذى أقوم به... أشعر بأنك لا تقيم لكرامتى وزناً... إنها الزوجة لها عليك كل الحقوق، أما أنا... فمن أنا؟
فأقبل على قائلاً: أنت كل شيء!

فددت يدي أنحيه عنى وأنا أقول: أو هام... خذع... لاصبر لي بعد اليوم... إن الناس يظنون بنا الظنون، وهذه «سنية»، لم يعد الأمر عليها خافياً... لا بد أن نضع لهذا الموقف حداً.

— ماذا تريد منى أن أفعل؟
فقلت، وقد علوت بهامتي: أن تختار بيني وبينها.
— «سلى»، أتبتدئين؟

— لا أطيق أن أحيا معك هذه الحياة في جنح الظلام، وإنى

لا أرضى لنفسى هذه المماناة ...

وشعرت بحمية وحماسة تتقدان في صدرى ، فصحت :

طلقها ... طلقها ... وإلا فدعنى وشأنى .

ووجدته يذرّح الحجرة مضطرب الخطا ، وهو يهمهم بكلمات

لم أستب منها شيئا ...

وبعد لحظة قلت :

إنها كلمتى الأخيرة ، إنه قولى الفصل ... فاختر لنفسك ما يحلو !

فانتبذ فى الحجرة مكاناً حل إليه زجاجة البراندى ، وأخذ يكرع

منها كأساً بعد كأس .

فقممت إليه وأنا أقول : أجبني : علام عولت ؟ وماذا أزمعت ؟

فومقني بعين محتقنة ، وقال : دعيني ... لا تريدنى بلائى !

— لست أنا الذى أزيد بلاءك ، وإنما أنت الذى تصب على وعلى

نفسك أشد البلاء !

— لست وحدى المسئول عن هذا كله .

— أنا المسئولة إذن ؟ ...

— على أية حال لا بد من إصلاح الأمر .

فصحت ، وأنا أضرب الأرض بقدمى : بل لا بد من الطلاق .

فأرسل إلى نظرة حادة ، وهو يقول : ليس هذا بمستطاع .

— إذن ... دعنى ... لا أطيق أن أعيش مع رجل مثلك خائر

الإرادة ، واهى العزم ، خنوع .

— أنا خنوع لا إرادة لى ولا عزم ؟

فاحسست الثورة تهب أعاصيرها على لسانى ، وصحت :

بل عرييد... مقامر... سادر... هيات أن تصلني بك علاقة !
فنهض يصعد في بصره . وقال :

أتعلمين حين أتركك ماذا تلقين ؟ أتدركين أى مصير إلية تساقين ؟
— ليس من شأنك أن تهتم بما ألقى ، وبما يصير إلية أمرى .
— يلوح لى أنك بعد أن امتصصت دمي تبغين البحث عن
صيد جديد !

— أتحسّر على أن تنطق بهذا الهراء أيها السفيفه !
ورفعت يدي أريد أن أهوى بها على صندغه ، فأمسك بها في
عنف وخشونة ، وهو يحدجني بنظرات مفرقة حديداد ، ودفع بي دفعة
شديدة ألقتني على المقعد ، وقد امتلأ قلبي رعباً ...
ثم غادر الحجرة عجلان لا يلوى على شيء .

أمضيت ليلة نكدة ساهدة الجفن ، قلقة النفس ، لا ترقأ لي دمة .
وفي الغداة ، وقد عاودني شيء من الراحة والهدوء جعلت أعرض
ما كان من أمرى مع « شريف » وما تداولناه من حديث ، ففجبت من
نفسى : كيف اتخذت هذا الموقف في غير لباقة وحكمة ؟

كيف أردته على طلاق « سنية » فوراً بلا تدبير ولا تقدير ، وأنا
أعلم علم اليقين أن ليس إلى ذلك من سبيل ؟ ...

إن « شريف » لا يملك إلا مرتبه الشهرى المحدود ، وما ترفه الذى
يعيش فيه إلا من فضل مال « سنية » ، فأنى له أن يخلق هذا الباب في
وجهه ؟

إن طلاقها لن يكون كارثة عليه وحده ، بل هو كارثة علىّ أنا أيضاً
يبدو لى أن الحل المنطقى المعقول أن يبقى « شريف » لزوجته خالصة ،
وأن يفصل عنى ، فأعود أنا إلى كنف زوجى ...

ولكن أى زوج هذا الذى أعود إلى كنفه ؟
لأنه ليس إلا خروقة آدمية يسرع إليها البلى
بيد أنه زوجى الذى اختارته لى الأقدار ، فكيف لى أن أتركه ؟
إن الحياة أمامى غائمة غبراء ، غيرى يستطيع بمثل تلك الشخصية
وذلك الشباب أن يستوفى حظه من المتع والمباهج ، غير عابء بشيء ...
أليس لى حق العيش ؟

أليس لى أن أستكمل فى هذه الدنيا سعادى ؟

أليس...؟

ولكن أمستطيعه أنا أن أفعل؟ ولم لا؟

غير « شريف » من الناس كثيرون يسعدهم أن أنيلهم حتى ، ليس على إلا أن أوميء وأن أختار...!

وكنت أمام المرأة ، فأخذت أتطلع إلى خيالي فيها ، وكان وجهي مكدوداً وعيناي تحيط بهما هالة سوداء ، وخيل لي أن الفضون قد بدأت تعرف طريقها إلى قسباتي ...

وأحسست بأن الوجه الذي يطالني في المرأة ماهو إلا وجه أمي ، ذلك الوجه الذي نسجت عليه حياة السمر وعبث الهوى وإدمان الخمر آثاراً لا تملك عوها المساحيق والأدهان .

واختلجت اختلاجة شديدة ، وهويتُ على مقعد أعطى وجهي يبدى ، وأحاول أن أنجي عن خاطري صورة تلك الأم ، وهي في أخريات أيامها تعاني الاضمحلال والتدهور في أشنع مظاهره . واستبدت بي نوبة بكاء ...

وقبيل الظهر من غدى أقبلتُ علىَّ الحبشية ، تخبرني بأن سيدة
حضرت مبدية رغبها في لقائي ، فأجبتها ضيقة الصدر :
لا ألاقى أحداً ...

— إنها تلح ...

— قلت لك لا سبيل إلى أن ألاقى أحداً .

وماهى إلا أن رأيت شبح «الدادة شيرين» تدخل الحجرة متحاملة
على عكازتها بخطواتها المتهدمة تكاد تتعثر . وقالت :

بل يجب أن تلقيني يا «سوى» .

وانصرفت الحبشية عنا على الفور .

فقلت لـ «الدادة شيرين» مهممة ، وأنا أزور عنها بنظري :

لم أكن أعلم أنك أنت التي تطلبين لقائي ...

فجلست على الأرض قريبة مني تعبت بظرف البساط ، صامتة ،
مطأطئة الرأس ، وشاح بين جنبي القلق ، وأردت أن أقول شيئاً فأعياني
أن أفصح . وسمعتها بعد حين تقول : أتروك هذه الحال ؟
— أية حال ؟

فرفعت إلى رأسها ، وأحدثت في بصرها ، وقالت : لا تتجاهل .
وصمتنا معاً برهة ، ثم وجدتني أقول شاردة النظر :
وماذا تريد مني أن أفعل ؟
— أن تباعدني عن «شريف» ... أن تدعيه لزوجي .

— أتصدقين الإشاعات ؟

فأخذت ترمقني بنظرات شديدة ، ثم قالت :

قلت لك لا تتجاهلي ... لم يعد شيء خافياً علي أحد .

فنهضت أسير في الحجرة ... وسمعتها تقول ، وقد رق صوتها :

اقبلي يا ابنتي نصحي ... أتركي « شريف » لزوجي .

فوقفت تجاهها أقول : وهل قيدته بأغلال ؟

فجبت نحوي ، وأخذت بيديها الهزيلتين يدي ، وجعلت تردد :

أرجو منك يا ابنتي أن تسدي جيلا إلى تلك الأسرة ، إن « سنية »

أختك لك ، ولها عليك حق الوداد ... شد ما أحبتك ، وشد ما أخلصت

لك . أليس ظلاماً أن تنقسم بينكما تلك الوشائج السريمة ؟ إني لعلى يقين

من أن قلبك ما زال عامراً بعواطف نبيلة ...

وألقيتني أجلس على المقعد ، وقد تاه خاطري في آفاق شتى ،

وظلت « الدادة شيرين » تتحدث إلي بصوتها الرقيق وهي تناشدني الوفاء

والإخلاص ، وسمعتها تقول : أقسم لك يا ابنتي إن « سنية » تضر لك

حبا وصفاً ليس فوقهما من مزيد ...

— لم أكن في وقت من الأوقات أقل منها صفاً ولا أضعف حبا .

— إذن عليك أن تسدي جيلا .

وأسندت رأسي إلى راحتي ، وأناشادة النظر ، تحوم بين جوانحي

عواطف متضاربة ، وأحس في دخيلتي بتخاذل وانكسار ... ثم

وجدتني أخفي وجهي في يدي ، فإذا بـ « الدادة شيرين » تدنو مني حانية

عطوفاً ، فرأيتني أنكب على صدرها مسترسلة في نشيج وانتحاب .

ما أروعها فترة قضيتها باكية على صدر هذه « الدادة » الروم !

كان يخيّل إلى أني بعيدة العهد بمثل هذا الصدر الذي حرمت حنايته وعطفه سنين بعد سنين ، وكأني في هذه الفترة قد طويت العمر راجعة إلى الوراء ، فإذا أنا « سلوى » الطفلة تجدد في ذلك الحضن ملاذها الحبيب ومفرعها الآمين !

ولم تتركني « الدادة شيرين » حتى ذهب عني الروح ، وثابت إلى الطمانينة ، فوعدها بالألا أدخر جهداً في سبيل تحقيق رغبتها إلى .
وكنّت في ذلك الوقت صادقة النية ، حازمة أمرى ، معترمة أن أفعل شيئاً في هذا الصدد ليس لي عنه محيد .

ومرت ثلاثة أيام كنت فيها نهب الهواجس والأفكار ، وكلما حاولت أن أقوم بعمل حازم يتطلبه منى الموقف ، شعرت بإرادتي تتهافت ، فأجد نفسي متداعية حيرى لا أقوى على إقدام .
وكنّت أحس بفراغ يحيط بي ، وأتلس حولي شخصاً يعينني على أمرى ، فلا أجد إلا وحشة وانفراداً ، لا مؤنس ولا معين !

طالعى وجه « شريف » بعد مغيب أيام ... دخل الردهة حيث
أجلس ، وهو هادىء النفس مطمئن المحيّا ، كأن لم يقع بينى وبينه من
شئ . وقضيت الوقت معه على مألوف العادة دون أن تتجاذب أطراف
الحديث فيما كان ، بل تجاوزناه إلى التحدث فى موضوعات شتى من التوافه
التي تعودنا أن نزجى بها الوقت ...

وتناول معى الغداء ، ثم انصرف بعد حين .
وعلمت بعد ذلك أن « سنية » سافرت إلى « الإسكندرية » تمضى فيها
وقتاً ، وأن غيبة « شريف » عني ، مردها إلى أنه كان فى زيارتها هنالك .
ويبدولى أنه جعل من برنامج زيارته لها أن يصفى الجو بينه وبينها ،
وأن يحصل منها على نقود .

ووجدت نفسى أساير الأمور فى تبلد عجيب ...
وأقبلت على حياتى التى أحياها مع « شريف » حريضة عليها كل
الحرص ، راضية بها كل الرضا ...
وكان كلاًنا يتجنب أن يذكر شيئاً يتعلق « بسنية » ، فقد تناسيناها
عمداً ، لا يجرى لساننا باسمها فى كثير ولا قليل .

ودارت عجلة الأيام ونحن على هذا النحو ... « شريف » معى
فى « القاهرة » أكثر أيامه ، و « سنية » فى « الإسكندرية » يزورها
« شريف » فى عطلة الأسبوع ... وقد أصرت « سنية » على أن تبقى
فى « الاسكندرية » مبتعدة عن القاهرة ، أو بالحرى مبتعدة عن الجو

الذى أعيش أنا فيه ا على الرغم من أن « شريف » أكد لها أنه فهم علاقته بي وأنه لم يعد يراى أو أراه ... وكان لهذا يتحفظ فى الخروج معى ، فلا أحبه إلا إذا قصدنا الأماكن المذوية غير المطروقة ، متوسلا بذلك إلى أن يسكت السنة الوشاة ، ويغلق باب الإشاعات ، وينتقد الظواهر ...

بيد أن حياة « شريف » لم تكن فى طريق مستقيم ... فقد تهالك على المقامرة ، وأسرف فى الشراب ، قترأكت عليه المغارم ، وثقلت بسبب ذلك الديون . وكان إذا شرب فأتقل أصبحت حاله لاناطاق . حديث ثائر كله دفاع عن نفسه ، وتسوينغ لمساويه ، دون أن يكون ثمة مايدعو إلى هذا الدفاع ... وحين يحدّ فى حديثه تحتقن عيناه ، ويلتهب وجهه ، وتتكاثر عليه القضون ، ويتناثر من فم الزبد ، فيكون شبه أقرب إلى شيرير عربيده مشرّدا ... ولذلك كنت أخشاه ، وأتوخى ألا أثيره ، فأصمت مستمتعة صاغية ، وأسارع إلى تصديقه ، والموافقة على كل مايفيض فيه من قول .

وتوالى تخلفه عن عمله فى الوزارة ، وأحصى عليه إهماله لواجبه ، وجاء يوم تقرر فيه فصله ، فالتحق بعد لاي بمؤسسة تجارية ليست بذات شأن ، وتضاءل دخله ، فاشتدّ بي وبه العسر ، وكان ما يناله من « سنية » يتفاوت كمدأ وجزراً باختلاف علاقته بها حالا بعد حال . على أن كل ما يناله من مالها كان يذهب على الفور طعمة للبائدة الخضراء ...

أما « حمدى » فقد أهملته الإهمال كله ، فلم أعد أزوره ، وتكررو طلبه أن يراى ، فكنت أتتجل ألوان المعاذير ، وثقل حساب المستشفى ولم يبق فى طاقة « شريف » أن يقوم بأدائه .

وازدادت الحال على توالى الأيام سوءاً إلى سوء ، وطفق « شريف »
يرهن ما أملكه من حلى ، وتبع ذلك بيعها ... فإن ما نعت لجأ
إلى الاغتصاب ...

ولم يبق فى خدمة البيت إلا الحبشية الصابرة الصّـموت ، تلك الآدمية
الغريبة الأطوار ، هذا اللغز الذى يثير فى « الدهشة » والعجب !
وأبلغتني إدارة المصححة يوماً أن « حمدى » ، «نقل إلى الدرجة الثالثة
ليعالج مجاناً لوجه الله .

يا لله ! إنه ما برح حيناً يتنفس !
ولم نستطع الإبقاء على الشقة التى أسكنها ، ففكرتها إلى شقة متواضعة
فى إحدى زوايا شارع « محمد على » ...

وانتقلت معى الحبشية لاتفارقتى ، وظلت كعهدى بها غارقة فى
صمتها وكآبتها ووجومها ، ملتزمة ذلك الأدب المطبوع الذى يقف بها
عند حد لا تتعداه . وقد تمضى الأسابيع دون أن تبادلنى قولاً إلا
كلمتها الخالدة :

« ماذا تريد سيدتى أن أعدّ لها اليوم من ألوان الطعام ؟ »
ومكثت معى تتحمّل قسطها من أزمة الحسر التى أحياها ، دون
أن تبدى تمللاً أو شكاة ...
وكنت أسائل نفسى :

ما سر هذا الرباط الذى يصلنى بـ « شريف » ؟ إننى كلما أمعنا فى
البؤس واستبدت بنا الحاجة ازدادت به من تعلق وحرص ، وأقبلت
عليه بعاطفة جياشة ، يدفعنى نحوه هوًى كين مسكين ...
كان مثلى كمثل ذلك المريض الذى كلما أزم من مرضه وجد نفسه

أكثر ألفه له ، ولم يبذل جهداً في أن يستبدل به صحة وعافية ...
لقد نسي المريض تلك الصحة أو العافية ، أو لقد أصبح يحشاها
وبراهما أمرٌ من المرض وأقصى ...

وتعودت أن أرى د شريف ، يرجع إلى البيت في جوف الظلام
عائداً من نادى القهار منهوك القوى خامد الانفاس ، فيملأ بنفسه على
المقعد الطويل ويستغرق في خمول واسترخاء ، فأرنو إليه طويلاً
أنتفضّ قسائمه المنفصحة عن الألم والبأساء .

أين هذا الشيخ الهزيل المنقّض من د شريف ، النابر ؟
ذلك الإنسان الذى كانت تتوضح فيه سمات الرجولة والنضج والازدهار ؟
ذلك الذى كانت تتمثل لى فيه صورة د الباشا ، بعظمة صفاته ؟
كنت أرنو إلى د شريف ، وهو ممدّد على المقعد الطويل ، فإذا
الحمرة تكاد تأكل فلي ، فأدنو منه وأخذ برأسه أوسده صدرى ،
والأطف خصلات شعره حتى يواكبّه النوم فى طمأنينة وأمان ...

و ذات ليلة طرق الدار « شريف ، وهو على أسوأ حال : فكر
 شارد ، ووجهه يمتقع ، وأعصابه مستوفزة ، يتلفت مذعوراً كمن يتوقع
 داهم الشر ... حاولت أن أكتنه خفيّة أمره ، فلم يبح لي بمكنون ..
 واكتفى بأن أعلنني أنه لقي خسارة فادحة على مائدة القمار . ولحت
 رأسه يترشح من مدوار يغشاه ، فأسرعت إليه أحوطه بذراعيّ وأعني
 بأمره أشدّ عناية . وانبثق من أعماق قلبي حنان دافق ، فانهلت عليه
 أقبلة في شغف ، وعيني تتسائل منها الدموع ، فحدق « شريف » فيّ ،
 وتلاقت أعيننا وقتاً ، ثم وجدته يوسّد خده خدى ، وامتزج بدمعه
 دمعى ، والصمت يعقّد لسانينا ، فلم يحجر بيننا كلام .

وبعد حين ألفتني أقول له مهمة : حتّام هذا يا « شريف » ؟
 وراح يتوسمى طويلاً ، ثم أزاغ بصره عني ، وقال راعش الصوت :
 لن يطولَ هذا ... لن يطول !

ثم التفت يحدّق فيّ وقد ضنّط يدي قائلاً :

أتحببني على الرغم مما أنا فيه ؟

فصحت وأنا أضغّه في لهف : لم أحبك يوماً قدر ما أحبك الساعة !

فهمهم : شكرًا لك ... شكرًا لك !

— ألا تستطيع أن تفعل شيئاً تنقذ به نفسك ؟ .. « شريف » ! ..

يجب أن تفعل !

— أخشى أن يكون الوقت قد فات !

— كلا ... لا تقل ذلك ... أنا معك ... اطلب ما تشاء من عوذ
أكن طوع يمينك ... فسكر قليلا ... دبر أمرك معي .

فزفر زفرة حرّى ، وقال : الديون ... الديون يا د سلوى ، !
دائماً خسارة ... خسارة متواصلة ... هذا النحس الذى يلازمنى فى
المقامرة ... لقد أخلفنى الحفظ وأقسم ألا يكون لى يوما !
— ولم المقامرة ؟ أليس ثمة اتجاه آخر ؟ ...

— فات الأوان ...

— لم يفئت ... أين مضاء عزيمتك ؟ أين مبعدهم همتك ؟

— فات الأوان ... فات يا د سلوى ، وليس له من عود ...

وأخذت وجهه بين يديّ وأنا أهدق فيه ثم قلت : لو طلبت لى
أن أبذل نفسى وحيى فى سبيل إسعادك لما ترددت فى إجابتك .
وأطلت فى وجهه تحديق ، وقلت :

عند إلهيما واطركنى إن كان فى ذلك طريق إلى النجاة والخلاص ...
ثق بأنى أَرْضَى هذا المصير مهما يكن من أمر .

فشدت على يدي ، وكانت قسيمات وجهه تختلج ، ثم لاطف كفى
فى حنو بالغ ، وقال : لن أتركك يا د سلوى ، ... هيهات أن نفترق ...
أنت جزء منى لا انفصال له عنى ...

وشرد بصره ، ثم همهم :

إنها المعركة الأخيرة ... فأما الفوز ، وإما ...

ثم ابتسم ابتسامة هزيلة شاحبة ، وأراح رأسه على صدرى ، ورأيت
يهمس بكلمات لم أتبينها وإذا به يسجل جفنيه ، وصوته يتزايل ويودأ ،
ثم ما لبث أن طواه نعاس .

ما إن صحا «شريف» من نومه في ضجوة غدحتي أخبرني أنه قد أزمع السفر إلى الإسكندرية ، ليبذل آخر جهد في طاقته للخروج من المأزق والفكاك من الازمة ... وغاب يومين ، ثم عاد إلى ... دخل كمألوف عاداته لم يطرأ عليه جديدٌ ، ولكنه كان واضح السهوم ، مديد الصمت ... ولبثت أتوقع أن يتحدث إلى فيما كان من مسعاه في الشأن الذي سافر من أجله ، ولكنه لم يفعل . ولما ضقت بصمته ذرعاً دنوت منه أقول : رجائي أن تكون قد وفقت إلى حل مرضي .

فربت يدي ، وهمهم :

وفقت إلى حل طيب ... حل أنا عنه راض كل الرضا .
وأَمْضَى يومه في المنزل لا يريه ، وكان يطارحن الحديث بعض الوقت ، وطاب له أن يعرض معي مشاهد من عهد الطفولة وذكريات الصبا ... وقد تسنح على فمه ابتسامة خفيفة ، تم عن استسلام وسخرية ، ثم لا تلبث أن تضيق في زوايا الفضون والأسارير !
واستطرد بنا الحديث إلى «حمدي» فقال :

شد ما أنا عاق ! ... لم أزره قط ، ولكن أليس هذا خيراً لي وله معاً ! كيف أستطيع أن أزره وأن أرفع إليه بصرى ؟
— لا تلق إلى شيء من هذا بالك ... ليس في قدرة آدمي أن يغير مجرى حياته ! ... إنها الأقدار يا «شريف» تحظ لنا في الحياة مسلكاً ليس منه مناص .

فأسمعت حدقتا عينيّه ، وقال : الأقدار ١٩ لا أدرى لهذه الكلمة معنى واضحاً على وجه التحقيق ... ألهمه الأقدار وجود ؟ ...

ثم عاد يسأل عن «حمدي» في إلخاف... فقلت وقد غصضت بصرى :
إن المسكين مقضى عليه لا محالة ، فلنعمده ميتاً
فنعظم قاتلاً : كلنا موتى !

وظل تائه النظر حيناً ، ثم ألقيته يجذب يدي بغتة ، وقد التفت
حدقتا عينيّه ، وهو يقول في نبرات متدفقة :
فلنهرب . فلنهرب يا «سوى» !

— نهرب ؟ أين ؟ كيف ؟ ١٩

— لنهرب ... لنهرب وكفى !... لنهرب إلى مكان بعيد ، فنترك
خلفنا هذه الحياة الشائكة في ذلك الجو المسموم ، ونبدأ حياة أخرى
نبتى صرحها من جديد .

فقلت له في حمية : أنا معك ... مرّنى أسمع وأطع .
وتماسكت أيدينا ، وتشابكت أنظارنا ، وظللنا على تلك الحال
هنيهة ... ثم وجدت ساعدي «شريف» يترaxيان ، وسمعته يقول :
وهل يمحو الهرب ما نتركه خلفنا من مساوىء ؟ إنه هرب من
الواقع ، إنه الجبن عن مواجهة الأحداث ، والعجز عن احتمال التبعات
— مادام الهرب سييلاً إلى راحتك فلننفع .

— لا أدرى ما السبيل إلى راحتي ؟ ... بل هناك سبيل واحد .
ثم ران عليه صمت كثيف ، وقد اعتمد رأسه بيديه .
وبعد العشاء قال لى ناظراً إلى حجرته :
أرغب فى أن أقضى ليلتى وحيداً ...

— كما نشاء ...

وقبّل ما بين عيني قبلة حافلة ، ثم هرع إلى حجرته فطواه الباب
وقصدت إلى حجرتي تتقاذف بي وساوس وهواجس ، وثقلت
على هموم التفكير ، فأسلمني الخنول إلى نوم يعروه اضطراب .
واستيقظت فجأة متفزعاً من صوت انفجار ... فتلفت حولى ،
ووجدتني أعجل إلى حجرة « شريف » ، وما إن دخلتها حتى وقع بصرى
عليه جثة هامدة طريحة الأرض ، وفي يده مسدس ، والدم يشخب
من جبينه ... فانهارت قوى ، وفقدت رشادى .

كتبت على « يارب أن أشهد مصرعى رجلين أحبنى كلاهما
وأحببتهما ... إن الشؤم بذرة كامنة فى نفسى ... لئن أنفت حولي سمماً
زعافاً ، ولانه لمصينى يوماً ليودى بي !
أنا الجانية لا ريب ... أنا التى صوبت المسدس إلى رأس « شريف »
فيا ليتنى أستطيع أن أصوب مثله إلى رأسى ، ولكنه الجبن المتغلغل
فى دخيلة نفسى !

لإنها أحداثٌ مروعة تلك التى مررت بها ... أحداثٌ متشابكة
حالكه لا أملك لها تمييزاً ولا تفصيلاً ... لقد وعكتنى حتى تركتنى
أهذى وأهذى ... وماكدت أبلّ من هذه الوعكة حتى توالى على
مراحل التنقل بين دور الشرطة والنيابة والقضاء وما إليها . أسئلة
لا ينضب لها فيض ، وأشخاص من خدم « سنية » وحشمها يواجهوننى
بعيونهم المتلبهة وجوههم المتجهمة . ألفاظ جارحة وتهم عارمة
تكتنفنى من هنا وهناك وتملا أذنى طنيناً يدوى ولا ينقطع له
دوى ! ...

ألفيتني أخوض غمرات الحياة مرة أخرى ...

لم أستطع في الشقة مكتأ ، فرحلت عنها قاصدة منزل « حدى » .
بمنطقة « الأهرام » ، ... فإذا المنزل مسكون . واستقبلني رجل من أهل
الصعيد فارح القامة ضخيم الجثة صلب السمات . قلباً سألته في شأن
المنزل أخبرني بأن شخصاً استأجره منذ زمن .

فذهبت إلى المستشفى من فورى ، واستفسرت عن مكان « حدى »
فأجابني الممرض : أى « حدى » ، ذلك الذى تسألين عنه ؟

فأوضحت له من أريد ، فأغرق في الضحك ، وقال فى غير اكترات :
سلى عن الأحياء يا آنسة ! ...

— أمات ؟

— منذ أكثر من شهر ..

ووقفت لحظة واجمة ...

ورأيت الممرض يمضى لشأنه ، فاستوقفته أقول له : وأين دفنتموه ؟
فصعد فى « بصره هنيئة » ، ثم قال : هل أنبأوك بأنى « شيخ التريبة » ؟
وغادرت المستشفى أنحامل على قدمى لا أدرى أية وجهه أقصد ؟
لم يعد لى فى الحياة شخص أركن إليه ، لقد دفنت أكرم أصحابى
وأعزهم على جميعاً ، وليس فيمن بقى من الناس أحداً أستطيع عليه
تعويلاً !

وكنت منهوكة القوى ، لم أطعم شيئاً منذ وقت طويل ، ولم يكن

معى نقود ذات شان . فلبثت خارج المستشفى أطول بصرى حولى
فى خبيل وذمول ... ومرّ بى وقت وأنا لا أملك وعى .

وسنحت لى فكرة مفاجئة . لم لأنطلق إلى مسكن « الدادة شيرين » ؟
لقد كانت تحتفظ لنفسها أبدأ بشقة صغيرة تزورها بين حين وحين .
ولكن هذه الشقة لم تقع عليها من قبل عيناى . وجعلت أقدح فكرى
وأجمع ذكرياتى وأسائل نفسى : أين مكانها ؟ ... وأخيراً اهتديت
إلى أنها فى منطقة « مصر القديمة » ، فيسمت شطرها ، وعثرت
بعد طول سؤال على مكان الشقة ، ولكنى وجدتها مغلقة ، فأضافتنى
الجارّة ، إذ رأيت ما أنا فيه من إعياء وبؤس ، فأدركتها الشفقة على ،
وأرسلت فى طلب « الدادة شيرين » .

وبعد ساعات رأيت « الدادة » تدلف أمامى ملففة فى السواد من
الفرع إلى القدم ، كأنها قطعة من الليل تتحرك ... دخلت إلى متحاملة
على عكازتها ، فلما وقع بصرها على ، هممت فى طجة بغيضة :
هذا ما كنت أتوقعه !

وأمسكت يدي ، وقادتني إلى مسكنى ، فكأنى جان أثير يساق
إلى ساحة القصاص ...

وأحسست معها بتخاذل يفقدنى كل مقاومة ، كأنما أنا شاة مستكينة
بلهائى بين يدي جزار عقى .

وما إن احتوتنا الشقة حتى رمت بى « الدادة شيرين » فى ركن من
الأركان ، فرفعت اليها عيني وأنا بالدمع شرقة ، وقلت :
ليتك تقتلينى ، فأنجو مما أنا فيه من عذاب !
وتشبثت بثوبها ضارعة « فسمعتها تقول :

أبعدى عنى ... أبعدى عنى ...
وما لبثتُ أن غادرت المسكن .
فانكببت على الأرض ، تنهلُّ من مآقيّ الدموع الغزار ...
وكنت أحسُّ أن دموعى لا ينفد لها مدد ، وظللت كذلك وقتاً
لا أدرى مداه ، ثم شعرت به « الدادة شيرين » تدخل المسكن وتقرب
منى ، وإذا بها تمدُّ إلىَّ يدها بقدرح ماء ، وهى تقول بصوت أجشٍّ :
اشربى .

فأفرغت القدرح فى فى دفعة واحدة .
وسمعتها تقول :

هل أنت جوعى ؟
فوجدتني أجيبها على الفور دون استحياء :
لم أذق طعاماً منذ أمس ...

فغابت عنى برهة ، ثم عادت بصحن مغطى برغيف تحته قطعة جبن
وبضع بيضات ... ووضعت الصحن أمامى صامتة ، فاندفعت منهومة
ألثهم الطعام .

وجلستُ « الدادة » ، غير بعيد عنى .
وبعد حين سمعتها تجمم ، كأنها إلى نفسها تتحدث :
لقد وعدتني أن تتداركى أمرَك قبل وقوع الكارثة ، ولكنك
لم تفعلى !

فأجبتها خافضة البصر :

إنه قضاء الله ... ولا مردَّ لقضائه !

— حقاً قضاء الله ... وله فى ذلك حكمته ... لا يمكن الآن أن

نستدرك ما فات وانقضى !

واقصر الحديث على هذا الحوار ، فنبضت الدادة ، تاركة لراى ،
ولسكنها ما لبثت أن رجعت تقول فى لهجة يشوبها الجفاء :
إذا رغبت فى النوم فدونك الحجرة .

وأشارت إلى مكانها ...

ثم زائلت المسكن وهى تتحامل على عكازتها فى جهد ، وردت
الباب خلفها .

مكثت فى مكانى لا أغادره ، وقضيت ليلتى كلها فى هذا الركن
متجمعة كالمقروء المرعد ، لم أهتم بالنهوض إلى الحجرة أنام فيها .
وانصرم يومان ، وحالى لا يعترىها تغير ...

فى المسكن لا أبرحه ، تقدم الدادة ، وقتاً ثم تنصرف لانبألتى
إلا كلمات ...

وكان وجهها مرعباً عليه عبوس . وتمثل لخطارى أنى حيوان
حبيس قفص ، لا يزوره رائضه إلا ليزوده بالطعام والشراب !

وفي اليوم الثالث قدمت "الدادة شيرين"، فوجدتني قابعة في ركني
المعبود ، أقلب من أفكارى السود ، فجبهتي بقولها :
تبغين أن تقضى بقية عمرك على هذا النحو؟
فرفعت إليها هامتي ، وقلت : حقاً ! لست أدري من أمرى شيئاً .
فقال في جدّ واهتمام :

يجب أن تودى عملاً ... يجب أن تشغلي نفسك .
— إنى لا أتأخر عن شيء ... أى عمل اخترت لي ؟
— عليك أن تبغى وأن تختارى لنفسك ما يحلو .
— أشكر لك أنك ذكّرتني بما يجب عليّ .

— اسمعى يا د سلوى ، ... يجب أن تكسبي قوتك بعرق
جبينك ... يجب أن تكدحى في الحياة وأن تجاهدى ، واسألى الله
غفران خطاياك ، إن الله رحيم تواب . ولكنه لا يمنح المغفرة إلا لمن
كان خالص النية صادق المتساب !

ثم مضت عني ...

وفزعت ونفسي أفكر فيما نصحتني به "الدادة شيرين" ، ... حقاً
ما يكون لهذه الحال أن تدوم ... يجب أن أفكر فى كسب القوت ...
لن أغدو عالة عليها ، فليس لها طاقة بي ، سأقوم بأى عمل ... على أن
أبتنى الوسيلة التى تؤهلنى لغفران الله !
وتهضت من ساعتى مزمنة الخروج ... ولكن إلى أين ؟ ...

اتجهت ناحية الباب ، فما إن دانيتته حتى ألفت فتاةً نحيلة غير مهندمة عليها سياء الخدم ، تقف قبالي تسألني : هل حضرتك «الست سلوى» ؟
— أنا «سلوى» ...

— «الست إنصاف» ، ترغب في حضورك .

— «الست إنصاف» ١٩

— نعم «الست إنصاف» ... ألا تعرفينها ؟ إنها جارتك الخياطة المعروفة ... إنها تسكن على قيدِ خطوتين من هذه الدار .

— وماذا تريد مني «الست إنصاف» ؟

— لست أدري ... لقد بعثتني أستدعيكِ إليها .

وانطلقت ، فتبعتها ... ودخلت وراء الفتاة منزلاً خيراً من منزل «الدادة شيرين» ، جدة وطراراً بناء .

وصعدنا إلى الطبة الأولى ، حيث طرقتنا باب «الست إنصاف» ، ودخلنا إلى حجرتها ، فإذا هي جالسة على متكى فسيح تحوطه بقسطع شتى من الثياب مختلفة الألوان ، وكانت منهمكة تقلب ما بين يديها من القطع ، فما إن أحسست مقدمي ، حتى التفتت إلى "تحدث في" ،

وهي امرأة بادئة ، جاوزت طور الشباب ، بيد أن قسائتها تم عن فورة نشاط ، وكانت تضع على عينيها منظاراً ذهبي الإطار .

وما هي إلا أن رفعت المنظار إلى جبهتها ، وقالت :

هلي أنت «سلوى» ؟

— نعم ...

فصمت لحظة ، وهي تتفحصني بدقة وإمعان ، ثم قالت :

ألك سابق اشتغال بالخياطة وتفصيل الثياب ؟

فقلت دون إعمال فكر : لم أشتغل بشيء من هذا قط !
ولكنني استدركتُ أقول ، وقد فطنتُ للأمر :
لأنني على استعداد للقيام بكل ما تكلفيني إياه .

فابتسمتُ ، وأنزلتُ المنظار على عينيها ، وانكفأ على قطع الشياح
تقلبها وتقيسها ... ثم سمعتها تقول : حدثتني الدادة شيرين ، في شأنك .
وأخبرتني بأنك سلبية أسرة كريمة ، ولكن ما نفع الأسر الكريمة
فيما بين يدي من عمل ؟ إنني أرغب فيمن تعمل ، وتعطى عملها
ما تملك من حذق ونشاط .

فنهضتُ إليها في ضراعة ، وقلت :

أرجو أن تلقى مني ما تؤملين . فلتسكن تجربة ، إن وإثاني التوفيق
فيها تابعتُ عملي معك ، وإلا فإنني أريحك مني !
فأجابتني غير معنيّة بقولي ، تشير إلى إحدى الحجير : ادخل هناك
فأطعت أمرها ، وإذا بي في حجرة ضيقة حشّرتُ فيها فتيات
خمس منهم مكات يعملن ، هذه تفصل ثوباً ، وتلك مقبلة على التطريز ،
والآخرات يزاولنَ ضروباً من شئون الحياطة . فما إن دخلت حتى
أشرعن نظراتهن لي ، وانطلقن يحاقدن بضحكاتهن ويتغامزن في سر
ومسآرة . فدهمني ضيق وحيرة ، وترددت في متابعة خطاى ، فوجدت
والست إنصاف ، قد دخلت تعمّر الحجرة بحجرها العظيم ، وكان
منظارها يلتمع على جبينها المتغضن المتزّمت ، ولم تكد تحل الحجرة
حتى انصرفت الفتيات إلى عملهن حذرات ... ووجهت والست إنصاف ،
نظرتها إلى واحدة منهن يبدو أنها كبيرتهن ، ونادتها :

« بهية » ...

فرفعت رأسها عن آلة الخياطة ، وقالت : نعم يا دست إنصاف ،
— هاك د سارى ، ... الفتاة التى حدثتك فى شأنها .
ثم التفتت إلى محفظة بسمتها وتزمتها ، وهى تقول :
سترسم لك د بهية ، خطة العمل .
وأدبرت عن الحجرة ، تزلزل الأرض بخطاها الثقالة .
وأشارت إلى د بهية ، أن أتقدم آخذة مجلسى بجوارها ، وعادت
الغمزات والضحكات المسكبوتة تشيع من حولى .

جلست د بجانب د بهية ، أرقبها خلصة . لأنها امرأة فى لونها مسمرة ،
أخلفتها الرسامة ، فجاءتها حظوة الحياة ، ويبدو أنها عانس ألح عليها
العِساس ، وناولتني إبرة وثنوباً لبيساً ، ثم أشارت إلى فتوق فيه قائلة :
عليك أن ترتقيها ، ولك أن تستشيرني فيما يغمض عنك من
دقائق الرق .

وانبرت أعمل مهتمة ، وعلى الرغم من قليل مرانتي بالخياطة وصنوفها
بذلت وسعى لاتقن العمل أحسن إتقان ، وكنت أحس بأن الفتيات
مازلن يحاصرني بالغمز والضحك ، فلم ألق اليهن بالا ، ومضيت فيما بين
يدي لا آسى على شيء .

وسمعت د بهية ، تزجر الفتيات قائلة : الزمن حد الأدب !
فبدأت العاصفة الخفية حيناً ، ثم لم تلبث أن عادت كما كانت من قبل
وكنت كلما أتممت شيئاً أطلعت عليه د بهية ، ، وسألتها رأيها فيه ،
فلم أسمع منها كلمة ارتياح ، وإنما كانت تجهلني فى كل مرة أن تبدى لى
ملاحظة لتشعرنى بما لها من قدرة وسيطرة .
ومكثت قرابة ساعتين أرتق الفتوق ، فأحسست الدوار يستبد

برأسي ، والعرق يتحلب من جبينى ، ولكن تجلدت مؤانزعت من الضعف
قوة لاتباع العمل فى جسد ، حتى ظفرت من « بهية » بكلمة ثناء عابرة
أشرق لها قلبى وتفتح .

وصحت بها : أحقاً حذقت الرق ؟ !

فقال فى كبرياء وتشامخ : لا بأس !

فقلت فى حماسة : رعاك الله وأبقاك ...

فتجاوبت أنحاء الحجرة بالضحك ، وتلفت حولى أطلع إلى الفتيات
ثم وجدتني أندفع معهن ضاحكة ، فقلت « بهية » على الفور ، وهى تحاول
عشياً أن تظهر بمظهر الأمر المهيمن : قلت لكن الزمن حد الأدب !
انفضى النهار وأنا أعمل فى تلك الحجرة الضيقة المخنوقة الأنفاس
وكانت الست « بهية » تركنا فترات نستريح ولستتجم ، ووجدت
الفتيات يبدأن الحديث معى دون كلفة ، وسرعان ما وجدتني أمازحهن
وأشاركن المرح والطرب . فسألننى عن حالى ، فأجبتهن بأنسى
أرملة ليس لى مورد ارتزاق ، وأريد أن أجد فى الخياطة بعض العون
على المعاش .

وعدت إلى مسكنى ، أو بالأحرى منزل « الدادة شيرين » ،
وكنيت على الرغم مما نالنى من إعياء فى يوم عملى الأول أحسن أن نفسيتى
قد شرعت تتغير ، وأنى أنظر إلى الحياة نظرة جديدة عليها مسحرة الرضا
وفى هذه الليلة طاب لى النوم على السرير ، وأحسست أنى لم أعد
عالة على « الدادة شيرين » ، وطفقت أفكر : كيف أقتصد من أجرى
اليومية لأؤدى لها نصيباً من أجرة المنزل ؟ يجب أن أكافئها على صنيعها
بشئ ، وأن أثبت لها أنى أصبحت إنساناً آخر ... وازدحت المشروعات

على "أتدبرها وأحكم خطة تحقيقها .

وفي مطلع النهار قصدت مكان عملي ، يسرى في أوصالي نشاط
واهتمام . وأقبلتُ على الخياطة بجانب " بهية " ، وظفرتُ من تقديرها
لعملي أكثر مما ظفرت أُمس ، ووضح لي أنها على الرغم مما تبدو فيه
من مظهر التنفخ والتأمر ليست لها شخصية تفرض احترامها على الفتيات .
وتوثقتُ بيني وبين الفتيات الأربع وشائج الالفة والود ، ولم أجد
من بينهن من تتميز بشيء غير ماهو مألوف بين أمثال هذه العاملات :
ثرثرة بلا طائل ، تنادر وسخرية بالناس من كل صنف ، وتطلسع إلى
الحياة بنفوس عطاش ، ورغبات جواح في مضمار الحب والزواج ؟
الحب والزواج !

ماذا يأملن من الحب والزواج ؟

لو استطعت أن أنفضَ لهنَّ بنسات قلبي ، وأكشفَ لهن سريرة
نفسى ، لأجفلن مذعورات ، ولراين في صحبة الست " بهية " التافهة
وخضوعهن ، للست إنصاف ، البدينة المتغطرة خيراً ما في الحياة
من مغم !

ليت المرء قادر على أن يجد في حاضره قبساً من نور يعينه على
أن يستطلع به صفحة القدر المغيّب في مستقبله الخفيّ ، إذن لأمّن
المسار ، ولو قتر على نفسه متاعب الزلل والاستسلام للأوهام .

ولكن كيف يتبين المرء أعقاب المصير قبل أن يشق في طريق .

التجارب !

استخففت والدادة شيرين، عن منزلها فلم أعُد أتبين لها فيه ظلا .
ولكنني استطعت أن أستخلص من الست « بهية » أنها دائبة السؤال
عني ، تستوضح منها سلوكي وتصرفاتي . وأحسست بأن بعض الجيران
حول عيونهم ترقبني في غدوي ورواحي ، فلم أكن أعبا بهذه الرقابة ،
إذ كنت مطمئنة إلى حياتي الجديدة ، مخصصة لها كل الإخلاص ،
راضية بها كل الرضا !

وكثيراً ما كنت أعرض قبيل نومي ألواناً من حياتي الماضية ...
فتتخابل أمامي أشباح محمدى ، و « الباشا » و « سنية » و « شريف » ،
فسرعان ما تعاجلني نوبات بكاء وعويل ...

أكان بكائي أسفاً على سعادة غاربه لم يطل بي منها ؟ أم كنت
أندب ماضي الحافل بالمناكر والمنديات نادمة حسري ؟
لقد كنت أبكي وأبكي ... حسبي أن هذا الدمع السخين كان يميّط
عن صدري أدرانه ، وكان يبعث من حرارته بين جنبي روحاً جديداً
كله صفاء وطهر !

وظهرت « الدادة شيرين » بعد شهر غابته . دخلت صموتاً تتوكأ
على عصاها ، فأقبلت عليها آخذة يمينها أشبعها تقييلاً ، فلاطفتنني
في سكون ، وجلست ° تقول : أمطمئنة أنت إلى حياتك هذه ؟

— كل الاطمئنان ...

— أرجو أن تتابعي حياتك على هذا المنوال !

— لا تأبعنَّها بفضل ما تحبون به من رعاية ورضا .
— الرضا رضا الله .
— إلى لكبيرة الرجاء في عفوهِ .
— الله تواب غفور... ولكن لا تأمسي يا وسلوى ، أن الله لا يمنح
رضاه إلا من يتوب توبة صادقة لا رجعة بعدها لذنوب أبدأ .
— إلى عازمة على ألا أقارِف معصية ما حينت .
وعندما نهضت « الدادة شيرين » ، تنصرف ، وقفت أمامها وقد
انبعثت من صمم وجداني فكرة لم أدر ماذا أثارها فيَّ !
وقفت لحظة مترددة ، ثم قلت لها خافضة البصر في صوت راعش :
كيف حال « سنية » ؟
فحدقتني بنظرة نكراء ، ثم همهمت :
يجب ألا تلفظي بهذا الاسم ...
وازورت عني ببصرها ، وخرجت تتوكأ في جهد على العصا .
لأنها لعل حق ...
يجب ألا يدور لسانى بهذا الاسم ...
كيف أستطيع لنفسى أن أذكره بعد ما كان من أمرى معها ؟
وتواصلت الأيام ، وأصبح عملى فى مشغل « الست لإنصاف » عملاً
راتباً كثير الجهد والمشقة ، وكانت « بهية » كلما رأتنى مقبلة على الخياطة
أضغطني بالمزيد . وبدأت « تعبد » إلى بالدقيق من العمل الذى يتطلب فناً
وحذاً وأناة . فكنت أقضى الساعات منكبة أبذل غاية الطاقة .
ولكن ذلك لم يشفع لى فى البراءة من توبيخ « الست لإنصاف » ،
وتعنيفها لإيائى ، وكثيراً ما فقت فى عضدى ، وأشعرتنى بأننى خائبة .

عملي لا سبيل إلى تقدّمي .

بيد أن فكرة واحدة ظلمت، تذلّل طريق وتذكّي عزيمتي
وتشدّ أزري ، تلك هي شبح «الدادة شيرين» ...

كان يتخايل في خاطري فيدفعني إلى الأمام صابرة على كل عناء...
وكان قصارى هدي أن أحوز ثقتها ، وأن أنفي عن تفكيرها ظنون
السوء بي ...

لقد قرّ في نفسي أن هذه المرأة ليست إلا قديسة من صفوة المقربين
إلى الله ، هؤلاء الذين تستطيع كلمة شفاعته واحدة من أفواههم أن تسمو
بالإنسان إلى عليا الفردائس ، وتكفي دعوة سوء ينقشونها لتبسط
بالإنسان إلى درجات الحضيض !

ثابرت وثابرت ، وبذلت من جهدي ما بذلت .

وكنت أعود إلى الدار في منصرف النهار مجهودة العينين ، متصدّعة
الرأس ، فكان يلذ لي أن ألوذ بمعزل في حجرتي ، أخلو إلى نفسي ،
وأستمع بالسكينة حولي ، سابحة في آفاق من التفكير في شتى جوانب
الحياة ، وجفناي مطبقان ! ...

كنت يوما على مألوف العادة في مشغل «الست لإنصاف» ، في تلك
الحجرة الضيقة المزدحمة بكومات من الثياب ، وقد اختنقت في أرجائها
الأنفاس . وجلست في أركانها القمبات الخمس يثرثرن ويتضاحكن
طليقات . فأحسست دمواراً يشتد على ويزداد اشتداده حيناً بعد
حين . وإذا بي أتأوى على الأرض .

وثبتت إلى وحي ، فألفيتني في مخدع «الست لإنصاف» ، مددة على
مكتبا ، وهي على مقربة مني ، تعني بي . وما إن فتحت جفني حتى
سمعتها تقول : كيف أنت ؟ ماذا ألم بك ؟

— دوار بسيط ...

— أتراك أجهدت نفسك ؟

— لا أظن ... أنا الآن أحسن حالا ، أستطيع أن أستأنف عملي .

ورفعت رأسي ، فإذا بالدوار يثقلني ... فسمعتها تقول :

أرجعي إلى بيتك اليوم فالزميه لتستريحى ، وتعالى غداً .

ونهضت متحاملة على نفسي ، عائدة إلى الدار ، وقد صحتني خادمة

صغيرة بعثتها «الست لإنصاف» معي لتعينني على أمرى .

وقضيت ليلي قلقة أرقه ، أحس الضعف والإعياء ، واعتراى

غشيان وقىء ... وفي الصبح رأيت «الدادة شيرين» تدخل على ، وظهر

لى أن «الست لإنصاف» أرسلت فى طلبها وأخبرتها بأمرى ، فإن

«الدادة شيرين» بادرت بالاستفسار عما جرى ، وانبرت تسألني في دقة

وخص واكتناه ، ومن الغريب أنها رجعت إلى أسئلة لم تخطر لي من قبل ببال ، فأجبتها في إفاضة ، لم أخف عنها أى شئ .
وسمعتها تهمهم : أكبر الظن أنك حامل يا سلوى .
فنظرت إليها فافرة الفم تعروني ذهلة ودهش ، ثم قلت مرددة :
أنا ؟ أنا حامل ؟

ووجدتني أدفن وجهي بين راحتي ، وأنا أهمهم بصوت حبيس :
لا ... لا ... لن يكون هذا .
فسمعتها تقول : هذه مشيئة الله .
— إن الله لا يرضى عن مثل هذا المخلوق !
— بل إنه عطية من عند الله ، ولن نبيع لأنفسنا أن نرد عطاياه .
— كلا ... إنه لديسة الشيطان ... لن تكتب لهذا الطفل حياة .
وجعلت أضرب بطني بيدي في ثورة واحتياج ، وأنا شرقة بالدمع .
فأمسكت الدادة شيرين ، بيدي وقالت :
إنك تكفرين بنعمة الله ، وتعرضين نفسك لسخطه .

— إن هذا الطفل وصمة تدمغ جيني أبدا الدهر ... سيكون هذا
الطفل شبحاً يثير في دنياى ألوان المآسى التي أجمد في نسيانها وإقامة
السدود بيني وبينها فيما بقي لي من عمر . إلى أمضى في طلب الغفران
من الله جاهدة مخلصاً ، ولكن يبدو لي أن الله لا يريد ...
وعاودني البكاء والشهيق ، فقالت الدادة شيرين :

إن الله يقدر علينا مصائبنا ، فليس لنا إلا الإذعان لإرادته ،
وابتغاء مرضاته ... كلما كان جهدنا كبيراً كان الثواب عظيماً والرضا
موفوراً ... كفسكني الدمع !

وشعرت بتخاذل ، وكان فكري مشردا ، وخواطرى مشتتة ، أعمل على حصرها فلا أستطيع . وسمعت الدادة شيرين ، تقول : ماذا يسوءك من أمر الطفل ؟ كل مافى الأمر أن أباه قضى قبل أن يراه ؟

تففضت من بصرى ، وهممت : أبوه !؟

— أجل ... وحمدى ... قضى قبل أن يرى ابنه ! ...

— إنه أبوه على الرغم منه وعلى الرغم منى !

ولبثت فى الدار أياماً وحدى ، تختلف إلى "خادمة" الست إنصاف ،

فتودى لى ما تمس إليه الحاجة .

وقد شعرت باستسلام لنصائح الدادة شيرين ، أتقبلها أحسن تقبل ، وأنفذها أدق تنفيذ ...

لا سبيل إلى إباء شئ تطلبه إلى هذه السيدة ...

إنى هائمة مضللة فى دنياى ، لا هادى لى غيرها ، وإنى بدونها

لا أستطيع أن أقدم رجلا أو أؤخر أخرى ..

أشعر بأنى قد طويت السنين القهقرى إلى عهد الطفولة ، فلا بد لى من عون أستند إليه وأنا أحبو وأحاول أن أخطو خطاى الأولى .

وحرصت الدادة شيرين ، على أن توالىنى بزوراتها فى فترات

متقاربة ، وتخدق على من نصائحها ، ولا تفتأ تطيب خاطرى وتيسر لى

ما أراه عسيرا على فى طريق الحياة ، حتى شملنى الهدوء ، وغمرتني الطمأنينة .

وكنت وأنا فى وحدتى أجدنى قد خطوت إلى النافذة ، وأطلع لى

الطريق ، ملتمة من مشاهدته بعض النسل . فكانت تطأعنى أمام الدور

أطفال الجيران وهم يرحون ويلعبون ويمابث بعضهم بعضاً فى خفة

وصخب ، فأرنو إليهم أتبع حركاتهم فى شغب ، وقد أقذف إليهم

بقطع من الحلوى يتنازعون عليها ويتنافسون فيها ، فكانت هذه المناظر تثير في نفسي مشاعر شتى من عطف ومحبة وحنين ... إن ذلك الجنين الذى بين جنبي ليعبثنى أن يكون طفلاً كهؤلاء ، فلم لا أخلى سبيله ، وأرعى نموه ، حتى ينال حظه من هذه الحياة ؟ ..

والفيتنى على الأيام تعتدل نفسيتى ، وأنشئى أن أكون أما . لها طفل ، طفل ثمته ، من شريف ، أسأله نفسى ، وسأقف عليه عمرى . لم لا أكون به فخراً معتزاً ؟ أفضى أيامى معه أطالع فى بحياه وجه أبيه . ذلك الرجل الذى ظل حبه لى أبى حباً يخفق به قلبه حتى الرمق الأخير . واستأنفت عملى فى مشغل ، الست لإنصاف ، ولاحظت أنها تعاملنى ببعض الحنان والرفق ، أما د بهية ، فقد ازدادت فى عيني تفاهة وغباوة ، لقد كانت ترهقنى بأسئلة سخيفة ممضنة عما أحسّه من متاعب الحمل وأطواره ... وصدقنى ظنى أنها عانس ما برحت تؤمل فى حياة الزواج على الرغم من أنها دميعة ، تخطت عصر الشباب ... أما الفتيات الأربع فمكن فى فرحات ، يعدننى هدايا لطفلى ، حتى إن كلا منهن شرعت تعد هديتها فى اهتمام .

وتواصلت الأيام وه الدادة شيرين ، لا تقطع زيارتها عنى بين حين وحين ، دائمة التعهد لى وموالاتى بالنصح والإرشاد .

وكنت كلما أحسست الجنين يختلج بين أحشائى ، تهزنى مشاعر بهجة واعتباط . وحينما كنت أخلو بنفسى فى المنزل أشعر بأنى لست وحدى ... لأنه معى .. إنه كائن حى يشعرنى بوجوده ويؤنسنى . أ كاد أتمثله شخصاً أمامى يشير السكون حولى بما يرسل من ابتسامات وإشارات ومناغة . لم أعد أشعر فى المنزل بما كان يحيط بى من وحشة ومن صمت !

ولما استبان الحمل بين جنبيّ ، وثقل عليّ ، ذهبتُ بي والدادة شيرين ، إلى مستشفى الأمهات ، حيث عرضت نفسي على طبيبة الولادة التي أزعمتنا أن تتولى أمري .

وكانت سيدةً بسامة عذبة الحديث فكهة الروح ، تشعر ك أول وهلة بالمحبة والألفة ورفع الكلفة ، كانت ضامرة ضئيلة ، تعجب كيف تستطيع وهي على حالها من الضآلة والضمور أن تلي هذه المهمة الجسيمة التي تتطلب اقتداراً وقوة ...

وبعد أن أتمت الطبيبة الفحص في دقة وعناية ، انقبذت بي والدادة شيرين ، مكاناً قصياً تحدثت فيه إليها حديثاً أثار في نفسي غيم الظنون . وأقبلت عليّ الطبيبة بعد هنيهة ، فسألتها : كيف الحال ؟ فقالت ، وهي تبسّم ابتسامتها المألوفة :

كل شيء حسن ، الولادة بعد ثلاثة أسابيع ، إذا أحسست قرب المخاض فبادري بالحضور إلى المستشفى ... سيكون كل شيء معداً لاستقبالك . ثم رسمت لي ما يجب عليّ أن أعمله في فترة الانتظار .

فخرجت من المستشفى ساهمة أفكر ، ولما لحقت بي والدادة شيرين ، سارعت أسألهما أن تصارحنى بما كان من مسارة الطبيبة لها ، فقالت دون أن تواجهنى : هذه الطبيبة تميل إلى مجاذبة الأحاديث والاستفاضة في الكلام ... ليس في الأمر سر ... عليك أن تلزمى نصائحها وأن تعجلى إلى المستشفى أول ما يحسبك المخاض .

١ ولقد مُعِنَتِ بنفسى ما وسعتنى العناية ، فأثرت الراحة ، وانتهجت المنهج الذى رسمته الطيبة .

كنت أحسّ تطلعا غريباً إلى الحياة ، ورغبة وثيقة فى تعهد الجنين ، حتى أسلكه إلى النور صحيح البدن أهلاً للنماء .
وأخيراً حان اليوم الموعود ، فتأهبت للذهاب إلى المستشفى ، وأبلغت « الست إنصاف » ، جديد أمرى ، وعهدت إليها فى إخبار « الدادة شيرين » .

وما إن تنأهى إلى مسامع الفتيات نبأ تأهبي للخروج إلى المستشفى حتى لحقن بى فى الدار مبتهجات ، وأحطن بى من كل جانب ، يتقاسمن العناية بأمرى ...

أما « بهية » ، فوقفت صامته تنظر إلى « مشدوهة فاغرة الفم تنفخصنى فى تعجب واستغراب . كأنى حيوان طارىء لم تعهده من قبل ... أو كأنها لم تكن تنتظر أن يحين لى هذا اليوم الموعود !
وحضرت مركبة الخيل ، فصعدت فيها ، ودسجتى « بهية » طوعاً لأمر « الست إنصاف » ، أما الصبايا الأخر فجعلن يلوحن بأيديهن متصايحات يتمنين لى السلامة .

ومضت مركبة الخيل تضرب الأرض ، وقطعنا الطريق صامتتين ، و« بهية » على حالها مشدوهة حاملة مشعثة النظرات ... وبلغنا المستشفى فنزلت عن المركبة متحاملة على نفسى ، لا أجد من بهية خفة لمعاوتى !
كانت معصرة الوجه ورجلة ، تنقل خطاها مضطربات ، كأنها هى التى على وشك أن تضع حملها ، أو كأنها على موعد عملية جراحية تخشى عقابها ...

ولقد ألفت كل شيء معداً في المستشفى، خللت حجرتي، وما كدت
المح الفراش حتى تساقطتُ عليه ، وأحسست ألم الخاض يزداد ويشد
كأنه كان كامناً يرتقب ساعة الوصول...

وحضرت الطليبة على الفور ، بسّامة المحيا نصيح : أين المولود ؟
ودارت بعينها في الحجرة ، ثم استأنفت تقول :

ألم تنفق على أن تأتي به معك ؟ فلنبحث معاً أين هو ؟

ودبت مني تنفحني في رفق ، ثم قالت في ثقة وتأكيد :

إنه آت بلا ريب ... لن يرعى الليل سدوله حتى يكون بجانبك

يضج بصراخه وعويله !

ثم انصرفت ، بعد أن عهدت بأمرى إلى بعض الممرضات .

وبعد هنيهة أقبلت « الدادة شيرين » متحاملة على عكازتها ، فلما إن
اقتربت مني حتى أمسكت بيدها وأطبقت عليها قائلة :

لا تتركيني .. لا تتركيني ... واسألي الله لي عوناً وفرجاً قريباً .

ووجدتني أنخرط في البكاء دفعة واحدة ، وأنا هاوية على يدها

أنديها بقطر الدموع .

فلاطفنتني وهي تطمئنني ، وتيسر لي الأمر ، وبعد برهة قلت لها

وأنا أكفك العبرات : متى أخبرتك « الست إنصاف » بشأني ؟

فأجابتنني على الأثر : لم تخبرني بشيء . إني هنا ... هنا منذ أيام !

ووجدتها تمسك عن الكلام كأنها تستدرك ما فرط منها .

وعادت تقول ، وقد أدبرت بعصرها عني :

في هذا المستشفى سيدة من معارفى ..

— وكيف حالها ؟

— بخير ... والله الحمد .

— الولادة قدمت هذه السيدة ؟

— أنت كثيرة السؤال يا «سلوى»... إن الإجهاد باد على وجهك ،
فيجب أن تلزمى الراحة .

— الحق ما تقولين ... أشعر بأوجاعى تزايد ... لا تدعيني ...
بحقك عندي لا تدعيني .

— لن أدعك يا بنية ،

وانتعدت مقعداً بجوارى ، وظلت تلاطفنى وتعنى بشأنى .

وبرح الألبى ، وجاءت الطليبة تنفقد الحال ، وبدأ العرق الغزير
يسبح على جبينى ، وأحسست بأنى لم أعد أطيق كتمان المي ، وأن
صياحى ينبعث من حلقى دون قصد ، واستمرت الحال كذلك وقتاً ،
لا يخف المي لحظة حتى يعاودنى أشد مما كان .

ووجدت الطليبة تخرج ثم تعود مصطحبةً طبيباً . وحقت تحت
الجلد مرات ، وغامت الدنيا أمام عيني ، وشعرت كأننى فى حلم غريب
تلتهمع حىالى سواطع أضواء ، كأنما هى أسنّة حراب مشرعة إلى
قراهمى على .

وانتظمتنى غيبوبة فقدت فيها شعورى أجمع ، وما أدرى أى وقت
مضى على وأنا فى غياهب هذه الغيبوبة ، ولسكنتى أحسست رويداً
بهذه الأضواء السواطع تلتهمع ثانية ، بيد أن حراهما لم تكن تخزنى ،
بل كانت تهوى على هيئة الملمس .

وثبت إلى رشدى ، فإذا الوقت صباح ... وأخذت أطلع حولى
 فى جهد وإعياء . وأنا أحس على عيني غشاوة ، وبعد لحظات استطعت
 أن أتبين وجه الدادة شيرين ، فقلت مجهودة الصوت :

مى يتم الوضع ؟
 — لقد تم الوضع يا بنية ، لقد انتهى كل شئ ... نحمد الله على
 سلامتك ...

حاولت أن أشرئب^١ إليها ، وأنا أقول متلهفة واجفة القلب :
 أين المولود ؟

وفى هذه اللحظة ، أقبلت الطيبة ، وإذا رأتنى قالت :
 لقد استيقظت ... استيقظت لتتبعينا مرة أخرى !
 فقلت : أنا ... هل أتعبتك ؟

فأمسكت يدي تجس نبضى ، ثم قالت :
 عظيم ... النبض على أحسن حال .

وألقيتني ألتفت حولى وأنا أقول : أين هو ؟ ... أين الطفل ؟ أين
 الطفل ؟ ... ذكر هو أم أنثى ؟

— تسألين عن الطفل قبل أن تسألى عن نفسك؟ صحتك قبل كل
 شئ ... لقد اجتزت محنة قاسية !

ثم وجدتها تكشف عن ثدي^٢ تتفحصهما . فقلت : أرغب فى رؤيته .
 هاتيه لأرضعته ! ... ذكر هو أم أنثى ؟ ... برك أخبرينى ...

فهمست في أذني : دعيه نائماً ... يجب أن يرتاح وقتاً ... سأحضره لك بنفسى إذا استيقظ .

وتابعت عملها تفحص ثديي في عناية ، ثم انتحت به والدادة شيرين ، ركناً وأخذتا تتساران ، ثم انصرفت الطيبة . وعادت والدادة شيرين ، إلى مقعدها عن كذب منى ، فقلت لها وأنا أحس قلقاً :

لماذا أبعدتم الطفل عني ؟ ذكر هو أم أنثى ؟

فنظرت إلى بعين يتجلى فيها الأسى ، وأخذت يدي صامتة تلاطفي ، فازدحت في رأسي الظنون تغتالني ، ثم سمعتها تقول : احمدي الله على أن كتب لك السلامة ... أمر الطفل هين ... لاتسألني عنه ...

فأحسست بشفتي ترتجفان ، ووجدت والدادة شيرين ، تزداد ملاطفة لي كأنها تواسيني في نكبة حافت بي . فأخفيت وجهي بين يدي واندفعت في النسيج . فقالت والدادة شيرين : يجب أن تعني بنفسك ... ولقد كانت ولادة عسيرة ، عسرة غاية العسر ، ولم يستطع الأطباء إلا أن يعملوا على نجاتك أنت وحدك ...

فقلت مسترسلة في نسيجي الحار : حتى هذا الطفل لم يدعه الله لي ؟ — هذه مشيئة الله .

— لقد كان هذا الطفل معقداً أملئ ... إن الله ليستكثره على .

وتابعت بكائي ، وأنا أقول : كان منأى ان يكون لي إنسان يملأ على حياتي الفارغة الموحشة ، وينير لي طريق المظلم الحالك .. فأما اليوم فإني أعود إلى الفراغ والوحشة والظلام .

— أقلي من البكاء يا بنية ... قد يمنحك الله عطية تعوضك خيراً عما فقدت ... إن رحمة الله قد وسعت كل شيء !

ثم صمتت برهة وجعلت تعبت بحاشية ثوبها ، وهممت تقول :
قد تجددين من يملأ حياتك بهجة ويشيع فيها نوراً .. من يدري ؟
فقدت فيها قائلة : أية بهجة وأى نور ؟ أوهام لا طائل تحتها .
فتخايل على وجه « الدادة شيرين » ظل البسامة ، وقالت :
يجب ألا نياس من رحمة الله ... فضل الله عظيم !
... كنت أحس أني هيكل مهدم تألبت عليه الضربات ، فقضيت
اليوم بين يقظة ونوم ، أرعى حزني في تبرد واستسلام .
وفي غدوة اليوم التالي أيقظتني يد الطيبة ، وهى تنقل أصابعها على
صدرى . وشهدت « الدادة شيرين » تسألها فى همس وسرار .
ولاحظت أن الطيبة بادية العناية بشدي . فتركها توالى الفحص
وأنا غلدة إلى صمت وسكون ، فوجدتها تسألنى :
ماذا ؟ أين ذهب لسالك ؟
فقلت فى إهمال تائه النظر : ماذا تريدن منى أن أقول ؟
— أى شيء ... أسألينى !
— إذا لم يكن من الكلام بد ، فإنى أسألك سؤالاً واحداً .
— سألينى .
— متى أترك المستشفى ؟
— أنت عجول .. لم يحن الوقت بعد ... يجب أن تستكملى صحتك
حتى لا تعرضى نفسك لمكروه .
ثم ضغطت يدي ، كأنها تشجعنى على احتمال ما حل بى ، وراحت
تحت خطاها إلى الباب ..

وفي ظهر اليوم الثالث للوضع ، بينما كنتُ أقلب النظرات في عرض
الحجرة في ضجر وملال ، كانت « الدادة شيرين » تختلس النظر إلى
وترسل في الفينة بعد الفينة آهات وتمهدات .

وفتح الباب فجأة ، فظهرت منه الطيبة تحمل لفيفة بين يديها .
وما إن تدانت من فراشي حتى تسكشفت لي اللفيفة عن وجه صغير
تلتصع فيه عينان التماع الزمرد... وسمعت الطيبة تقول : ألا ترىنه جميلا؟
فهممت بلا مبالاة : جميل...

ثم رحت أزور ببصري عنه . وعجبت لهذه الطيبة التي سقم ذوقها
وجمد شعورها ، حتى إنها لتواجه أماً تكلي تسألها عن جمال طفل غريب !
واستأنفت الطيبة تقول :

لأنه جميل ، ولكنه مع الأسف جائع ... شديد الجوع !
وألقيت على الرضيع نظرة ، فتبين لي على الأثر ما هو فيه من نحول
وهزال ، وكانت عضلات وجهه تتقلص ويشمد تقلصها وهو يتلفت
يتمتع ويسرة محتاج الأعصاب ، وشفناه تحتلجان اختلاج التلثس .

وسألت الطيبة : لم أحضرته ؟

— جاء يطلب قليلا من طعام !

— قليلا من طعام ؟

وندت من فم الطفل صيحة ... إنها صيحة كبيرة ، عليها طابع
الاسى ، فما أسرع أن قالت الطيبة : ماقد تكلم ، يريد أن يطعم .

وماعثم الطفل أن تتابع صياحه الكسير ، واشتد تقلص وجهه واحتقانه ... وتمثل لي أن صوته أشبه بصوتٍ مستغيثٍ على شفاك الهلاك يطلب النجاة ، وسمعت الطيبة تقول : لقد بدأ يحتاج ! ثم ألفت بالرضيع بين ذراعي ، ومدت يدها تكشف عن ثديي . فلما أحسَّ الطفل حلبة الثدي تلامس شفتيه تعلق به وأطبَّق عليه . وآلمتني ضغطته ، فكدت أصرخ وأنا أدفع به قائلة للطيبة : نَحِّسِيه عني ...

ولكن راعني منه أنه تشبَّث بصدري ، كأنما يحاول أن يأخذ الثدي بكلتا يديه ، خشاة أن يفلات منه . وكان يجاهد في سبيل ذلك جهاد المستميت ، فأحسست به وهو يستدرُّ اللبن كأنما ينتزع قبسة من روحي ، وألفيتني أرنو إليه وهو ماض يتمصص . وعلى الرغم مما كنت أعانيه من ألم ، شعرت بدشوة طارئة تسري في دمي ، وتلسيني ألى ...

لقد بدأت تتجلى على بحياه سمات الرضا والارتياح . وكان حسيث أنفاسه ينبعث على صدري ، ووجيب قلبه يتابع وجيب قلبي ، ومكثت رانية إليه في تفحص ، يشملني شعور ابتهاج . وكان كلما ترك الثدي لحظة ليسترريح ، عدل بوجهه إلى " ، فلاقني عيناه الزرقاوان اللامعتان ، كأنني أقرأ فيهما شكراً واعترافاً بالجميل ... وماهي إلا أن يميل على الثدي يرتشف ، وما برحت يدها قابضتين عليه لاتبغيان به بديلا

ولبثت على تلك الحال بعض الوقت ، ثم ألفتيه وقد فترت همته ، وتراخت أوصاله ، ومال رأسه على صدري ميلة النعاس

وسمعت الطيبة تقول :

لقد شبع . أشكر لك ما أسديت من حسن الصنيع
فرفعت إليها بصرى ، وقد وضعت إصبعى على فمى ، وأنا أهمس :
لا ترفعى الصوت ... لأنه على وشك المنام !
فلاحت على وجهها ابتسامة رقيقة ، وانصرفت من الحجرة في
خطوات هينة لا يكاد يسمع لقدمها خفق .
وأحطت الطفل بذراعى أحضنه في رقة وحنان ، وعيناه لا تنحرفان
عن حيّاه ... وأحسست رويداً بجفنى يسترخيان ، وشملى سبات .
واستيقظت بعد ساعة أو نحوها ، فكان أول ما عنيت به أن تفقدت
الطفل حولى ، فلم أجد له من أثر .

ووقع بصرى على « الدادة شيرين » ، جالسة بجوارى جلستها
الرائبة ، فقلت على الفور : أين هو ؟
— لقد ذهبوا به إلى أمه .

فهممت : أمه ؟ !

ثم خففت من بصرى في صمت ، فقالت « الدادة شيرين » :
إنها تشكر لك حسن قبولك لطفلها ... لقد أنقذته حقاً .

فقلت ، وأنا على حالى مطرقة : من تكون أمه ؟

فانحنى « الدادة شيرين » ، تعبت بحاشية ثوبها برهة ، ثم قالت :
سيدة من أسرة كريمة . صدقيني لا أعرف اسمها .

— ولم لا تتولى إرضاعه ؟

— لأنى ابنتى مهزولة أجدها الوضع ، وقد غاض لبنها ، فافى
تدبيرها منه قطرة . إن الطفل كان يتضور جوعاً منذ ثلاثة أيام ، وهو

حائر يستجدي زاده من الوالدات بشق النفس .

وأمسكت « الدادة شيرين » بيدي تلافها وتقول :
شكرآ لك يا « سلوى » ... شكرآ لك .

— وماذا فعلت حتى أنال منك هذا الشكر كله ؟ ليست بي حاجة
إلى مافي ئدي من لبن ، فإن لم يرضعه هذا الطفل ذهب سدى .
فالت على تقول :

هذا ماكان في نفسي أن أقول ... لن تخسرى شيئاً بإرضاعك هذا
الطفل ، بل إنك لتكسبين بذلك ثواب الله !

وبعد وقت أقبلت علينا الطيبية بين يديها اللفيفة ، فحقق قلبي على
الفور ، ووجدتني أمدُّ يدي أتناول الطفل في شغف . وسمعتها تقول :
لقد جاءك يلتمس نصيبه من الطعام ، فهل تجودين ؟

وكشفت عن صدري ، فما إن داناني الصغير حتى ألقىته يشرب إلى
مختلج الشفتين مهتاج اليدين ، وسرعان ما تشبث بشدي وراح ينهل ويعمل .
وقالت لي الطيبية : سادعه لك وقتاً ، ولكن لا تركيه يرضع أكثر
من عشر دقائق ... خمس من كل ئدى ...

وانصرفت من الحجرة على الأثر .

وأمدضى الصغير في صحبتي وقتاً ، وعيناي لا تريمان وجهه الأملس
الرقيق ... كنت أديم النظر إليه وإلى عينييه الزرقاوين ، فكلمنا لاقتني هاتان
العيناان أحسست أن تياراً كهريأاً يصانني بهما ، تياراً متدفعاً يسري في أوصالي
ويبعث فيهما دفائن الشعور ، فلما انتمت الرضعة ظل الطفل مستيقظاً يبص
بعينييه ، ويضرب بيديه ورجليه ، ينظمه النشاط والمرح ، فأقبلت عليه
ألطفه وأداعبه ، وكانت تسنح على وجهه خلجات كأنها ظلال ابتسامات .

وقدِمت الطيبية ، فلما دنت من سريري ، قلت لها :

ألا تتركينه قليلا ؟

— ألا تضيقين به ؟ .

— إنه يؤنس وحدتي .

— إذن أتركه وقتاً في رعايتك ...

— وأمه ؟ أخشى أن تستبطلنيَّ مقدّمة ا

— إنها في حاجة إلى راحة ، وهي تعلم أن طفلها عند من .

يرعاه ... إنه هنا يجد على الأقل ما يسدُّ جوعته ، أما هناك فلا يجد

من شيء ا

وانصرفتُ عني ، وبقيَ الطفل معي طويلا من الوقت ، فكنت .

أعنيَّ به وأرضعه على النحو الذي رسمته لي الطيبية في حفاوة وإقبال ..

توالت أيام والطفل يحمل إلى "ليفى" معى فترةٍ ليست بالقصيرة .
 فازددت به تعلقاً . وأنست فى صحبته طمأنينة وهناء . وبدأت تنجاب
 عن نفسى غيوم الاسبى ، وأستقبل الحياة بشعور التفاؤل والاستبشار .
 لم أكن أفكر إلا فى حاضرى ، وفى وجود هذا الطفل معى ...
 وكنت أجدنى مزهوة مغتبطة كلما ألفت الطفل ينضّر وجهه ،
 وتقوّرّد وجنتاه ، فقد تجلت فيه علام الصحة ، وانقلب من طفل
 مهزول على وشك أن يفقد حياته ، إلى طفل ريان مكتمل النشاط
 والحيوية .

وكنت كلما نظرت إليه أحسست بأنّ لى حقاً عليه ، وأنه أصبح
 مديناً لى ... لم يعد غريباً عفى ، بل إنه حقى ...
 لو ملك الكلام فى مهده لصاح بى : لا تركبى ا
 وانقضت أيام ملازمى للفراش و جعلت أخطو فى الحجرة ، فكان
 يلذ لى أن أحمل الطفل بين يديّ أطوف به فى أرجائها أهدده ...
 وكنت كلما ضممته وثقتة ، سرى فى موات نفسى خصب ونماء ،
 وشاع فى حنايا صدرى إشراق والشرّاح .
 وقلت مرة : الدادة شيرين ، وأنا أدور به فى الحجرة :
 ألا أمضى إلى أمه أتعرف بها ؟
 فقالت : جميل منك أن تفكرى فى زيارتها ، ولكن لم يحن الوقت
 بعد ... سنؤجل ذلك إلى حين .

رجلست على السرير أحمل الطفل بين ذراعى ، فسمعت الدادة
شيرين ، تقول :

ألم أقل لك من قبل : إن الله قد يمن عليك بما يعوضك مما فقدت ؟
إن الله يأخذ ويعطى ...

فألقيت عليها نظرة ساهمة ، وقلت : ولكنه ليس بطفلى .
فتابعت كلامها غير معنيّة بقولى :

إن الله لاكرم من أن يحرمك ما يختلج في نفسك من عاطفة
الأمومة الحنون ... إنه يهبك طفلا يواسيك في محنتك ويشيع في
حياتك البهجة والنور .

فصحت وأجبتها بقولى :

إنه ليس طفلى مهما يكن من أمر .

فأحدثت بصرها في وقتاً . ثم دنت من أذنى تهمس :

تستطيعين أن تكونى له أمماً ... أما ثانية ... إذا لم يكن لديك من
ذلك مانع .

فاستطلت بعنقى إليها ، وقد ازددت بالطفل تشبهاً . وقلت : كيف ؟

— تستطيعين أن تعيشى معه ، لا يكون بينكما فراق .

فأخذت بيدهما أقول : كيف ؟ كيف ؟

— هذه مهنتى ... كلى هذا الأمر إلى ، وإن أدبره خير تدبير .

ولاححت على وجهها ابتسامة رقيقة ، ثم خرجت تتناقل على

عكازتها ، وأنا أرقبها حيرى يهزنى سرور خفى ...

يومان كمضيا ...

وفي ضحوة اليوم الثالث أقبلتُ على " الدادة شيرين " وضاحه الوجه مشرقة القسبات ، بيد أن حركاتها وإشاراتها كانت تفصح عن تأثر ، تجاهد في كبته وإخفائه عني . وقالت بعد أن ألفت بحسدها على المقعد في إعياء :

أراغبة أنت الساعة في لقاء أم الطفل ؟

— ليس لدى ما يمنعني من لقاءها في أى وقت تشائين ،

فاقربت مني ، تقول مرعشة الصوت :

لقد فاوضتها في كل شيء ، واتفقت معها على كل شيء ... لأنها لترحب بأن تسكوني ضيفها ترضعين الطفل وتكفليينه ... لقد شهدت لك الطيبة عندها بأن لبنك خير لبن يوافقه ويضمن له العافية والنمو ...

— تقصدين أن أكون في بيتها مرضعاً ؟

— ان تشعري من معاملتها أنك في صفوف المرضعات ... لأنها طيبة رقيقة القلب عطوف ... ستلقسين منها كل تكريمة وإعزاز ...

هيا بنا إليها ...

ونهضت معها ... ووجدتها تستند إلى في مشيها على الرغم من وجود عكازتها في يدها ، وشعرت بأنها تتعثر في خطاها تكاد تهوى . وكانت تهديني الطريق ، فسرنا في ممر انتهى بنا إلى باب ، فدخلنا

فيه ، فإذا بنا في بهو صغير يسلمنا إلى حجرة الأم ...
وطرق سمعى صوت سعدة نسوية تنبعث من تلك الحجرة ،
فوجدتني أتمهل في خطاي ... وتوالت السعدة مرات ... فوقفت
أنصت ، وبدأ قلبي يرجف ... والتفت إلى الدادة «شيرين» أستوضحها
الامر ... فرأيتها تدفع بي في رفق لا تابع السير ، وسمعتها تهمس :
«ثقي يا «سلوى» أن ليس في الأمر ما يضريك ...

وراحت تجذبني قائلة :

لقد مهدت لك كل شأن ... عولى على ...

ودفعت بعكازتها الباب ، فدخلنا .

فإذا بي ... أمام «سنية» وجهاً لوجه !

كانت تحمل طفلها بين يديها ، وهى تخطو في الحجرة خطاً بطيئاً
تعيئها عليها إحدى المعرضات . فلما رأته شعرت بها ترتد خطوة إلى
الوراء ، كأنها تريد أن تتوارى عني .

وغامت الدنيا في وجهي ، وكأني لا أتبين بعيني من شيء . ووجدتني
أستند إلى أقرب متكأ .

وأخذت أعتصر جبيني بيدي . وأنا أحس قشعريرة تهزني من فرع
رأسي إلى أخمص قدمي . وتراءى لي شبح «الدادة شيرين» يقصد
إلى موقف «سنية» ويلقي في أذنها بضع كلمات بلغت سمعي منها
هذه الجملة :

ألم نتفق على كل شيء ؟ ما بالك ؟ الخير فيما اتفقنا عليه !

وعادت «الدادة شيرين» إلى قول :

ألا تتقدمين لإرضاع الطفل ؟ إنه إليك في حاجة ...

وسمعت الطفل يتصايح ، كأنه يتقاضاني حقه عندي .
فاستأنفت ، الدادة شيرين ، تقول في صوت واضح النبرات :
ألا تحبين صديقتك ، سنية ، . . . لقد كانت في انتظار
مقدمك إليها .

فرفعت عيني إلى وجه سنية ، شديد الامتناع .
وسمعتها تحرك شفيتها مغممة ، ولكنني لم أستبن شيئاً مما تقول .
ووجدتها تحاول أن تمد يدها إليّ ، فأسرعت إليها ، وانكبت
راكعة أمامها ، وأخذت يدها بين راحتيّ أغمرها بالقبلات ، والدمع
يسبح من مقلتي ا ...

من مؤلفات

محمود نجور

١ - بالعربية :

١ مجموعات قصصية :

كل منها مجموعة قصص تحليلية للمؤلف - نالتا جائزة القصة سنة ١٩٥١ م .	كل عام وأنت بخير إحسان لله
مجموعات قصصية من صميم البيئة المصرية وأحداث مجتمعتنا ومشاكله ، يشحو فيها المؤلف منحى جديداً في التحليل النفسى وسبر أغوار النفس البشرية فيجلو الغامض من ألغاز المجتمع وخفايا نفوس البشر ، منفرداً بطابع جديد من فلسفة القضاء والقدر معالماً شواذ الطباع في رفق ولين آخذاً بأيديهم في هودة من جحيم الشهوة إلى نورانية الخير الرحيب وميدان الجمال الحبيب .	خلف الثمام شفاه غليظة بنت الشيطان مكتوب على الجبين فرعون الصغير شباب وغايات
مجموعة أقاصيص للنشء والأسرة .	قال الراوى

٢ - قصص مطولة :

فلسفة الحرب والسلم تطفئ على النفس البشرية	} كليوباترة في
ولو تطهرت في عالم الأرواح	
قصة فتاة لعبت بها الأحداث ولوتها البيئات	} سلوى في مهب
فسارت نهياً لأعاصير الهوى وصبايات الغرام	
وجرت على يديها حوادث عنيفة ورجات جسام	} الريح
فلسفة الجرى وراء المجهول عله أن يعوض	
المرء ما غاب في تحقيقه من مأمول .	} نداء المجهول

٣ - قصص تمثيلية :

صور حية ناطقة بحياة الحباج بن يوسف	} ابن جلا
في لون مسرحى جديد .	
حياة امرئ القيس في أدوارها الصاخبة .	} اليوم خم
قصة عنزة وعيلة في تحليل نفسى يحلو	
حقيقة المرأة .	} حواء الخالدة
فلسفة الحياة والتعلق بأذيال الأمل في أشد	
ساعات الحرج .	} المختبأ رقم ١٣
لحن المترفين وضجرهم من حياة النعيم ونزوعهم	
لحبة الصفاء أياً كان .	} سهاد
فلسفة الإصلاح والتضحية في أروع مظاهرها الحيوية	
	} فداء

المنقذة } قصة المعروف يأسر من أسدى إليه ويعذبه
حتى يرده إلى مسديه .

عوالى } نموذج المرأة تفتى فى صلابه الرجل وتعجب
ببطولته ولو كان شيخاً كبيراً .

قتابل } فلسفه الحياه والموت والصراع بينهما فى
جو من الغرور والتفاق .

أبوشوشة والموكب } مسرحيتان تمثلان رياء المجتمع وآثار البيئه
فى النفوس .

٤ — صور وخواطر :

شفاء الروح } مقالات تقسم بطابع الترويح عن النفس
بتوجيهها نحو مسالك الحكمة .

ملاميخ وعضنون } صور خاطفة لشخصيات لامعة من الشرق
والغرب [الشخصيات العشرون] .

أبو الهول يطير } رحلات المؤلف إلى أمريكا فى ثوب
قصصى مبتكر .

عطر ودخان } مقالات نقدية ساخرة فى طريقه حديثه
فريده .

فن القصص } محاضرات المؤلف فى الجامعات عن الفن
القصصى والقصص الإنسانى .

٥ — مسرحيات :

كذب في كذب

أشطر من إبليس

المزيفون

٦ — صور وخواطر :

النبي الإنسان

ب — بالإنجليزية :

Tales from Egyptian Life قصص من صميم الحياة المصرية

٣ — بالفرنسية :

Le Courtier de la Mort.

La Belle Aux Lèvres Charunes.

La Fille de Diable.

بنت الشيطان

Les Amour de Sami

غراميات سامي

Le Rieve De Samara.

حلم سمارة

د — بالألمانية : مجموعة قصص نشرها المستشرق الألماني

الدكتور ويدمار .

ه — بالإيطالية : مجموعة قصص ترجمها المستشرق الإيطالي جبريللي

و — بالعبرية : مجموعة قصص نشرها المستشرق « كايلاوك » .

